الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 02 – ابو القاسم سعد الله –
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الكتابة التاريخيّة في بلاد المغرب الاسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريّين

(8-9هـ/14-15م) موضوعاتها واتّجاهاتها

-دراسة وصفيّة لنماذج مختارة-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التّاريخ الوسيط

إعداد الطالب :
طيفوري قدور

إشراف:
ا.د. عيفة الحاج

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
عبد العزيز بوكنة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر – 2 –	رئيسا
عيفة الحاج	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر – 2 –	مشرفا ومقررا
نور الدين غرداوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر – 2 –	عضوا مناقشا
نبيلة عبد الشكور	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر – 2 –	عضوا مناقشا
ابراهيم بكير بحاز	أستاذ التعليم العالي	جامعة غرداية	عضوا مناقشا
طاهر بن علي	أستاذ التعليم العالي	جامعة غرداية	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 1442-1443 هـ / 2021-2022 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان

بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين

إنّ كلّ ما خططت في هذه الوريقات لم يستقم لولا فضل الله عليّ، ثمّ فضل من أجرى على يده نعمة المتابعة والاصطبار، والمساعدة تشجيعا وتوجيها.

جزيل شكري، وعظيم امتناني، للمشرف على الموضوع، الدكتورة الحاج عيفة... ضاعفت لغوبه وما صنعته مشاقّ العمل في أيّامه، فزدته بذلك نصبا على نصب الايام الخوالي، إذ كنت عالة عليه طيلة مراحل البحث، فكان معطاء وقورا، ناصحا، موجها، ومتابعا لي من فكرة البحث ابتداء، حتى استقام على الشّاكلة التي هو عليها، وما تخلّل ذلك من نكد فالعفو استاذي... العفو، أملي أنّ الجزاء على الله.

الشّكر متّصل أيضا بالدكتور ابن علي الطاهر، ذاك الذي كان ظهيرا على البحث، فكان على نهج من سبق، معطاء جوادا، فجهد نفسه هو ايضا، فأجرك على الله استاذي.

الدكتور العظيم المتواضع... ابراهيم بحاز.. لك مني كلّ بارات التقدير والاجلال... وكلّ مواقف التجلّة والاكبار..

الدكتورة الحاضرة طيفا... بوبة مجاني... مؤرّخة الاسماعيليّة باقتدار... مكانك محفوظ في اعلى سلّم المودّة والاجلال

الى الذين تكرموا بقراءة الرسالة، واقفين على مواطن النقص فيها والخلل، مقومين للخطإ فيها والزّلل، فدخلوا بذلك دائرة المرحومين، فقد أهدوا إليّ عيوبي.

الى كل من أسهم من قريب او بعيد في البحث..

الى الجميع .... شكري ودعواتي.

إهداء

إليك أيّتها الرّوح الهنيّة الشّريفة...أمّي
إلى المرابطين في فلسطين

أهدي ثواب الجهد، وأجر من استغرقته الفائدة...

مختصرات:

01- بالعربية

تح: تحقيق

تر: ترجمة

تق: تقديم

درا: دراسة

دت: دون تاريخ

د د ن: دون دار نشر

دط: دون طبعة

مج: مجلد

مخ: مخطوط

س: سلسلة

02- بالأجنبية

Edit:Edition

Op.cit: Opero citado

P: Page

P P: De la page a la Page

VOL: Volume

Ibid: Ib

المقدمة

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين وبعد:

استقر في الخلد وأنا طالب في مرحلة الماجستير طرْق المواضيع المنهجيّة في التاريخ، كونها من الحقول التي تسلّط الضّوء على جانب مهمّ من المسائل التي تشغل بال الباحثين كلّ مرّة يُثار فيها الموضوع، وقد كان مسار كتابة التاريخ من بين تلك القضايا التي طرحها البحث التاريخيّ، وأضحى رصد حركة الكتابة التاريخيّة من المنافذ التي فتحت للمؤرّخين بابا معرفيّا يمكن من خلاله استجلاء تطوّر كتابة التّاريخ، وتتبّع جذورها الأولى، ضمن ما اصطُلح عليه بالاسطوريوغرافيا وهو الذي أشتغل عليه اليوم في اطار أطروحتي للدّكتوراه الموسومة بـ"الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين 08-90هـ/14-15م موضوعاتها واتجاهاتها -دراسة وصفية لنماذج مختارة-".

01- الموضوع .. حدوده وأهمّيته:

إنّ التّاريخ الذي كان يُنظر إليه على أنّه سرديّات للتّسلّي قد ولّى وغُبر، وهاهي الظّروف تفرض علينا نظرة مغايرة، قوامها أنّ التّاريخ محور العلوم كلّها، كونه على علاقة بالإنسان، والبحث في كنهه يقتضي تجاوز وصف الوقائع والمعاش، إلى التّأريخ للمعرفة التّاريخيّة، باعتبارها رافدا من روافد الفكر الذي ينهد إلى غربلة الحقائق، وبيان الزّائف منها والأصيل، بتتبّع مصادرها، وفحص مناهجها ونقد مضامينها، الأمر الذي من شأنه أن يفضي إلى العلميّة التي تتوق إليها مختلف المعارف.

وإلى غاية اللّحظة، لازالت موضوعات كالتّاريخ السّياسيّ، والاقتصادي، والاجتماعيّ تستقطب الباحثين والدّارسين لتاريخ المغرب الإسلاميّ، لاعتبارات عديدة أهمّها وفرة المصادر، وسلاسة البحث فيها، عدا ذلك فإنّ طرْق المواضيع التي تتعلّق بمناهج كتابة التّاريخ، وأصول الكتابات التّاريخيّة واستقراء العوامل المؤثّرة في تطورّها، تبقى تعاني الهجر البحثيّ، إلّا ما كان من الباحثين الذين بسطوها في مقالات وبحوث، عكست همّ استشكال هذا الجانب لديهم، ومن ثمّة الاهتمام به، على شاكلة ما كتبه محمود إسماعيل، وعلاوة عمارة، وغيرهم.

وبذلك، فقد ظلّت الكتابات التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ -خصوصا- بحاجة إلى المزيد من التّشريح الذي يستقصي تطوّرها، ومناهجها، وبقدر المشرط الذي يستخدمه الباحث، بقدر ما تكون العمليّة أكثر تعقيدا، تزداد معها الحاجة إلى استجلاء الاستشكالات التي تتوارى خلفها، الأمر الذي سيتيح لنا مزيدا من الفرص لإعادة كتابة التّاريخ المغربيّ، انطلاقا ممّا يوفّره البحث في الكتابات التّاريخيّة من آفاق قد تفضي إلى فهم أعمق للتّاريخ بكل مستوياته في المنطقة.

ولعلّه من الجدير الإلماع إلى أنّ البحث في موضوع الكتابات التاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، نابع من الحاجة إلى إبراز تاريخ نشأتها وتطوّرها، ودراسة ناقدة لمؤرّخيها، من خلال القيام بنظرة فاحصة للمصادر، والوقوف على مناهجها، وتمييز الأصيل منها، في إطار التّأريخ للكتابة التّاريخيّة، والقصد من ذلك كلّه الوصول إلى تصوّر شامل لظروف تشكّلها، والعوامل المؤثّرة في مسيرتها، وبيان خصائصها المعرفية والمنهجيّة، ومنه الوقوف على ما أسهمت كلّ مرحلة من مراحل تاريخ المغرب الإسلاميّ في تطوّر الكتابة التّاريخيّة.

بناء على الذي سبق، يكون من الضروريّ الاعتناء بالأصول التّاريخيّة لتاريخ المغرب الإسلاميّ، من خلال لملمتها، وتفكيك الحمولة المعرفيّة التي تستبطنها، ثم الضغط على النّصّ ضغطا نقديّا يمكّننا من استجلاء ظروف تشكّله، ومنهجه، ومنه موقعيّته في مسيرة التّأليف التّاريخيّ.

ضمن ذاك السّياق كان اهتمامي، وانصبّ تدقيقا على دراسة طور من أطوار الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب، وقد كنت خلالها راصدا لاتّجاهاتها، ومناهجها، خلال عهد الدّول المستقلّة الحفصيّون، الزّيّانيّون، والمرينيّون، فكان ابن القنفذ، يحي بن خلدون، وابن أبي زرع، نماذج عن تلك الدّول تواليّا.

وقد رسمت لموضوعي حدودا زمنيّة اخترتها بعناية، فكان القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين الرّابع عشر والخامس عشر الميلاديّين (8هـ-09هـ/14هـ-15هـ) مجال بحثي، ذلك أنّهما القرنان اللّذان استعادت فيهما الكتابة التّاريخيّة بريقها، بعد ضمورها أيّام المرابطين والموحّدين، ولما لهما من ترابط فرضه الواقع السّياسيّ الجديد، فنتاج القرن التّاسع على علاقة بالقرن الثّامن حيث انتعاش حركة التّدوين التّاريخيّ، ثم بلوغ أوجّها في القرن التّاسع الذي يُعدّ أوفر وأخصب عهود الإنتاج الثّقافيّ في بلاد المغرب الإسلاميّ[1].

تُعدّ الكتابة التّاريخيّة تلك امتدادا لسابقتها خلال العهد الموحّديّ والفاطميّ في شقّه المتعلق بخدمة السّلطة الحاكمة، ذلك التّاريخ الأُسريّ الذي فرضه منطق الواقع الجديد، الذي ظلّ يبحث عن الشّرعية بين الدّول الثّلاث القائمة، مرّة بالصّراع، ومرّة أخرى بالسّجالات المنقبيّة والمثلبيّة، التي ترفع قوما وتحط أقواما، الأمر الذي ساهم في ثراء الكتابة التاريخية.

يختلف القرنان (8هـ-09هـ/14هـ-15هـ) عن العهود السّابقة في التّجديد الذي طال الكتابة التّاريخيّة، فابنا خلدون كان لهما قدم سبق في طرح نظريتين في التّاريخ، أما الأولى فهي لعبد الرحمن بن خلدون — وهي المعروفة لدى المؤرخين- والثّانية المغمورة هي التي طرحها أخوه يحي بن خلدون[2]، هذا إضافة لما امتاز به العصر من تنوّع وثراء موضوعا ومنهجا.

تركت الفترة القرنين الثامن والتاسع الهجريّين أعمالا هامَّة في التَّاريخ، فمؤرخ كعبد الرحمن ابن خلدون مثلا، قد طرح أبرز نظريات العلوم الاجتماعية[3]، وأسّس لفلسفة التّاريخ من خلال مقدمته، فكان ذلك إعلان عن بداية عهد جديد من الكتابة التّاريخيّة، الأمر الذي لم يحصل بعده، فكانت بذلك نكسة لتاريخ المغرب الإسلامي.

ولئن كانت مدرسة عبد الرحمن ابن خلدون لم تتسرب إلى الذين جاؤوا بعده، إلا أنّنا نستطيع أن نلمس ذلك التّطوّر الحاصل في الكتابة التّاريخيّة خلال ذينك القرنين، من خلال التّنوّع المعرفيّ؛ حيث الوقوف على نتاج أولئك

---

[1] **سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، س 2، ط خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ، ج1، ص39.**

[2] **سعد الله: مرجع سابق، ص58. يتّفق يحي مع أخيه ابن خلدون في أن التاريخ قوامه التحليل والتعليل، ومنه البحث عن الأسباب التي تحكم حركة التاريخ.**

[3] **نفسه، ص58.**

المؤرّخين في مختلف حقول الكتابة التّاريخيّة المتنوّعة، والمنهجيّ؛ حيث استغراقهم جلّ المناهج التي يستلزمها التّدوين التّاريخيّ، بل وقد كان لبعضهم سبق في منهج التّأليف[1].

من هناك، كانت أهميَّة موضوعي هذا الذي سأحاول فيه تتبّع الكتابات التاريخيّة خلال ذينك القرنين محاولا رصد التّطوّرات الحاصلة، وذلك بالقيام بعمليَّة جرد لتلك المؤلَّفات، وتناولها بالتَّحليل والدِّراسة والوصف عساي بذلك أرفع الغموض الذي لزم حيثيات تلك الفترة في شقّها الاسطوريوغرافيّ(*) –على الأقل– ومنه تغطية تلك الحقبة المهمَّة من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي.

02– أسباب اختيار الموضوع:

هذا، وقد شدّتني عوامل عدّة لخوض الموضوع ودراسته، من ذلك أنَّ تخصيص هذه المرحلة بالدِّراسة يشكّل إسهاما في مجال البحث والاستقصاء، تضاف إلى ذلك الذي أُلِّف عن نظمها، وإدارتها وحروبها، فضلا عن ذلك تعدُّ دراستي هذه مقاربة منهجية في ذلك الإرث التّاريخيّ، مرفوقة بالتّحليل والتّصنيف، وبذلك أكون قد أمطت اللّثام عن مكنون مهمٍّ من التُّراث المغربيّ المتمثل في كتاباته التّاريخيّة خلال ذينك القرنين، وما يتبعه من دراسة لأسباب ازدهار الكتابة التَّاريخية ونتائجه، ومكامن تفاعله مع الخارج تأثُّرا و تأثيرا.

وخلال ذلك كلّه سأحاول إبراز خصائص التّدوين التّاريخيّ خلال تلك المرحلة، بالإضافة إلى فعل السياسة في الكتابة التّاريخيّة، ومن ثمّ الوقوف على التّنوّع الذي يطالها منهجا وموضوعا، ومنه بيان موقعيّة التّاريخ في المنظومة الفكريّة وقتذاك.

إنَّ النّتاج الثقافي الذي انصبَّ حول الثَّورات والحملات العسكريَّة خلال تلك المدّة – وللذين درسوه جزيل الشكر– فرض عليّ حتميَّة ولوج الكتابة التَّاريخية التي لم تتناولها الدِّراسات بالقدر الذي ينبغي أن تكون عليه، فرأيت أن أساهم في قراءته مرَّة أخرى، تحليلا، وصفا، واستقراءً لمسيرة تطوُّره.

غزارة التّآليف التّاريخيّة في تلك الفترة، من العوامل التي ساقتني –أيضا– نحو دراسته حيث النّزوع نحو استقصاء ذلك التّراث، فحقول التّأليف كالتّاريخ العامّ، الرّحلة، التّراجم، الوفيات، والسّير شهدت تعاظما لا مثيل له قبل وبعد الفترة التي حدّدتها، وقد كانت جديرة بالاحترام والاهتمام على السّواء.

03– إشكالية الموضوع:

بناء على ما سبق، فإنّ الدّراسة تتأسّس على السّؤال المنهجيّ الذي هو:

هل استطاعت الكتابة التّاريخيّة خلال القرنين (8هـ–09هـ/14هـ–15هـ) في بلاد المغرب الإسلاميّ أن تعطي تصوّرا لواقعها يرقى إلى مستوى الفكر التّاريخيّ أو المدرسة التّاريخيّة؟

وتستغرق الدراسة أيضا جوابات عن أسئلة فرعية تشكّل وحدة لها وهي:

– كيف كانت حركة الكتابة التاريخيّة في ظلّ الواقع الجديد؟ وهل له تأثير على سيرورتها؟

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تح: محمود سعيد عقيل، ط1، دار الجيل، لبنان، 2005، ص 09. ابن قنفذ أبو العباس احمد بن حسن: كتاب الوفيات: تح: عادل نويهض، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص 21.

(*) الاسطوريوغرافيا علم يهتم برصد جذور الكتابات التاريخيّة، وتتبّع مسارها بهدف الوقوف على مظانّها الأولى، وخط تتطورها خلال الزمن.

– ما الموضوعات والحقول والمناهج التي طرقها مؤخو الفترة محلّ الدّراسة؟

– هل يمكن اعتداد الفترة نقلة في كتابة التّاريخ استقامت على مناهج معيّنة؟ أم هي استمرار لمراحل سابقة – منهجيّا ومعرفيّا–؟

– ما هي العوامل المؤثّرة في الكتابة التّاريخيّة خلال تلك الفترة؟ وهل استقامت على خصوصيّة معيّنة وقتذاك؟

– بم تميزت كتابات يحي ابن خلدون، ابن القنفذ، وابن ابي زرع، موضوعا ومنهجا؟وهل كانت واصفة للواقع ناقلة له؟

04– خطة البحث:

استدعت الاجابة خطّة رأيتها تستوفي الموضوع، وهي خطّة قوامها فصولا سبعة، واحد منها تمهيديّ، لكلّ واحد منهم مدخل، تسبق الكلّ المقدّمة والخاتمة، ليستقيم البحث على الشّاكلة التي هو عليها مراعيا في كلّ ذلك الرّبط بين فصوله منهجيّا ومعرفيّا، حتى يشكّل الكلّ وحدة واحدة، يكمّل بعضها بعضا، خدمة لما ينهد إليه البحث.

شكّلت المقدمّة بيانا لموقعيّة الكتابة التّاريخيّة عموما في اهتمام الباحثين، استهدفت من وراء ذلك إيضاح أهميتها، ذلك أنَّ الباحثين لم يستشكلوها إلّا القليل منهم، فهي رافد يُرتجى من خلاله تتبّع نشأة وتطوُّر الفكر التَّاريخيِّ، ضمن ما يعرف بالإسطوريوغرافيا أو الكتابة التَّاريخيَّة، ومنه الوقوف على الأصول التّاريخيّة لتاريخ المنطقة، وخطّ سير الكتابة التّاريخيّة وتطّورها، محاولا رصد موقعيّة التّأريخ في كتابات المؤرّخين المغاربة وقتذاك.

حوى الفصل التَّمهيديُّ عرْضا للواقع السّياسيّ خلال الفترة محل الدّراسة، وهو الواقع الذي تميّز بانقسام المغرب انقساما ثالثا بعد الانفصال الأول عن الخلافة في المشرق، ثمّ النقسام الثاني الذي كان بعد رحيل الفاطميّين لمصر، وهاهو الانقسام الثالث –بعد سقوط الموحّدين– الذي أفرز دولا قطريّة وهي الحفصيّة في المغرب الأدنى، والزّيّانيّة في المغرب الأوسط، فالمرينيّة في المغرب الأقصى، وهو الواقع الذي أفضى إلى تشكّل ملامح ثقافية جديدة، موازية للواقع السّياسيّ الجديد.

وقد كان **الفصل الأوَّل –الاستوريوغرافيا التاريخيّة بالمغرب الاسلامي إلى غاية سقوط الموحّدين–** مجالا لرسم الخطَّ العامَّ لسير الكتابة التَّاريخيِّة ببلاد المغرب الإسلاميّ إلى غاية سقوط الموحّدين، ذلك أنها القاعدة الأولى التي تستند عليها كتابات القرون التّاليّة لفترة ما بعد الموحّدين، فعالجت مبتدأ الكتابة التّاريخيّة إلى غاية القرن الرّابع الهجريّ، فقد كان روّاد الكتابة التّاريخيّة وقتذاك إخباريّين كتبهم مفقودة في أغلبها، جرّاء الصّراع الذي ساد المنطقة خلال تلك الفترة، عدا ما كان من الرّستميّين الذين حفظوا تراثهم من الضياع، ومع حلول القرن الرّابع الذي شهد قيام الدّولة الفاطميّة، ازدهر التّدوين التّاريخيّ هناك حتّى عُدَّ قرن الكتابة التّاريخيّة، ومردّ ذلك إلى عوامل عدّة لعل أبرزها تسخير الفاطميّين التّاريخ لخدمة الدّولة، وهو ما مكّنهم من وضع يدهم على التّآليف التّاريخيّة تشجيعا وتوجيها، وبرحيلهم إلى مصر، عرفت الكتابة التّاريخيّة اضطرابا مع الدّول التي قامت بعدهم، وصل لدرجة الرّكود أيّام المرابطين، لتعرف استفاقة على عهد الموحّدين أعادت إلى الأذهان الازدهار الذي كان على أيام الفاطميّين، ويبدو أنّ أدلجة التّاريخ قد عادت لتفعل أيّام الموحّدين ما فعلته وقت الفاطميّين.

جاء **الفصل الثاني** معنونا بـ **–اتّجاهات ومناهج التدوين التاريخيّ ببلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين (08–09هـ/14–15م)–** ليكمل تتبّع مسار الكتابة التّاريخيّة في المنطقة، وهي الفترة التي ستحمل معها وضعا سياسيا جديدا بملامح ثقافية جديدة، فترة شهدت قيام دول ثلاث تقاسمت حكم بلاد المغرب بعد افول نجم الموحّدين، فكان الحفصيون في المغرب الأدنى، الزّيّانيّون في المغرب الأوسط، والمرنيّيون في المغرب الأقصى، اجتزأت من تلك الفترة القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، دون غيرهما من القرون وذلك لاعتبارات عدّة لعلّ أبرزها أنّهما من أوفر القرون انتاجا ثقافيّا، بينما كان القرن السّابع –الذي استبعدته– قرن الاضطراب الذي أعقب سقوط الموحّدين، والذي تميّز بالشّحّ التّأليفيّ، وهو أمر طبيعيّ بحكم الظروف التي سادت المنطقة، ومثله القرن العاشر الذي سيشهد تضعضع دول المغرب، وسير خطّها الحضاريّ – ومعه التّأليف التّاريخيّ – نحو الأفول، وبدا أنّ سقوط الدّول الثّلاث مسألة وقت.

يعالج الفصل الثانيّ المناهج أكثر من المحتوى، ذلك أنّي طرقت فيه اتّجاهات ومناهج التّدوين التّاريخيّ بالمنطقة خلال ذينك القرنين، واستقامت معالجتي له على استقصاء حقول التّأليف التّاريخيّ ومناهجه وقتذاك.

وخلال ذلك كله، حاولت بسط مناهج المؤلّفين حال التّدوين، فأعمد إلى ذكر المؤَلَّف وصاحبه، وأعرض مواطن إفادة الباحث منه تاريخيّا، مارّا على منهج تأليفه –كما أشرت– مبيّنا الطريق التي سلكها صاحبها حال تأليف الكتاب، فأغطي بذلك فصلي.

ما سيطبع الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الاسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين من تنوّع للحقول التي طرقتها، وخصائص منهجيّة استقامت عليها، هو نتاج ظروف وعوامل أثّرت على مسارها وعلى توجيهها، وتلوّنها بلون الدّولة الحاكمة، وأسهمت –من جهة أخرى– في ثرائها وازدهارها، وبذلك حاولت إحصاء تلك المؤثّرات الثّقافيّة التي أثّرت في الكتابة التّاريخيّة وقتذاك، وبيان ما تميّزت به من خصائص، وكان ذلك محتوى **الفصل الثّالث** من دراستي والذي كان عنوانه **الكتابة التاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريّين (08–09هـ/14–15م)**.

البقيّة الباقية من الموضوع تصوّرتها **جانبه التّطبيقيّ**، حيث عملية إسقاط للجانب النّظريّ وما افترضته من خصائص ومؤثّرات على مسيرة الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، ومن تمثّلات منهجيّة ومعرفيّة للنّمذجة التّأليفيّة التي اخترتها من بين كتابات ذينك القرنين، محاولا خلالها استقراء مدى استيعاب أولئك المؤرخين لمناهج التّدوين، وهل في ذلك استمرار أم إبداع؟ ومنه استجلاء مواطن الجِدّة في الكتابة التّاريخيّة –إن وُجدت– منهجا وموضوعا، وكلّ ذلك ضمن تتبّع مسيرة تطوّر الكتابة التّاريخيّة، وظروف تشكّلها خلال القرنين مجال الدّراسة، ومن ثمّ بيان خصوصيّتها قطرا قطرا، بهدف الخروج بتصوّر عام حول طبيعتها، ومدى إسهامها في رسم صورة للواقع، يمكن أن يرقى بها إلى مستوى الفكر التّاريخيّ أو المدرسة التّاريخيّة.

ففي **الفصل الرّابع**، اخترت **ابن ابي زرع الفاسي** كانموذج عن المغرب الأقصى، وعالجته على شقّين؛ الأول ترجمة وافية له، والثّانيّة –وهي الأهم– دراسة لتآليفه، حاولت جهدي فيها ان أقف على ما طرحته كتاباته من تمثّلات منهجيّة وموضوعاتية، فرحت أتتبّع نسبة الكتاب لمؤلّفه ابتداء، ثمّ التّعريج على عرض مادته من خلال بسط محتواه،

مستهدفا بيان حمولته المعرفيّة، وفي مقاربات منهجيّة أروم مدى التزام ابن أبي زرع الأسس المنهجيّة التي تستدعيها كتابة التّاريخ، وهكذا دأبي مع **الفصلين الخامس والسّادس** تواليا، على اعتبار أنهما محلّ الدّراسة التّطبيقيّة أيضا.

وبتوفيق من الله، كانت **خاتمة** الاطروحة مجموعة من الإستنتاجات التي خلصتُ إليها، بعد الدّراسة والتّحليل.

05- منهج الدّراسة:

لا يمكن لأيّ دراسة أن تستقلّ بمنهج معيّن لتمضي به بحثا واستقصاء، ذلك أنّ لكلّ موضوع مباحث يستقلّ كلّ منها بفكرة معيّنة تقتضي منهجا خاصّا في معالجتها، وقد كان موضوعي من تلك الشّاكلة التي تستدعي مناهج عديدة حتى يستوفي مضمونه تاريخا وجغرافيا.

وبذلك، فإنّ **المنهج التّاريخيّ** سيكتنف الموضوع في عمومه، وهو منهج لا يمكن للدّراسات التّاريخيّة النّأي عنه، كونه يستدعي المناهج جلّها، فضبط تواريخ الدّول، ووفيات المؤرّخين، ستُشكِّل جزءا من ذلك المنهج وسينسحب الأمر على موضوعي، إذ تراني أحرص على التّدقيق فيها، إضافة إلى ما تقتضيه دراسة التّاريخ من تحليل وتفسير لأسباب ازدهار الكتابة التّاريخيّة أو تضعضعها، وتعليل للعلاقة بينها وبين السّلطة الحاكمة، ثمّ الوقوف على خطّ سيرها في الزّمان والمكان، وتلك عمدة المنهج التّاريخيّ.

غير أنّي سأستدعي **المنهج الاستقرائي** في استخراج أدلّة التأسيس والاستدلال على صحّة عنوان الكتاب، ونسبته لمؤلِّفه، وتلك عمليّة تستوجب الحفر في المصادر البيبليوغرافية والفهارس على السّواء، واكتناه ما حوته عن ذلك، قصد الوقوف على إجابات شافيّة، بعد رصد الخلافات التي وقعت بينهم حول الكتاب ومؤلِّفه، ويزداد الأمر تعقيدا لما يتعلّق الأمر بالتّرتيب الكرونولوجيّ تآليف المؤرّخ الواحد.

كما سأعتمد **المنهج التّحليليّ** -الذي قوامه التعليل والتفسير والنقد- في تناولي لعناصر الموضوع المبثوثة في مباحثه، وصميم ذلك سيكون في الجانب التّطبيقيّ لموضوعي، أي في النّماذج التي اخترتها لأطروحتي، حيث المقاربات المنهجيّة لتطوّر الكتابات التّاريخيّة، والمعرفيّة التي تقف على الحمولة التّاريخيّة المبثوثة في محتوى النّصوص، ومنه ادراك مدى تأثير السّياسة والايديولوجيا في كتابة التّاريخ، وسأنهج -حال دراسة كلّ أنموذج - منهجا إحصائيّا استغرق من خلاله مؤلَّفاته، وأتناولها بالتّحليل موضوعا ومنهجا.

وبذلك، فإنّ ممّا يقتضيه التّحليل هو ما تعلّق بالشّقّ التّطبيقيّ من دراستي، حيث الوقوف على شخص المؤرّخ، من خلال بسط ترجمة وافية له، ثم بيان موقعيّته في الكتابة التّاريخيّة المغربيّة من خلال تآليفه، وتجدني خلال ذلك كلّه سأنزع إلى اختيار عيّنات بحثي - ابن أبي زرع، يحي بن خلدون وابن القنفذ- بعناية فرضتها علي طبيعة الموضوع الذي ينهد إلى تتبّع مسيرة الكتابة التّاريخيّة وقتذاك وأولئك المؤرّخون قد كانوا على علاقة مباشرة بدول المغرب خلال تلك الفترة، وعليه سأستبين وقع الأيديولوجيا على التّاريخ، وتأثير السّلطة على مسيرة الكتابة التّاريخيّة، الأمر الذي سيفرغه أولئك المؤرّخون إفراغا في مؤلّفاتهم التي تستوجب إحصاء ودراسة تحليلية لمضمون الكتاب، والوقوف على تأثير السّلطة في بعض مظانّ الكتاب، مستهدفا بذلك حقيقة الذي حدث، وهل للسّلطان دور في قلب الأحداث بالتّأثير على المؤرّخ؟

والذي سأقوم به أيضا – بعد ذلك – الوقوف على الجوانب المنهجيّة في تلك التّواليف، من خلال طَرْق الحقول التأليفيّة، والتّمثّلات المنهجيّة التي ستعرفها الفترة، ومقارنتها بسابقاتها من الفترات وغايتي من ذلك استجلاء التّطوّر الحاصل في الكتابة التّاريخيّة خلال خطّ سيرها منهجا وموضوعا.

هذا، وسأستعين **بالوصف منهجا**، خلال مروري على ذكر مدن المغرب الإسلاميّ، وما كان من وقائع وحروب تستدعي الوصف، ناقلا ما انفردت به تلك المصادر من توصيف لأحوال المجتمعات والكوارث والمسغبّات، وما تعلّق بالبلط، ونعوت الحكّام، والعلماء وغيرهم.

تبقى الإشارة إلى أنّ الإحاطة بمؤلّفات مؤرّخي الفترة، يقتضي عملا **إحصائيّا** لما كُتب في أقطار المغرب الثّلاث، وهي مسحة راعيت فيها تاريخ وفيات المؤلّفين، حيث سأعرض مؤلّفاتهم تصاعديّا حسب تاريخ الوفاة، وسألحق المؤرّخ بجغرافيته انطلاقا من مكان وفاته.

06– الدراسات السابقة:

فتحت الدّراسات السّابقة لموضوع الكتابة التّاريخيّة خلال القرنين 8هـ–9هـ/14م–15م بابا جديدا لي لخوض معترك البحث فيه، إضافة لذلك، كانت سندًا يضاف إلى الذي اعتمدته من مصادر ومراجع، على أنّ الدّراسات حول ذينك القرنين قد شهدت زخما فاق الكفاية في السّياسة والحروب، لكنّها عرفت –في الوقت ذاته– شحّا تأليفيّا، فقد تناول بعضها الموضوع ضمن جغرافيا المغرب الإسلاميّ بحدوده الكبيرة، أو كانت مقتصرة على قطر من أقطاره ضمن إطار الحياة الثّقافية أو العلميّة، واختصّ بعضها بالقرون الهجريّة الأولى، وسنذكر ذلك بيانا لاهتمام الدّارسين بالكتابة التّاريخيّة هنا، وذلك هو الذي عُثر عليه متفرقا في مختلف البحوث ومنها :

– **إسماعيل محمود: الفكر التّاريخي في الغرب الاسلامي الوسيط**، وهي سلسلة محاضرات ألقاها على طلبته خلال إقامته في المغرب، تتبّع خلالها الجذور الأولى للتّدوين التّاريخيّ في المنطقة مضافا إليها عدوة الأندلس، من القرون الهجريّة الأولى، إلى القرن الخامس الهجريّ.

– **بحّاز إبراهيم بكير: الكتابة التاريخيّة في المغرب الاسلامي خلال القرون الهجريّة الثّلاث الأولى**، وهو مقال نشره في مجلّة البيان الأردنيّة، استقصى فيه الإخباريين الأوائل، وإرهاصات التّدوين التّاريخيّ هناك، واكتفى بالقرن الثّالث حدّا لدراسته.

– **الطّيّب بوسعد: المدرسة التّاريخيّة المغربية ومنهجها في كتابة التّاريخ خلال القرون الهجريّة الأولى** وصاحبه عرّج على بيان مختلف المناهج التي اتُّبِعت في كتابة التّاريخ، وطرَق مختلف الحقول التّأليفيّة التي استغرقتها تلك الكتابات.

– **المؤرخون الاباضيون في افريقيا الشمالية** وهو ترجمة لكتاب "المؤرخون وكتاب السير والرواة الاباضيون .. من القرن الثامن وحتى القرن السّادس عشر الميلادي" لمؤلّفه **تادايوش ليفيتسكي** وهو تأليف تخصّص في الاسطوريوغرافيا الاباضيّة من القرن الثّاني إلى العاشر الهجريّ.

– **"الاسطوريوغرافيا المرينيّة، ابن خلدون ومعاصروه" لـ مايا شاتزماير**، وهي أولى الدّراسات التي اهتمّت بالمنطقة، اقتصرت فيه على عصر ابن خلدون، محاولة بيان تأثير مدرسة ابن خلدون على من جاء بعده.

– وضمن الإطار نفسه كانت أطروحة الدكتوراه **"تطور الكتابة التّاريخيّة في عصر الدّولة المرينيّة"، لمحمد علي احمد قويدر** بجامعة قناة السويس مصر، وقد بعث لي بعض الزّملاء صورا عنها وكانت استغرقت تاريخ الكتابة التّاريخيّة ضمن جغرافيّة المرينيّة، حاول من خلالها صاحبها بيان العوامل المؤثرة فيها، متتبّعا أهم مؤرّخيها وقد اقحم فيها ابن خلدون، مقارنا فيها بينه وبين ابن الخطيب.

– **د . علاوة عمارة : "الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط"** وهي مقالة ضمن مجموعة مقالات استشكلت تاريخ المغرب الاسلامي الوسيط، خصّصها صاحبها للغرب الإسلامي الوسيط، مستغرقا دول المغرب الإسلامي والأندلس، مغطّيا فيها حقبة امتدّت من القرن الثّالث إلى التّاسع الهجريّ، قدّم خلالها توصيفا لمسار الكتابة التّاريخيّة في الغرب الإسلاميّ، فاتحا بذلك المجال للبحث والنّقاش.

– **الاخضر العبدلي: الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان**، وهي أطروحة دكتوراه في التاريخ الاسلامي، بجامعة تلمسان، استطاع من خلاله صاحبها الإحاطة بواقع الثّقافة الزّيّانيّة، وذلك من خلال تدارك تراث المغرب الأوسط الزّيّانيّ على مختلف الأصعدة، الأدبيّة، الدّينيّة، الاجتماعيّة، والاختراعات العلميّة.

– **العربي اكنينح : الأسطوغرافية العربية: طبيعتها ومحدودية قيمتها التاريخية**، وهو مقال استعرض فيه نشأة الأسطوغرافية العربيّة، وتحليل طبيعتها، والوقوف على محدودية قيمتها التّاريخيّة، من خلال بَوْنِ الزّمن بينها وبين الحدث، والأيديولوجيا الحاكمة التي وجّتها حيث شاءت.

– **حساين عبد الكريم: حركة التّأليف التّاريخيّ في العهد الزّيّانيّ**، وهي أطروحة الدكتوراه التي حملتني على تغيير موضوعي الأوّل، الذي كان يقترب من هذا العنوان كثيرا، وقد تتبّع صاحبها حركة التّدوين التّاريخيّ في المنطقة، واقفا على العوامل المؤثّرة على خطّ سيرها، واستعرض نماذج لمؤرّخين من المنطقة والفترة.

07– قراءة في المصادر والمراجع:

كان اعتمادي وأنا مقبل على الموضوع جملة من المصادر والمراجع، شكّلت سندا لي طيلة مراحله التي شهدت تغيّرًا مستمرًّا فرضه واقع القراءة والاطّلاع عليها، الأمر الذي حدا بي إلى التّكيّف مع كلّ جديد، فكان أن تعاضمت المادّة البحثيّة، وتنوّعت مشاربها، بين عربيّة ومعرّبة وأجنبيّة، والتي من جملتها قد اخترت الآتي، محاولا بيان مواطن الإفادة فيه، وطريقة التّعامل معه.

أوّلا: المصادر:

01– كتب التاريخ:

– **ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808هـ/1406م): تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، وتنبلج أهمية الكتاب في كون صاحبه قد بيّض فيه تجارب شخصيّة استقاها من تداوله خدمة أمراء دول المغرب، وتجاوزها إلى خدمة بني الأحمر في غرناطة، الأمر الذي مكّنه من وثائق السّياسة، وشؤون البلط، وما كان من لقياه بعلماء عصره في المنطقة.

– **المراكشي ابن عذاري (ت 712هـ/1312م) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب** وهو تأريخ استغرق خلاله صاحبه أحداث فتح بلاد المغرب الإسلاميّ إلى عصر بني مرين، تتجلّى قيمته في كونه يعطي صورة

واضحة عن واقع الكتابة التّاريخيّة وقتذاك، سواء فيما تعلّق بالموضوع أو المنهج، إضافة إلى ذكره المصادر التي سبقته وكانت عمدته، وهما ساعد على إدراك القيمة العلميّة له ولمصادره.

– مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، الكتاب تأصيل للزّيّانيّين، وشرعنة لحكمهم، أقرّ صاحبه أنّ الدّولة الزّيانيّة "خلافة"، ووسم أبا حمّو بـ "إمام دهرنا"، وما وصلنا منه هو الجزء الثّاني الذي يؤرّخ لمرحلة من أرقى فترات الدّولة الزّيّانيّة، وهي فترة حكم أبي حمّو موسى الثّاني (ت 791هـ/1389م)، وضمّنه مؤلّفه مادّة لا توجد في كتاب "بغية الرّواد" الذي وصلنا كاملا، وحمل دقائق عن الفترة لا توجد في "نظم الدّر".

– ابن الشّمّاع محمّد بن أحمد (ت 833هـ/1430م): الأدلّة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة تناول ابن الشّمّاع في كتابه أخبار الخلفاء الحفصيّين "على وجه الإيجاز والاختصار"، يستغرق فيه صاحبه حدود بلاد المغرب، والتعريف بتونس، وأخبار الفتح، ويتابع صاحب الكتاب بعد ذلك ذكر خلفاء الدّولة الحفصيّة تباعا، إلى غاية "الإمام" أبي عمرو عثمان صاحب الفترة، وهي مادّة توفّر للباحث جهدا حال تتبّع أخبار الدّولة الحفصيّة وخلفاءها.

– ابن الأحمر الغرناطيّ إسماعيل بن يوسف (ت 807هـ/1405م): روضة النّسرين في دولة بني مرين، أبرز فيه مؤلّفه فائدة علم التّاريخ، ذاكرا تفاصيل نشأة الدّولة المرينيّة بدءا بأنساب ملوكها إلى أواخرهم من عهد أوائلهم، حتى أيّام ابي سعيد عثمان بن احمد المرينيّ، وما يسترعي الاهتمام إيراده أنّ بعض المؤرّخين يصلهم بآل البيت من سيّدنا عليّ τ، ثمّ يسترسل في تفصيل قبائلهم وبطونهم، ويذكر نتفا من إمارتهم أيّام الموحّدين ملقّبا يعقوب بن عبد الحقّ بأمير المؤمنين، اللّقب الذي يوحي بكون الدّولة حقيقة بخلافة المسلمين هناك.

02– كتب التّراجم والطّبقات

– التّنسيّ محمد بن عبد الله (ت 899 هـ/ 1494 م): نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، وهو الباب السّابع من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيّان، وأهمية الكتاب في كونه غطى فترة تزيد عن سبعين سنة من تاريخ الدّولة، وله من الأهميّة ما جعله عمدتي في استجلاء واقع الحياة الثّقافيّة بالمغرب الأوسط الزّيّانيّ، توازيّا مع كتاب "العبر" و"البغية".

– أبو العرب تميم بن تميم التّميميّ (ت 333هـ/944م): طبقات علماء إفريقيّة، أفادت تراجم ابي العرب الباحث كثيرا، خصوصا في الشّقّ المتعلّق بعملاء القيروان خلال القرون الهجريّة الأولى، وهي قرون التّأسيس لكتابة التّاريخ في المنطقة، استطعت من خلاله تتبّع مسار الكتابة التّاريخيّة بما أورده من تراجم لمؤرّخين وإخباريّين ومؤلّفاتهم خلال تلك القرون.

– ابن فرحون إبراهيم بن علي (ت 799هـ/1397م) : الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، وهو تراجم لأعيان مذهب مالك في بلاد المغرب الإسلاميّ، أفادني حال التّطرّق للإخباريّين الأوائل في المنطقة، وقد ذيّله التنبكتي في نيل الابتهاج، واستدرك عليه ما يزيد عن الثمانمائة ترجمة مرتّبين على تاريخ الوفاة تتأتّى أهمّيته في كونه يضع تراجم لعلماء بلاد المغرب الإسلاميّ، وتواريخ ميلادهم ووفياتهم، مقدّما صورة عن الواقع الثّقافيّ في المنطقة.

– إبن مريم محمّد بن محمد(ت بعد 1025هـ/1615م): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان ترجم فيه لما يربو عن الثّمانين ومائة من العلماء والأولياء التّلمسانيّين، الأحياء منهم والأموات، الأمر الذي مكّنني من وضع يدي عدد كبير من العلماء والأولياء الذين عاشوا في تلمسان وأحوازها، وأسهموا في الحركة العلمية والثقافية التي عاشتها هذه المنطقة، فضلاً عن المعلومات المتعلقة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تميز تلمسان وأحوازها.

– الغبرينيّ أحمد بن أحمد (ت 704هـ/1304م): عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، وهو مجموع لمائة وثمانين ترجمة لرجال العلم والدين والتّصوّف خلا القرن الذي عنون به كتابه ورغم فقر المادّة الاجتماعية والاقتصادية للكتاب، إلّا أنّه ذا قيمة ثقافية تتجلّى في كونه يعطي صورة عن الواقع الثقافيّ لبجاية طول الفترة، من خلال إحصاءه لعلماء المائة السّابعة الذين حفلت بهم بجاية.

03– كتب الرحلة

– القلصاديّ علي بن محمد القرشيّ (ت 891هـ/1486م): "تمهيد الطّالب، ومنتهى الرّاغب، إلى أعلى المنازل والمناقب" وهي رحلة قصد من خللها القلصاديّ الحجّ والعلم، والأهمية التي ترتجى منها التّعريف بمشايخه، ترجم فيها لثلاث وثلاثين من شيوخه، ومصنّفاتهم، ذاكرا المعالم والبلدان والأحداث والأخبار التي عاينها فكانت جامعة لكلّ ذاك، واصفة مسالك طرق الحجّ.

– المقريّ التّلمسانيّ أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالجدّ (ت 749م/1349م): "رحلة المتبتّل نظم اللآلي في سلوك الأمالي"، أفادت البحث في تكشّف العلاقات الثّقافيّة بين أقطار المغرب الإسلاميّ، ضمّنها صاحبها من لقيه من شخصيّات، وما زاره من بلدان، وكانت معتمد من جاء بعده من المشتغلين بالتّأليف في المشيَخة والفهرسة.

– ابن رشيد الفهريّ السّبتيّ (ت 721هـ/1322م): "ملء العيبة، بما جُمعَ بطولِ الغيبة، في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة"، وهي يوميات دوّنها صاحبها على وقتها، ما أتاح له جمع ما أمكنه من المعلومات وتقييدها دون نسيان، وقد ضمنها شيوخه الذين أخذ عنهم في المشرق والمغرب، واصفا طريقه في إفريقيّة، هذا وقد أثنى على الرّحلة جمّ من العلماء الذين أخذوا عن ابن رشيد فيما بعد، ذلك أنّها حوت من الفوائد العلميّة والتّاريخيّة ضروبا، وهي "ديوان لم يسبق له مثيل" كما تمثّلها ابن الخطيب في الإحاطة.

04– كتب الفهارس والتراجم:

– الخزاعيّ عليّ بن محمد (ت 789هـ/1387م): "تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة"، التأليف نقلة منهجيّة كتبه صاحبه مرتّبا على الحرف والصّناعات التي كانت على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم وخلفاءه، فهو ذا فائدة للباحث في معرفة أصحابها، وتأصيل لتلك الحرف والصّناعات، مسندة بأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم، وتتبّعٍ لتطوّرها إلى عهد المؤلّف.

- **إبن خيّر الإشبيليّ (ت 575هـ/1179م): فهرسة ابن خير الإشبيليّ، المسمّاة: "فهرسة ما رواه عن شيوخه"** تبرز أهميّته في كون صاحبه ضمّنه المؤلّفات التي انعشت الحياة الفكريّة في بلاد المغرب، وأعطى صورة عن الانتقال المعرفيّ الاندلسيّ الذي لقّح الثّقافة المغربيّة، عاكسا جانبا من التّثاقف الذي كان بين عدوتي الغرب الإسلاميّ.

– **التّجيبيّ القاسم بن يوسف (ت 730هـ/1330م): برنامج التّجيبيّ**، وقد حرّر فيه أسانيده ومشايخه الذين لاقى في أسفاره، ويبدو أنّ برنامجه تلخيص لرحلته "مستفاد الرّحلة والاغتراب" سلك التّجيبيّ في برنامجه نهج من سبقه حيث جمع فيه ما حضره ذكره من مشائخ رحلته، اشتمل على الكتب التي رواها في حياته، منذ شبابه بسبتة، مرورا برحلته للمشرق، وقد اعتنى فيه بدقّة الأسانيد وأهداه إلى وزير لم يذكر اسمه، على سنّة مؤرّخي العصر.

– **الواد آشي شمس الدين محمد (ت 749هـ/1348م): "برنامج الواد آشي"**، رتّب الواد آشي برنامجه على منهج قوامه التّأريخ للشّيوخ ومؤلّفاتهم، وقد عدّدهم تسعة وسبعين ومائتي شيخ، وثمان وثلاثين مؤلّفا، وقد استقصى الواد آشي شيوخه أولئك مرتّبين على قدر الأخذ عنهم، فيتدرّج في عرضهم وفق ذلك، كما أنّه يرتّبهم أيضا حسب بلدانهم التي ينتسبون إليها، فذكر التونسيّين، فالمغاربة، فالمصريّين، إلى المقدسيّين.

ثانيا: المراجع:

– **الموسوعة الضّخمة للدّكتور سعد الله أبو القاسم (ت 1435هـ/ 2013م) "تاريخ الجزائر الثّقافيّ"** خصوصا الجزء الثّاني من السّلسلة الأولى، والجزء الأوّل من السّلسلة الثّانية، وإن كان سعد الله قد انتهج فيها منهجا يقوم على دراسة الحياة الثّقافيّة في "الجزائر" القديمة والوسيطة بحدودها المعاصرة، فإنّه قد أفادني بما دوّنه عن المرحلة، من خلال تتبّعه لمؤرّخي الفترة، بحدود الحاضر، مستغرقا مدنا تراوحت بين تبعيّتها للمغرب الأدنى مرّة والأوسط مرّة أخرى، فقد كانت حدود لجزائر متحرّكة لا تعرف الثّبات، وما يرسّمها هي القوّة ووِجهة الضّرائب، أي التّبعيّة.

– **الدّكتور حساني مختار: "تاريخ الدّولة الزّيّانيّة"**، وهي اشبه بالموسوعة التي استوفت الدّولة الزّيّانيّة تاريخا وجغرافية، أفدتّ منها خصوصا الجزءالثّاني الذي يستقرئ الواقع الثّقافيّ هناك، حيت العلوم والتّآليف التي كانت سائدة، العمل ذاك واصله **الدكتور عبد العزيز فيلالي في كتابه "تلمسان خلال العهد الزيانيّ"**، خاصّة ما تعلّق بالحركة العلميّة والفكريّة التي شهدتها تلمسان خلال ذلك العهد ومثله **الأستاذ لخضر عبدلي** في أطروحته **"الحياة الثّقافيّة بالمغرب الأوسط خلال عهد بني زيّان"** حيث الاختصاص بدراسة الظاهرة الثّقافيّة بالمنطقة، ومظاهر التّأثير والتّأثّر فيها.

- **المنّونيّ محمّد (ت 1419هـ/ 1999م): "ورقات عن حضارة المرينيّين"**، وهي مجموعة مقالات نشرها صاحبها في مجلّات ودوريّات عديدة، ثم أعاد لملمتها وطباعتها مجموعة تحت العنوان السّابق، استغرق خلالها العلوم التي سادت وقتذاك، وعلاقات التّأثير والتّأثّر بين أقطار المغرب الإسلاميّ، في فصل عقده للصّلات الثّقافيّة بين المرينيّن والحفصيّين، تلك الصّلات التي أسمهت بشكل كبير في تطعيم الحياة الثّقافيّة إذّاك.

- **وله أيضا: "المصادر العربيّة لتاريخ المغرب من الفتح إلى غاية العصر الحديث"**، وهي مجموعة محاضرات ألقاه المنوني على طلابه في المغرب الأقصى، ثمّ جمعها بين دفتي كتاب لتستقيم على شاكلة موسوعة بيبليوغرافيّة لعلماء

المنطقة وتآليفهم، ابتداء من الفتح الاسلاميّ إلى غاية العصر العلويّ، يظفر فيها الباحث بمادّة تتعلّق بالمصادر التّاريخيّة للمنطقة، بل وتتجاوزها إلى أقطار المغرب الأخرى، بل وتسغرق مصادر مشرقيّة عن بلاد المغرب.

– **محمد محفوظ (ت 1408هـ/1988م)**: "**تراجم المؤلّفين التّونسيّين**"، وهي فهرس اختصّ بعلماء تونس قدامى ومحدثين، رتّبهم على حروف المعجم تسهيلا للوصول إليهم، استغرق فيها علماء المنطقة، والوافدين إليها في صورة من صور الحركة الثّقافيّة التي سادت الفترات التي عالجها الكتاب، العمل ذاك وصله **يوسف بن أحمد حوالة** في دراسته حول "**الحياة العلميّة في إفريقيّة منذ إتمام الفتح وحتى القرن الخامس الهجريّ**"، وقد وقف خلالها على العوامل التي أسهمت في زكاة المعارف هناك، وقد أفدتّ من الفصل السّادس الذي خصّصه للدّراسات الإنسانيّة حيث التّاريخ والجغرافيا، وقفت خلالها على المؤرّخين التّونسيّين ومؤلّفاتهم.

– **عبد السّلام بن عبد القادر بن سودة المرّيّ (ت 1400هـ/1980م)**: "**دليل مؤرخ المغرب الأقصى (دليل بن سودة)**"، وهو سجلّ بأسماء الكتب التي يحتاجها الباحث في تاريخ المنطقة، وتراجم عمّن ألّف عنها مرتّبة على حقول التّأليف، والاستناد عليه لا يخلو من فائدة التمستها في شساعة دائرة البحث التي غطّاها المؤلّف، والتي امتدت في الزمن لتستغرق الفتح الاسلاميّ إلى غاية العصر الحديث.

الفصل التمهيديّ: بلاد المغرب الاسلاميّ عند الانقسام الثالث

–التاريخ والثقافة–

توطئة:

اوّلا: دول المغرب الإسلامي بعد الموحّدين

1– الدولة الحفصيّة

2– الدولة الزّيّانيّة

3– الدولة المرينيّة

ثانيا: ملامح ثقافة تاريخيّة جديدة في واقع سياسيّ جديد

الفصل التمهيديّ: بلاد الغرب الاسلاميّ عند الانقسام الثّالث –التّاريخ والثّقافة–

توطئة:

مصطلح الانقسام الثالث، مرادف لظهور الدول المستقلّة التي شهدها القرن السّابع الهجريّ/ الثّالث عشر الميلاديّ (07هـ/13م)، وهي الدّول التي أعقبت الموحّدين الذين تمكّنوا من توحيد بلاد المغرب تحت رايتهم ردحا من الزّمن، وبذلك فإنّ الإنقسام الثّاني يكون الذي حدث بعد رحيل الفاطميين إلى مصر وظهور الزّيريّين والحمّاديّين، ويكون الإنقسام الأول هو الذي أُعلن على إثره عن بداية القطيعة مع دولة بني العبّاس، بظهور الرستميّين والأغالبة والأدارسة، والانتكاسة تلك تضاف إلى الذي حدث زمن الرّومان (مملكتا الماصيل والماصيصيل)، وتفسّر واقع المنطقة اليوم الذي تشكّلت أقاليمه بعد الدّولة العثمانيّة.

تشكّلت وقتذاك ثلاث ممالك مستقلّة تنافست الحكم، واستأثرت لنفسها بالبقاء فيه مستعينة بالعدوّ أحايين كثيرة، فظهر الحفصيّون في تونس ثمّ المرينيّون في مراكش ثمّ الزّيانيّون في تلمسان، وتداولوا حكم المنطقة أو أجزاء منها حسبما تقتضيه أعراف الولاء من الإنقياد للأقوى، إلى الهدنة، إلى غيرها من تقاليد بسط النّفوذ، ولئن كان الحفصيّون قد استأثروا بالجغرافيا باعتراف المسلمين بسلطانهم على المنطقة، فإنّهم قد فشلوا في وراثة الموحّدين جغرافيا، خلال سعيهم لتوحيد بلاد المغرب.

بخلاف ذلك، نجد أنّ التّسامح طبع الحياة الدّينيّة في الأقطار الثّلاث، فالمذهب المالكيّ مذهب الحكّام، وحسن التّعامل مع الفقهاء والملل ساد المجتمع[1].

تأسيسا على الذي سبق، يمكن القول إنّ صرح ابن تومرت شهد انشطارا نتج عنه الكيانات الثّلاث سابقة الذّكر، كلّ كيان يدّعي الوراثة ويوظّف التّاريخ اقتداء بالموروث.

أوّلا: دول المغرب الإسلامي بعد الموحّدين

01– الدولة الحفصيّة

كانت حصن العقاب سنة 609هـ/ 1212م إعلانا لنهاية دولة ابن تومرت، ذلك الصرح الذي أقام قواعده ابن عليّ خليفة ابن تومرت، هذا التّاريخ أيضا يمثّل بداية النّكسة الحضارية التي أرّخ لها مالك ابن نبيّ –رحمه الله– حال تشخيصه للنّكبة الحضاريّة الإسلاميّة، وميلاد مجتمع ما بعد الحضارة المستهلك لها، ويقصد به مجتمع ما بعد الموحّدين.

ينتسب الحفصيّون إلى الشّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتيّ شيخ قبيلة هنتاتة، أعظم قبائل مصمودة التي عاشت بالمغرب الأقصى، وكان ذاك الشّيخ فاعلا في قيام سلطان ابن تومرت (ت522هـ/1124م)، فقد

---

[1] الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1965، 108/2. سعد الله ابو القاسم: المرجع السابق، ج6، ص 105–106.

كان رفيقا له[1]، واختصّه المهديّ بلباس من جلد يسمّى "الدَّرقة"[2]، ومن "الطلبة" العشرة أهل الجماعة[3]، وارتقى بذلك ليصبح الرّجل الثاني بعد خلافة عبد المؤمن ابن علي صاحب الوقت[4] (524هـ/1126م-558هـ/1160م)[5]، قدّمه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558هـ/1160م-580هـ/1183م) على إفريقيّة، توفّي أبو حفص عمر سنة 571هـ/1174م[6].

يعود الفضل في تأسيس الدّولة الحفصيّة إلى أبي محمّد عبد الواحد بن أبي حفص، الذي ولّاه النّاصر الموحّديّ أمر أفريقيّة ثلاث سنين حكما مطلقا بدءا من سنة 603هـ/1206م[7] – بعدما اخضع له بني غانية – فكانت تلك بادرة ميلاد دولة جديدة مستقلّة ذاتيّا عن السّلطة المركزيّة.

ولما انهزم الموحّدون في حصن العقاب سنة 609هـ/ 1212م، أعلن أبو زكريا يحي بن عبد الواحد الحفصيّ (618هـ/1221م- 647هـ/1249م) استقلاله التّامّ عن بني عبد المؤمن وتلقّب بالأمير سنة 627هـ/1229م[8]، بعد نقض المأمون لتعاليم ابن تومرت، ولعنه على المنابر[9].

استطاع أبو زكريّا بن عبد الواحد أن يشكّل إمارة في تونس، وقضى على البقيّة الباقية من بني غانية، واستولى على قسنطينة وبجاية ودخل تلمسان فاعترف بسلطانه بنو مرين في المغرب الأقصى، وبنو زيان في المغرب الأوسط، وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسلجماسة وبنو الأحمر[10]، وبعد موت أبي زكريّا خلفه ابنه أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الذي أتته بيعة شريف مكة بالخلافة سنة 650هـ/1252م – بمباركة الصّوفيّ ابن سبعين

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمان: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، تح: خليل شحاتة وسهيل زكار، طبعة منقحة، دار الفكر، لبنان، 2000، ص 371.

[2] البيذق ابو بكر بن علي الصنهاجي: الانساب في معرفة الاصحاب، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 32.

[3] البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي: اخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1971، ص 34. البيذق: الانساب، ص 30. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج6، ص 304. الزركشي عبد الله محمد بن ابراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط1، مطبعة الدولة التونسية المحروسة، 1289هـ، ص 04.

[4] البيذق: اخبار المهدي، ص 34. البيذق: الانساب، ص 30. صاحب الوقت مصطلح فاطمي استعاره الموحدون للتعبير على مهدوية ابن تومرت الذي يملأ الارض عدلا.

[5] ابن قنفذ أبو العباس احمد بن الحسين: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق: محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد المكي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 102. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 371. أيضا: سعد الله ابوالقاسم: المرجع السابق، ج1، ص 109.

[6] ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 102. ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 372.

[7] ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 104–105. ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 374.

[8] بويع أبو زكرياء البيعة الثانية التّامّة سنة 634هـ ولم يتسمّ بامير المؤمنين بل انكر ذلك. انظر: الزركشي: المصدر السابق، ص 17–18. ابن ابي دينار: المؤنس في اخبار افريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1869، ص 122.

[9] ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1972، ص 251. ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 340–381.

[10] نفسه، ج6، ص 382–397. سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص 112–113.

وتلقّب بأمير المؤمنين[1].

إضافة إلى ذلك حاول الحفصيّون أيضا التّمكين لخلافتهم للعالم الإسلاميّ شرعيّا، من خلال استحضار عامل النّسب القرشيّ، وقد نقل ابن خلدون عن ابن نخيل كاتب ديوان الدولة أنّهم من نسل سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–[2]، وهو خبر انفرد به دون تدقيق مما يرجّح فرضيّة خطإه لغياب الدّليل.

مسألة البحث عن الشّرعيّة هذه، سيكون لها جانب من جهد التّمكين للدّولة، وسترتقي إلى حدّ ادّعاء الاتّصال بآل بيت النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

تعرّضت الدولة الحفصيّة للحملة الصليبيّة الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في سنة 668هـ/1270م، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه[3].

انقسم العالم الإسلاميّ إلى خلافتين متنازعتين، الحفصيّة الناشئة، والعباسية المتهالكة، ويبدو أنّ المصلحيّة أثّرت على حركة التّاريخ، لهذا عمد السلطان بيبّرس إلى إعادة إحياء الخلافة العبّاسيّة في القاهرة سنة 659هـ/1261م، فأتى بأمير من أمراء العباسيّين الفارّين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقّبه بالمستنصر بالله، وقلّد الخليفةُ الجديد السّلطانَ بيبّرس حكم مصر والشّام والحجاز، وأمر الأخير بالدّعاء للخليفة العباسيّ على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصيّ، ووجّه بذلك ضربة موجعة للّدولة الحفصيّة، وبعد وقت قصير، ضعف نفوذ كلا الخلافتين، وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها.

بعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمر "الخلفاء" الحفصيّين وتوقّف الدّعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلّت بجاية عن تونس، وكان المرينيّون أوّل من قطع الدّعوة للحفصيّين وتلقّبوا بالأمراء، تلاهم الزّيّانيّون الذين تعاملوا مع الواقع كأمراء أيضا، وبدا أنّ ملك الحفصيّين اقتصر على تونس فقط.

حمل القرن العاشر الهجريّ إرهاصات نهاية الحفصيّين، حيث استولى الإسبان على بجاية وطرابلس سنة 916هـ/1510م، وقام خير الدّين بربروس بإجلاء الحسن إلى الجزائر، الأمر الذي حدا به إلى الاستعانة بالإسبان، وقد خلفه ابنه أحمد ثمّ محمد بن الحسن، لتسقط الدّولة نهائيا سنة 981 هـ/1574م، بعد دخول الأتراك وإخراج الإسبان من تونس، والمدن الساحلية الأخرى التي استولوا عليها.

---

[1] ابن خلدون: مصدر سابق، ج6، ص407–417. الزركشي: المصدر السابق، ص 25. ابن ابي دينار: المصدر السابق، ص 128. الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج2، ص 89.

[2] ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 371. الزركشي: المصدر السابق، ص 18.

[3] الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج2، ص 105.

02– الدولة الزّيّانيّة

بنو زيّان قبيلة من بني واسين الزناتيّة[1]، وهم من البتر، هاجرت من الشّرق بعد التّغريبة الهلاليّة، فاستقرّ بنو عبد الواد في تلمسان، بينما استقرّ بنو مرّين في المغرب الأقصى، أصل تسميتهم من عابد الوادي[2] لأنّ جدّهم كان يتعبد في واد.

أدّت زناتة دورا في تاريخ المغرب الأوسط، فقد ظهرت على مسرح الأحداث مبكرًا إذ ساندت سيّدنا عقبة بن نافع على البربر، ثمّ تولّت حكم المغرب في العهد الرّستميّ، وشاركوا في الزّلاقة[3]، في الوقت الذي كانت فيه كتامة وصنهاجة عونا للفاطميّين، وبرزت مصمودة في العهد الموحّديّ.

بُني التّاريخ السّياسيّ للزيّانيّن على مبدأي المناورة والتّحالف، كونهم يفتقدون القوّة التي تمكنهم من اتخاذ مواقف "متطرّفة" حال السّلم والحرب، فقد قاوموا الموحدين بداية أمرهم، ثمّ تحالفوا معهم فاقطعوهم عامّة بني يلومي، وبني اومانو في شلف واستقروا في تلمسان.

فيغمراسن زعيم الزيانيّين كان قد أبدى من الدّهاء ما جعله يعتمد المناورة للحفاظ على مكانته على الأقل كسيّد، فهو يدرك أنّ إرثه الحضاريّ لا يصمد أمام جيرانه، وأنّ قوّته ليست بمستوى قوّتهم، فسار على نهج الولاء إذ صاهر الحفصيّين الذين أقرّوه على تلمسان[4].

ملك بنو عبد الواد تلمسان نظير إخلاصهم للموحّدين[5] –وهو شأن القبائل التي حكمت قبل ذلك كما أشرنا– وقد تملّكوها ولاءً لبني عبد المؤمن منذ عهد المأمون الخليفة الموحّديّ، أيّام جابر بن يوسف جدّ الزّيّانيّين سنة 627هـ/1229م، ونوّابًا عن الخليفة في عهد الرّشيد الموحّدي الذي ثبّت يغمراسن الشّيخ – كما لقّبه الموحّدون– في الحكم[6].

استلم يغمراسن الحكم بعد أخيه أبي عزّة زيدان بن زيّان[7]، أو زكراز (زكران) –كما سمّاه ابن خلدون– الذي توفّي في معركة مع بني راشد وبني مطهر سنة 633هـ/ 1235م[8].

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج7، ص 83،84.

[2] ابن خلدون يحي: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، تح: عبد الحميد حاجيات، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص95.

[3] معركة الزلاقة الشهيرة 479هـ/1086م، بين النصارى بقياد الفونسو والمرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، وهي المعركة التي حسمت جغرافيا الاندلس بانتقالها تحت حكم المرابطين. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص 96.

[4] ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج6، ص 441. الزركشي: مصدر سابق، ص 38،39.

[5] ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج7، ص97.

[6] الغرناطي ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تح: هاني سلامة، ط1، دار الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر، 2001، ص 64.

[7] ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص 108. التنسي محمد بن عبد الله: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود بوعياد، طبعة خاصة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر،2007، ص 113.

[8] ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج7، ص100. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص 108.

تأتّى ظهور الدولة الزّيّانيّة من عصبيّة قبليّة، فنصرة الموحّدين كانت لأجل الغنائم[1] والتفاف النّاس حول يغمراسن بعد ذلك إنّما كان ولاء للقبيلة، غير أنّ شرعيّتها احتاجت إلى مستند يمكّنها من الصّمود، ويضمن لها القبول وسط العامّة.

احتلّت قضيّة النّسب حيّزا من قرائن إثبات الشّرعيّة، فمؤرّخو الزّيّانيّين أثبتوا لهم وصلا بآل البيت[2]، وقد فنّد عبد الرّحمن بن خلدون هذه الرواية، وذكر أنّ يغمراسن بن زيان لما سئل عن ذلك أجاب قائلا:" إذا كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأمّا الدنيا فإنّما نلناها بسيوفنا "[3].

قضيّة أخرى استعان بها يغمراسن لتوطيد أركان حكمه ودولته وسط السّاكنة، متعلّقة بالتّسامح الذي طبع الحياة الدّينيّة في العهد الزّيّانيّ، حيث كانت المناظرات تُعقد بين فقهاء المذاهب كما تمتّع المسيحيّون بالحماية كأهل ذمّة، وعادت طوائف اليهود إلى الظّهور، وهو الأمر الذي سمح لهم فيما بعد بالتّغلغل في مفاصل الدّولة والتّأثير في الحياة السّياسيّة.

أعاد يغمراسن هيبة المذهب المالكيّ لبلاد المغرب، بعد اهتزازه نتيجة انتشار مذهب الموحّدين القائم على المهدويّة والعصمة[4]، وعلى الرّغم من إسقاط تلك الدّعاوى على يد المأمون الموحّديّ، فإنّ يغمراسن عمل على التّنكر للفكر الدّينيّ الموحّديّ حين أعلن الولاء للحفصيّين ابتداء، ثمّ العودة إلى مذهب مالك على حساب مذهب الموحّدين الظّاهري، فمذهب مالك هو مذهب العامّة الذي شهد إقبالا وتمسّكا به نظير بساطته، على الرّغم من الهزّات التي شهدها أيّام الفاطميّين والموحّدين.

موقف يغمراسن من مسألة التّصوّف كان بدافع التقرّب من المتصوّفة وكسب ولائهم، فقد كان يزور الأولياء للتّبرك والدّعاء عندهم[5]، وقد شهدت الدّولة ازدهارا وتوسّعا في عهده إلى غاية دخول المرينيّين إلى تلمسان سنة 738هـ/ 1337م.

تمكن أبو حمّو موسى الثّاني من بعث الدّولة الزّيّانيّة من جديد، وقد عرفت في بداية عهده توسّعا واستقرارا جعلت منها أهمّ دولة في المغرب الإسلاميّ، لكن ذلك لم يستمر طويلا حيث تمكن المرينيّون من احتلال تلمسان في 772هـ / 1371م، ثمّ استرجعها أبو حمّو ثانية عام 774هـ/ 1373م.

شهد القرن العاشر سقوط الدّولة جرّاء التّناحر الدّاخلي بين أمراءها، هذا بالإضافة إلى بروز خطر البرتغال الذين سيطروا على المرسى الكبير سنة 876هـ/ 1471م، والإسبان الذين توغلوا إلى حدود الدّولة الزّيّانيّة بعد السّيطرة على

---

[1] **سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج2، ص 154.**

[2] **يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص101–102. التنسي: المصدر السابق ، ص 110.**

[3] **ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ص126. أيضا: العبر، ج7، ص 97. الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج2، ص205.**

[4] **سعد الله ابوالقاسم: المرجع السابق، ج2، ص101.**

[5] **نفسه، ج2، ص 101.**

وهران سنة 910هـ/ 1509م، واستمرت الدّولة الزّيّانيّة بالضّعف وفقدان أراضيها شيئا فشيئا إلى أن انتهت على يد العثمانيّين سنة 962هـ/ 1554م، وأورد أبو راس النّاصريّ نهاية الدولة سنة 923هـ/1522م[1].

03- الدّولة المرينيّة

بنو مرين فرع من قبيلة زناتة[2]، تلك القبيلة التي لعبت دورا مهمّا التّاريخ، فهم من شاركوا الفاتحين الأوائل في بسط الاسلام في بلاد المغرب الاسلامي، وأسهموا في التمكين للموحّدين منذ معركة الأراك في الأندلس[3] ومنه ضمّها إلى بلاد المغرب الإسلامي من جهة، ومن خلال حماية التّجار والسّاكنة وإخضاعهم للسّلطان الموحّدي من جهة أخرى.

وهذه القبيلة ضاربة في البداوة، بعيدة عن الخضوع للسّلطان، لكنّها تملّكت أجزاء كبيرة من بلاد المغرب بعد أن سيطر رأسهم الأوّل المخضّب بن عسكر على بوادي زناتة حتى الزّاب والقلعة وبجاية[4]، وقد توطّن بنو مرين المغرب بعد أن وهن حكم الموحّدين عليها، فدخلوه سنة 610هـ/1214م وهناك اصطدموا مع البقيّة الباقية من الجيش الموحّديّ سنة 613هـ/ 1217م في موقعة المشغلة التي انتصر فيها المرينيّون وأفل فيها حكم الموحّدين.

قام بأمر المرينيّن –بعد ذلك– أبو محمد عبد الحقّ بن محيو بن أبي بكر ...بن مرين سنة 614هـ/1218م الذي تلقّب بالأمير على بني مرين، كما كان جدّه مرين أميرا في قومه، وقد مات عبد الحقّ في معركة واجهران مع بني رياح، وقام بالأمر بعده ابنه عثمان[5].

خاض المرينيّون معارك إلى جانب الموحّدين بغرض التّمكين لبني عبد المؤمن، واستطاعوا أن يخضعوا بني زيان لسلطانهم، ويبدو أنّ لأمراء بني مرين من الحكمة ما جعلهم يحسنون استغلال اللّحظة التّاريخيّة، وقد تمثّلوا ذلك واقعا حال اضمحلال الموحّدين، إذ سرعان ما أعلنوا أنفسهم خلفاء التّاريخ والجغرافيا.

تملّك بنو مرين مدن المغرب توارثا في نسبهم أمراء، وتحفل كتب التّاريخ بتراجم من تولّى حكم فاس منهم غير أنّ المصادر نفسها تفرّدت بتكنية أبي يعقوب المرينيّ بأمير المسلمين[6]، وقد كان ذلك بسبب إزاحته ملك الموحّدين ودخول عاصمتهم مراكش سنة 668هـ/1296م[7]، وإعلان بداية عهد جديد من حياة المرينيّن من بدو إلى دولة مهابة الأطراف.

---

(1) الناصري محمد ابوراس: عجائب الاسفار ولطائف الاخبار، ج1، تح: غالم محمد، دط، المركز الوطني للبحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، 2005، ص 160.

(2) ابن ابي زرع: الذخيرة السّنية في مآثر الدولة المرينيّة، تح: محمد بن ابي سنب، ط1، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1920، ص 10. ابن ابي زرع: الانيس، ص 286–287.

(3) ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 21. سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص 130.

(4) ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 18.

(5) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 22–28. ابن ابي زرع: الانيس، ص 286.

(6) يذكر ابن ابي زرع ان تكنيته بأمير المسلمين كان سنة 658هـ/1259م، ثم يذكر مرة أخرى ان ذلك كان سنة 668هـ/1269م ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 98، 134.

(7) نفسه، ص 134. ابن ابي زرع: الأنيس، ص 307.

تذكر المصادر أيضا ما كان عليه أبو يعقوب المرينيّ من السّياسة وحسن التّدبير، فقد اختطّ المدن ونظّم دولته وزارة وحجابة وقضاة، ونقل العاصمة من مرّاكش إلى فاس، إلى الحدّ الذي يجعلني أعدّه مقعّد الدّولة المرينيّة الأوّل عموديّا (نظم الحكم) وأفقيّا (تنظيم الأقاليم)، فدولته جاوزت المغرب إلى الأندلس.

إنّ المتتبّع لخط سير التّاريخ السّياسي للمرينيّين يجعلنا نلمس نقاط تشابه بينهم وبين الموحّدين، فقد خاضوا حروبا عديدة لأجل التّمكين لدولتهم، ثمّ إنهم رفعوا راية الجهاد في الضفة الأخرى للبحر استجابة لرسل ابن الأحمر[1]، الأمر الذي يوحي بتبنّي المرينيّين لفكرة الوحدة متأسّين في ذلك بسلفهم الموحّدي[2]، غير أنّ ذلك لم يكن لهم، فأسطولهم لم يكن بحجم الأسطول الموحّديّ[3].

تجربة المرينيّين في قضيّة الشّرعيّة لم تكن بدعا، فقد قاوموا مذهب الموحّدين، وقام يعقوب المرينيّ بتشجيع الدراسات النقليّة فابتنى مدرسته الرسميّة التي تعنى بدراسة مذهب مالك[4]، مذهب العامّة في تلك البلاد.

مسألة أخرى جديرة بالاهتمام، وهي علاقة الحكام المرينيّين بالمتصوّفة، فقد كان سلاطين بني مرين على قدر من التّجلّة والإكبار لهم، إذ احتضنوا آل البيت، وابتنو المدارس حول الأضرحة، ثمّ أعفوْ الأشراف والشّيوخ من الضرائب، مبتغين بذلك بركة الأشراف ورضا العامّة[5].

ذلكم كان الصّرح الذي جدّ في تشييده الحكّام المرينيّون قبل أبي عنان، الصّرح نفسه شهد نزولا بالسّرعة نفسها التي شهدها البناء، فقد آلت السّلطة الفعليّة للوزراء الذين حجروا الحكام، وتعرضت الدّولة للتّدخل الخارجيّ الذي مكّن للبرتغاليّين من القصر الكبير سنة 863هـ/1458م، وكان ظهور الوطّاسيّين إعلانا عن زوال ملك المرينيّين –بعد حروب محدودة– حيث استولى سعد الوطّاسي على ملك المغرب الأقصى سنة 877هـ/1472م لينهي بذلك حكم بني مرين بطريقة اشبه بنهاية الموحّدين[6].

ثانيا: ملامح ثقافة تاريخيّة جديدة في واقع سياسيّ جديد:

شكّل تراجع الإسلام في الأندلس نقطة انعطاف هامّة في تاريخ القرن السّابع الهجريّ فمعركة حصن العقاب 609هـ/1212م(*) التي أورثت المسلمين خذلانا سياسيّا وعسكريا، وأحدثت انتقالا للمعرفة التاريخيّة من الأندلس إلى بلاد المغرب الاسلاميّ، تجسّد ذلك في الهجرة التي أعقبت هزيمة حصن العقاب، حيث الجاليات الأندلسيّة التي اتّخذت

أفرز هذا الوضع الجديد تغييرات جوهريّة على التّاريخ والجغرافيا المغربيّة، منها محاولات الأوربّيّين التّوغّل في بلاد المغرب وهو ما مثّلته الحرب الصّليبيّة الثّامنة على الحفصيّين، ومنها أيضا نشوء مراكز ثقافيّة جديدة احتضنت السّيل المعرفيّ الجديد، تلك المراكز الثّقافيّة التي مثّلتها مدن كتونس وبجاية وتلمسان وفاس.

---

(1) ابن ابي زرع: الانيس، ص 315. ابن ابي زرع: الذخيرة السنيّة، ص 99.

(2) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 298.

(3) المنوني محمد: ورقات عن حضارة المرينيّين، ط3، مطبعة النجاح، المغرب، 2000، ص 14.

(4) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج2، ص136،137.

(5) نفسه، ج2، ص136،137.

(6) نفسه، ج 2، ص 143.

(*) معركة تحالف فيها ملوك الاسبان ضد الموحدين في منطقة حصن العقاب بشبه جزيرة ايبيريا، وانهزم فيها الموحدون فكانت بداية افول نجمهم.

ورد على حواضر المغرب الجديدة تلك مؤرخون وعلماء أسهموا في النّتاج الثّقافيّ عموما والتّاريخيّ بالخصوص، وأثروا الحياة الفكريّة فيها، فمدينة فاس كانت مستودعهم الأوّل إذ شهدت قدوم ابن الخطيب السلمانيّ (ت776هـ/1375م) وابن الأحمر الغرناطيّ (ت810هـ/1407م)، الأوّل عبر إلى المرينيّين لاجئا وكسب حظوة عند السّلطان أبي سالم وبعده عند السلطان أبي فارس عبد العزيز.

في تلمسان الزّيّانيّة برزت أسرة العقبانيّ التي أفتى فقيهها قاسم العقبانيّ بضرورة الحدّ من نفوذ اليهود الذين استأثروا بالتّاريخ والجغرافيا، كما أنّ الآبليّ قد أوجد لنفسه مدرسة من تلاميذها ابن خلدون.

هؤلاء النّزلاء الجدد على بلاد المغرب الاسلاميّ، تنقّلوا في هذه البلاد، وتقلّدوا المناصب في الدّول الجديدة، كما اشتغلوا بالتّأليف قاصدين من وراء ذلك محاولة إعطاء هويّة موحَّدة للغرب الإسلاميّ، وبناء ذاكرة جمعية جامعة للوطن القديم والجديد، وهو ما تمثَّله ابن الأبّار القضاعي (ت 658هـ/1260م) – الذي خدم البلاط الحفصيّ– في كتابه "الحلّة السّيراء"، وذيله على الصّلة "التّكملة"[1] حيث ترجم للأندلسيّين والمغاربة في مؤلَّف واحد.

هذا، وقد ازدهرت الدراسات الاجتماعيّة والعقليّة في المنطقة أيضا، فالدعوة إلى العودة إلى الأصول التي روّج لها الموحّدون ظلت قائمة في بلاد المغرب –رغم انتصار المذهب المالكيّ– قرنا من الزّمن، برز خلالها القلصادي –تلميذ العقباني– صاحب المؤلفات في الحساب والفرائض[2].

لم يكن لدول المغرب مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين، وباستثناء الدولة الحفصيّة التي اعتنقت المذهب ابتداء ثمّ لفظته، فإنّ موقعيّة المذهب التّومرتيّ في الفكر لم يُر له كثير أثر على الرّغم من التّسامح المذهبي الذي طبع الحياة الفكريّة عموما.

وقد أظهر فقهاء المالكيّة مقاومة شديدة لمذهب الموحّدين، وكنتيجة لهذا الصراع الفكري، انتعشت الحركة الفكريّة ثم نضجت وانتشرت في الحواضر المغربيّة، ونبغ عدد كبير من أهل تلمسان وبجاية وفاس، تاركين لنا مؤلفات ومصنفات ومختصرات عديدة، واشتغل علماء المنطقة على كتب الفروع، وجرى التّدريس بموطّإ مالك ومدوّنة سحنون[3].

ظاهرة أخرى جديرة بالاهتمام –على الرّغم من رسوخها في بلاد المغرب– وهي تلك المتعلّقة بالتّصوّف فسيدي بومدين شعيب (ت 594هـ/1198م) نزيل بجاية والحلويّ الإشبيليّ نزيل تلمسان، وكان من تلاميذ الأوّل الدّباغ صاحب "معالم الإيمان"، ولم يذكر للثّاني كثير تأثير في البلاد، هذا التّيار الذي شهد إقبال طبقة واسعة من العلماء، الأمر الذي أثرى الكتابة التّاريخيّة برافد جديد من روافد التّأريخ، تجلّى ذلك في المؤلفات المنقبيّة، و؛كتب الأنساب والأشراف، وكلها كتب ذات صلة بالدّين والتّصوّف وسير الأولياء[4].

---

[1] علاوة عمارة: الكتابة التّاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط، ضمن كتاب دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 170.

[2] سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج2، ص 357.

[3] نفسه، ج2، ص 357.

[4] سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق ، ج2، ص 369.

تلكم إذن إطلالة على ملامح الثّقافة المغربية التي فرضها الواقع الجديد، فالاتّجاه التّاريخيّ في كتابات ما بين القرنين 08هـ/09هـ–14م/15م سيبقى نتاج تفاعلات ونوازل وموروث امتدّ إلى عهد النّكسة الأندلسيّة، ذلك الموروث المركّب سيوسّع من آفاق التّأليف التّاريخيّ في الأقطار الأربع، في الوقت الذي سيبقى فيه التّأليف أسير تلك التّركات.

الفصل الأول: الاستوريوغرافيا التّاريخيّة بالمغرب الإسلامي

إلى غاية سقوط الموحدين توطئة

أولا: تاريخ الكتابة التّاريخيّة في الغرب الإسلاميّ قبل القرن الرّابع الهجريّ

ثانيا: القرن الرّابع... التاريخ الموجّه

ثالثا: الكتابة التاريخية بعد الفاطميين... الإرث والقطيعة

الفصل الأول: الاستوريوغرافيا التّاريخيّة بالمغرب الإسلامي إلى غاية سقوط الموحدين (الملحق رقم 01)

توطئة:

يميل جلُّ الدّارسين لتاريخ المغرب الإسلاميّ إلى القطع بأنّ ابتداء الكتابة التّاريخيّة فيه جاءت متأخّرة -بكثير- عن مثيلاتها في المشرق[1]، وإذا كان للحكم ما يعضده من النّاحية التّاريخيّة حيث أسبقيّة بلاد المشرق بالعربيّة والإسلام عنه في بلاد المغرب، فإن المسلّمة تلك لايمكن إسقاطها على مبتدإ الكتابة التّاريخيّة بالمنطقة، فما حفلت به نقولات المؤرخين المتأخّرين عن السّابقين، وسيبدو أن كتابة التّاريخ في بلاد المغرب الإسلاميّ كانت تقريبا على النّقطة نفسها التي ابتدأ منها خط الكتابة التّاريخيّة في المشرق الإسلاميّ.

وحتى يُزال اللّبس عن القضيّة، ينبغي التّنبيه إلى نقطة غاية في الأهميّة، وهي المتعلّقة بأسبقيّة المشارقة في التأريخ لفتح بلاد المغرب، هذه القضيّة يُنظر إليها من زاوية الأسبقيّة المعرفيّة بأخبار الفتح، وتسيير الجيوش، وتمرّس في اللّغة العربيّة وحكاية التّاريخ.

مسألة أخرى مهمّة أيضا، متعلّقة بالإسلام نفسه، حيث أضحى للتّاريخ بعدا تعبّديا بالإلحاح على تدارس سيرته صلى الله عليه وسلم، وهي مقاربة تجعل من تأخّر كتابات المغاربة التّاريخيّة عن نظيرتها في المشرق متعلقّة بالرؤية الإسلاميّة للتاريخ، لا سبق معرفة به، فكلّ الذي كان وقتذاك حكايات "لأيّام العرب"، ومع تقادم صلة المغرب بالمشرق كان اعتماد المشارقة على المغاربة في التّأريخ للمنطقة واضحًا، فعيسى بن مسكين بن منظور الإفريقيّ (ت281هـ/ 893م)كان علمًا لدرجة أنّه "إذا تفاخر أهل العراق برجالهم ... قيل لهم هل عندكم مثل عيسى بن مسكين"[2]، وحيث ابن شدّاد الصنهاجيّ (حيّ سنة 600هـ/1204م) معتمد المشارقة في معرفة أخبار المغرب من خلال كتابه المفقود "الجمع والبيان"، الأمر الذي يوحي بتمرّس المغاربة في كتابة التّاريخ.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أنّ زمن الفتح الذي استغرقه دخول الإسلام للمغرب لم تكن مرحلة إشراق فكريّ تاريخيّ يؤرّخ للمشرق عموما والعرب خصوصا، فكلّ الذي وصلنا عن تلك المراحل المتقدّمة من تاريخ تلك المنطقة لا يعدو كونه روايات شفويّة عن أحوالها، وتوصيف على شكل إخبار بأحوال المعاش و"أيّام العرب"، ومن الإخباريّين الأوائل أيضا أبّان بن عثمان بن عفّان (ت 105هـ/723م)، ووهب بن منبّه (ت 114هـ/732م) وغيرهم[3].

وممّا يذكر في هذا الإطار ما نقل عن سيّدنا معاوية اهتمامه بسير الأوّلين، وقد أمر أن تُدوّن مرويّاته في "أخبار الماضين" و في "الأمثال" دون أن يصلنا ما دُوّن عنه، وقد كان عروة بن الزّبير (ت 93هـ/712م) يجيب عن استشكالات عبد الملك وابنه الوليد في السّيرة والمغازي، وكذلك فعل سيّدنا عمر بن عبد العزيز مع عاصم بن عمر بن

---

[1] محمود إسماعيل: الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي، ضمن منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، د ت، ص 18. علاوة عمارة: الكتابة التاريخية في الغرب الاسلامي الوسيط، ضمن دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الاسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2008، ص 149.

[2] ابن فرحون: مصدر سابق، ج2، ص 67.

[3] يوسف هوروفيتس: المغازي الأولى ومؤلفوها، تر: حسين نصار، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، 2001، ص 19-43.

قتادة (ت120هـ/739م) -الذي نقل عنه ابن إسحاق والواقديّ فيما بعد[1]- حيث أجلسه مسجد دمشق ليحدّث عن المغازي[2]، وأكرم -أيضا- عمر بن شهاب الزّهريّ (ت124هـ/ 742م)، الذي قعّد -مع ابن إسحاق- للمدرسة التّاريخيّة بالمدينة[3].

بالنّسبة للعبّاسيّين، فأبو جعفر المنصور كلّف محمّد بن إسحاق (ت152هـ/ 761م) -الذي نقل عنه ابن هشام سيرة النبي ρ- بالكتابة عن التّاريخ العامّ، وابنه المهديّ استصحب أبا معشر السّندي إلى بغداد وأكرمه أيضا[4]، وهو المؤرّخ والإخباريّ.

الأمر هذا نجده ينطبق على بلاد المغرب توازيا مع المشرق زمانا، فقد كان للأوّل إخباريّون جاءت مروياتهم في كتب المتأخّرين -كما سيأتي بيانه- الأمر الذي يوحي بأنّ الأسبقيّة التي نظّر لها أولئك الباحثون لا تعدو سنوات قليلة ربّما لا تتجاوز الفترة التي استغرقها فتح المغرب.

الفتح المعرفيّ أيضا يوحي بتزامن مبتدإ التّأليف التاريخيّ في بلاد المغرب للمشرق، ويمكن هنا أن نشير إلى أنّ عوامل عدّة كانت قد أسهمت في انتقال المعرفة التاريخيّة إلى بلاد المغرب خلال النصف الأوّل من القرن 02هـ/ 08م:

- دخول الصحابة والتابعين بالقرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشّريفة إلى بلاد المغرب[5]، وقد رأينا سلفا البعد التّعبديّ للتّاريخ في الإسلام، وهي مسألة حركت في الأفئدة الاهتمام بسيرة النّبيّ ρ وأخباره، وامتدّ ذلك البعد إلى النّظر في سير الأوّلين كشكل من أشكال العظة والاعتبار، وهؤلاء قد كانوا عمدة المغاربة في السّير والمغازي، ومرجعية في تاريخ فتح المسلمين لافريقيّة، وتاريخ بناء القيروان.

- هجرة بعض المشارقة إلى بلاد المغرب والقرار بها، حاملين علم الأنساب والمناقب على منهج الحديث في سرد أخبار الأوّلين، ويمكن هنا أن نحصي:

- عبيد الله بن الحبحاب الذي كان كاتبا ثم استحال واليا، وقد كانت له دراية بالشّعر وأيّام العرب[6].

- عياض بن عوانة الكلبي (ت 158 هـ/ 774 م) كان من أسرة تتقن فنّ النّسابة والأخبار، وقد كان مجيدا للشّعر[7]، ولا بدّ أنّ أهل إفريقيّة قد أخذوا عنه الأخبار والسّير.

- معمّر بن سنان (ت 177هـ/ 793م) صاحب أيّام العرب، ومعتمد أهل افريقيّة في أخبار حرب غطفان[8].

---

(1) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، ط1، المعهد العالي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1993، ص64،91.

(2) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المصدر السابق، ص 64.

(3) عبد الله سالم محمد بازينة: تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين من القرن (1-4هـ/7-11م)، ضمن مجلة البحوث الأكاديمية، مكتبة مصراتة، ليبيا، العدد 12، جوان 2018، ص 190.

(4) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المرجع السابق، ص91.

(5) عدّ أبو راس الصحابة الذين غزو المغرب ومنهم من استقر واوصلهم إلى 68 صحابيا، أبو راس المعسكري: الإصابة فيمن دخل المغرب من الصحابة، تح: احمد الطويلي، المطبعة العصرية: تونس، 2010.

(6) الرقيق القيرواني إبراهيم بن القاسم: تاريخ افريقية والمغرب، تح: عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1990، ص 71.

(7) الزبيدي محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، 1973، ص 226-227.

(8) ابن الأبار محمد بن عبد الله: الحلة السيراء، ج1، تح: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، مصر، 1985، ص 107.

هؤلاء الإخباريّون اتّخذوا القيروان قرارا، ولا شكّ فقد كانوا معتمد أهل المنطقة، ولبنة أولى لما سيشهده المغرب من كتابة تاريخيّة رواية وتأليفا.

شكّلت الرّحلة في الاتّجاهين رافدا من روافد المعرفة التّاريخيّة، وقد شهدت توازيا معها حركة فكريّة تجسّدت في "البعثة العمريّة" أيّام عمر بن عبد العزيز، ولا غرو فقد أفادوا أهل المنطقة، الأمر نفسه ينطبق على أهل المغرب الذين اتّخذوا المشرق وجهة لتلقّي العلم.

جدير بالملاحظة هنا، أنّ المصادر المغربيّة قد أحصت عددا من الإخباريّين، وذلك الكمّ منهم يوحي برواج رواية التّاريخ والإخبار عن سير الأوّلين، وأحصى أبو العرب عددا منهم في طبقاته، كما يؤشّر أيضا على إسهام المغاربة في تلك العمليّة انطلاقا من الظّروف المساعدة المذكورة سلفا.

بالمحصّلة، فإنّ فضل الفتح الإسلامي وحضارته على بلاد المغرب، تجلّت في الإسهامات المتقدّمة للمغاربة في كتابة تاريخ المنطقة، وفضل اللّسان العربيّ أيضا في القدرة على التّوصيف والإبانة.

أولا: تاريخ الكتابة التّاريخيّة في المغرب الإسلاميّ قبل القرن الرّابع الهجريّ

كنت قد أشرت قبلا أنّ القرن الأوّل الهجريّ شهد اهتماما بالتّاريخ لدى المسلمين، ذلك الاهتمام نابع من حرص الإسلام على التّدبّر في سير الأوّلين، أليس ثلث القرآن قصص؟ وقد بدأ التّاريخ برواية سيرة النبي ε، الأمر الذي استدعى منهج المحدّثين للقيام بذلك، وعليه فيمكن القول أنّ التّاريخ عند المسلمين نشأ وترعرع في بيئة حديثيّة تحرّيا للصّدق حال التّأريخ لحياته ε ومغازيه، وحياة الصّحابة من بعده في إطار ما اصطلح عليه بالسّير والتّراجم.

هذه البداية المبكّرة لنشأة التّدوين التّاريخيّ في المشرق جاءت ضمن سياق اهتمام الجيل الأوّل بتدارس وحفظ سير النّبيّ وصحبه –كما أسلفنا– وبالتّالي فإنّ كتابة التّاريخ ارتبطت أساسا بحاجة اللّاحقين لمعرفة أخبار الأوّلين على سبيل الإقتداء، الأمر الذي يجعل من مستوى الخطاب التّاريخي رهن مستوى المعنيّين به.

وإذا قمنا بعمليّة إسقاط لتلك المقاربة على بلاد المغرب الإسلاميّ فإنّ المعادلة ستعرف تحوُّرا كبيرا فالاهتمام بكتابة التّاريخ لا تجد لها ولاء إذا ما قورنت بالفترة القديمة للمنطقة حيث الرّسوم والنّقوش، وهو أمر مستساغ بالنّظر إلى وقوع المنطقة ضمن حزام الصّراع المستمرّ الذي جعل الرّقعة تعيش فترة الكبت التّأريخيّ.

هذا إضافة إلى الفتن التي شهدتها المنطقة على المستوى الدّاخليّ، فكلما سادت أمّة وشاع مذهب، قام بعمليّة وأد تاريخيّ لخصمه في إطار نصرة المذهب تارة، والتّمكين للدّولة تارة أخرى، ونجم عن ذلك أن أُهدرت مكتبات وكتب، جرّاء إحراق مكتبة "المعصومة"[1] الرّستميّة على يد الشّيعة مثلا، هذا بالإضافة إلى هدر العلماء السُّنّة بعد محنتهم في المغرب على يد الشّيعة أيضا كما أورد أبو العرب في كتابه "المحن".

يضاف إلى ذلك ما قام به المرابطون من إتلاف لكتاب "الإحياء" للغزاليّ، ولعل الأمر لا يتوقف عند هذا الحدّ، لأنّ حجم ما نقلته لنا المصادر من معاداة المرابطين للمؤلّفات التي تمتهن الأصول مجالا للبحث، قد يجعل من حجم

[1] **ينفي الدكتور لقبال وجود مكتبة المعصومة أصلا، انظر: د، موسى لقبال: من قضايا التاريخ الرستمي، مقال منشور ضمن مجلة الاصالة، جامعة سعيدة، الجزائر، العدد 41، 1977، ص 51.**

التّجنّي على التّأليف أكبر من حرق مؤلَّف واحد، فآراء الاعتزال، وفكر الأشعريّ، قد لا تسلم من يد "البطش" أيضا، وبالتالي فإنّ عملية إحصاء ما أُحرق سيكون جزءا صغيرا من كلٍّ كبير.

هذه المأساة وأخواتها، كانت نقاطا سوداء في تاريخ الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلامي، يضاف إلى الذي أشرنا قبل من معضلات ذهبت بتاريخ زاخر صُنّف في خانة المفقود، ولو لم تحفظ لنا البقيّة الباقية –من مؤرّخي المنطقة– نتفا ممّا تكون قد اطّلعت عليه قبل الضّياع أوالإتلاف، لكان كلّ ذلك التّاريخ قد غُبر.

أقول مأساة، لأنّ تلك العمليّة قد ذهبت بنتاج فكريّ كان يمكّننا من استجلاء تلك المرحلة على مستويات عدّة، فالذي ضاع استغرق الكلّ، حسبنا أنّ مجال التّأليف كان خصبا، وأنّه امتدّ أفقيّا ليشمل المغرب كلّه أو جلّه، وعموديّا استوعب الفقه والسّير والتّراجم والتّاريخ، ولعلّ ما وصلنا متقطّعا يوحي بأنّ فترة زاهرة قد غُبرت وبأنّها كانت بفعل معارض، أو نتاج صمت يخشى مصيرا يشبه مصير التّأليف "المذهبيّ"!؟

وفي إطار ما أُلّف عن المغرب وقتذاك، نشير ابتداء إلى الكتابات المشرقيّة حول المغرب:

– كتب المصريّ ابن عبد الحكم (ت257هـ/870م) عن "فتوح مصر والمغرب" –كأوّل رواية تناولت الفتح– وتناول المحاولات الأولى له زمن عمرو بن العاص، وزمن الولاة والقوّاد من بعده[1]، وهو مرجعيّة المشارقة عن تلك الأخبار، فلا غرو قد استفاد المؤرخون المتقدّمون من كتاب ابن عبد الحكم، واعتمدت عليه المؤلفات المتأخرة كذلك، فأكثر السّيوطيّ والمقريزيّ الاقتطاع من كتابه، ونقل ياقوت الحمويّ عن وصف مصر من هذا الكتاب حرفيّا[2].

ويُعدّ ابن عبد الحكم أوّل من أورد خبر استشارة ابن العاص لسيّدنا عمر في فتح إفريقيّة، وردّ الخليفة بأنّها "ليست إفريقيّة ولكنها المفرّقة"، هذه الرّواية التي دُحضت بضعف راويين فيها، وأُثبتت بطريق آخر –غير الذي وردت به– اعتُمد فيها على المنهج المقارن الذي يستحضر نصوصا أخرى "جرحا وتعديلا"[3].

– كتب الواقديّ (ت207هـ/822م) عن المغرب في كتابه "فتوح افريقيّة"[4] وهو أوّل مؤلّف صنّفه صاحبه للتّأريخ للمنطقة خصّيصا، ويكتسي قيمة تاريخيّة هامّة أليس عنوانه موح بذلك؟

---

[1] ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ،تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصر الثقافة، مصر، 2001، 05–06.

[2] نفسه، ص 06.

[3] طاهر بن علي: أهمية النّص المقارن في دراسة تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب –دراسة تطبيقية– ضمن مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، العدد 20، جوان 2016، ص 439–442.

[4] محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح إلى غاية العصر الحديث، ج1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 1983، ص 17. أسماء غجاتي: بنية الخطاب السردي في مغازي الواقدي "فتوح الشام" و"فتوح افريقية"، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في النقد الادبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2017/2016، ص 18. وقد ذكر أحد الباحثين أنه مفقود وهو خطأ انظر: حسين عبد الكريم: حركة التاليف التاريخي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الاسلامي الوسيط، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017–2018، ص 15.

بلا شكّ هو كتاب قيّم في التأريخ لأحداث فتح بلاد المغرب[1]، فمؤلّفه صاحب باع في كتابة التّاريخ في المشرق، وقد نقل لنا فتح مدن المغرب من سوسة إلى مرّاكش مرورا بسطيف وقسنطينة[2]، ويبدو أنّه مصدر البلاذريّ والطّبريّ في أخبار إفريقيّة[3].

– مؤرّخ آخر هو اليعقوبيّ (ت207هـ/823م) صاحب المصدر الضائع "فتوح إفريقيّة"[4]، ويبدو أنه يحوي مادة هامّة عن فتح المنطقة، فاليعقوبي قد خبر الزّمان، و"أخبار البلدان"[5]، وله أيضا شروح مقتضبة عن أحداث فتح مدنها، ذكرها متفرّقة في كتابه "البلدان"[6].

– أمّا البلاذريّ (ت279هـ/892م) فقد كتب في "فتوح البلدان" عن بلاد إفريقيّة[7]، وينقل البلاذريّ أحداث الفتح مفصّلة يرويها عن محمد بن سعد عن الواقديّ، ويختلف البلاذريّ عن الواقديّ في كون الثّاني قد دخل إفريقيّة، بينما الأوّل قد روى ما سمع مشافهة –كما ذكرنا–، فالبلاذريّ لم يكن بمستوى الواقديّ في التّأريخ للمنطقة، غير أنّنا لا نستبعد نقله لنا ما ورد في كتاب الواقديّ "الضائع" عن "فتح إفريقيّة".

مؤلّفات أخرى عن بلاد المغرب نجدها مبعثرة في الكتب الجغرافيّة، مثل الذي كتبه الإصطخريّ (ت بعد 350هـ/961م) في "المسالك والممالك"، وابن حوقل (ت بعد 977/367م) في "صورة الأرض"، حيث استقصيا حدود المنطقة، وما كتبه الطبريّ (ت310هـ/922م) في التّاريخ العامّ، عن فتوح المغرب مستنده في ذلك ابن عبد الحكم.

وقد أسهمت المعرفة التّاريخيّة تلك في إحداث نقلة على المستوى المعرفيّ في بلاد المغرب، تجسّد ذلك في توجّه المغاربة نحو الإنتاج التّاريخيّ "المتخصّص"، ممّا أدّى إلى بروز نزعة تاريخيّة واضحة في الكتابات المغربيّة أدّت في النّهاية إلى نشأة التّأليف "التّاريخيّ"، الذي سبقته الرّواية الشّفويّة التي امتدّت في الزّمن إلى القرن الثّاني للهجرة، ونظرة واحدة في طبقات أبي العرب والخشنيّ تكفي للخروج بنتيجة مؤدّاها كثرة الرّوّاة، وغزارة التّأليف في المنطقة في فنون عدّة، ويمكن الإشارة في هذا السّياق إلى مجموعة من الإخباريّين* الأوائل، مثل:

---

(1) علاوة عمارة: المرجع السابق، ص 150.

(2) أسماء غجاتي: المرجع السابق، ص 18.

(3) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المرجع السابق، ص94.

(4) شيخة احمد الخليفي: اليعقوبي والعصر الاموي في كتابه "تاريخ اليعقوبي"، مقال منشور ضمن مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، العدد 13، كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، 2001، ص 220.

(5) اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب: البلدان، تح: محمد امين ضناوي، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت، ص 09

(6) نفسه، ص 180–192.

(7) البلاذري احمد بن يحي بن جابر: فتوح البلدان، مطبوع، ط1، مطبعة الموسوعات، مصر، 1901، ص 234.

(*) برر الدكتور بحاز إبراهيم استعمال مصطلح الإخباريين على المؤرخين الأوائل من باب أن لفظة التاريخ لم تكن مستعملة كما اليوم، لكن مناهج التأليف المعروفة اليوم استعملت وقتذاك، وهناك مؤلفات بلفظة التاريخ استعملت آنذاك –كما سيأتي بيانه–. انظر: بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية، ط3، منشورات الفا، قصر المعارض، الجزائر، 2010، ص 435.

– أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافريّ الشّعبانيّ (ت 161هـ/778م) قاضي افريقيّة، وأوّل مولود فيها بعد فتحها، كان متفنّنا في علوم شتّى[1]، ويُعدّ أقدم من حفظ أخبار الفتح الأوّل لإفريقيّة[2].

كان عبد الرحمن بن انعم صاحب علم، غير أنّه "بقي في صدره" لا "ينشره"، وقد ذكر أبو العرب أنّ له كتابين "فقط" دون أن يذكر محتواهما[3]، ويبدو أنّهما لا يخرجان عن التّاريخ والقضاء.

أقول التّاريخ، لقرائن توحي بذلك، فابن انعم قد شهد وقائع عدّة في بلاد المغرب، كاستيلاء الصّفريّة على بلاد المغرب، ودخول النّصارى غزاة، آسرينه وثلّة معه[4]، وارتحل إلى المشرق أكثر من مرّة التقى خلالها سفيان الثّوري، وأبا جعفر المنصور، ويُحتمل أنّه قد دوّن ما وجد من رحلته تلك.

بالنّسبة للقضاء، فذلك بحكم استواءه على ذلك المنصب بعد أن فداه أبو جعفر المنصور، وولّاه قضاء إفريقيّة الذي كان له قرار إلى غاية الوالي يزيد بن حاتم[5].

هذا، ولا أستبعد أن تكون لابن أنعم تآليف عدّة في حكم الضّائع، دلّ على ذلك كثرة الرّواة عنه –كما سيأتي– وغزارة علمه، اللّذان ينمّان عن موسوعية استغرقت التّاريخ والسّير والفقه وأحوال القضاء.

– المهلّب بن هيثم القيسيّ (ت275هـ/887م): ذكر الخشني أنّه من رجال تونس ونقل عنه قوله:"إنّما الوثائق غرض" الأمر الذي يوحي بأنّ ابن المهلب كان من الذين يجيدون التّوثيق، وبهذا يمكن عدّه أوّل من نبّه إلى أهمّية الوثيقة، والاعتداد بها كأداة من أدوات التأريخ، وإذا كان هيثم لم يشر إلى ذلك صراحة فإنّنا لمسنا هذا في تأليفه "أدب القاضي والقضاة"[6]، حيث الوثائق وطرائق التعامل معها السّمة الغالبة على مهنة القضاء التي تولّاها المهلب.

---

[1] ابو العرب محمد بن تميم التميمي، طبقات علماء افريقية، تح: محمد بن ابي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، 27. المالكي أبو بكر عبد الله: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم واوصافهم، ج1، تح: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1994، ص159،152–160.

[2] إبراهيم بحاز: إبراهيم بحاز: الكتابات التّاريخيّة في المغرب الاسلامي خلال القرون الهجريّة الثلاث الأولى (1–3هـ/7–9م)، مجلة البيان، جامعة آل البيت، الأردن، المجلد الثالث، العدد الأوّل 2009/2008، ص135. يوسف بن احمد حوالة: الحياة العلمية في افريقية منذ إتمام الفتح وحتى القرن الخامس الهجري، ج2، ط 1، جامعة ام القرى، السعودية، 2001، ص 347، علاوة عمارة: المرجع السابق، ص 152.

[3] أبو العرب: المصدر السابق، ص 30.

[4] نفسه، ص 27. المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 154. القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج2، تح: محمد بن تاويت الطنجي، ط2، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، المملكة المغربية، 1983، ص 204 . الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص 233.

[5] أبو العرب: المصدر السابق، ص 32. القاضي عياض : المصدر السابق ،ج2، ص159. الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص 234.

[6] الزركلي: الاعلام قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج8، ط15، دار العلم للملايين، لبنان، 2002، ص 104. محمود إسماعيل: المرجع سابق، ص 22. محمد محفوظ: المرجع سابق، ج4، ص 137.

– عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقيّ (ت281هـ/ 893م): أصله من العجم، وقيل من العرب، كان عالما فصيحا قاضيا[1]، قال عنه أبو علي المصريّ: "لو أفردنا له كتابا في ذكر مناقبه... ما انتهينا من وصفه"[2]، ويبدو أنّه من رجال القوم الذين يُعتدّ بهم، فقد أورد ابن فرحون نصّا يوحي بذلك، ذلك أنّ عيسى ابن مسكين رجل لا يضاهيه أحد في افريقيّة بل وحتى في العراق، فـــ "إذا تفاخر أهل العراق برجالهم ... قيل لهم هل عندكم مثل عيسى بن مسكين"[3].

كان ابن مسكين غزير التّأليف في الفقه والآثار وعلم الرّجال، ويبدو أنّ موسوعيّته هذه هي التي أهلته لمنصب الإفتاء والقضاء[4]، ولا نستبعد أنّ له تآليف في السير والمغازي بحكم معرفته بأخبار الأوّلين.

– فرات بن محمد العبديّ (ت 292هـ/904م): من الذين أكثر أبو العرب الأخذ عنه أبا سهل فرات بن محمّد، وقد كان صاحب معرفة بالزّبور[5] وأخبار الأوّلين وأنسابهم[6]، وكان "أوقع النّاس في النّاس" فاتُّهم بالضعف وبالكذب[7]، وهو من الذين لهم علم بالسير[8].

عطفا على ما سبق، يمكن الإشارة إلى "طبقة" من المؤرخين الذين أُحصيت لهم مؤلفات في مختلف حقول الكتابة التّاريخيّة، غير أنّ تلك التّآليف أضحت في حكم المفقود، وقد أطلعتنا المصادر –التي نقلت عنهم– على مجموعة منهم:

– النّسّابة عبد الله بن أبي حسّان اليحصبيّ (ت227هـ/842م)[9]: وعبد الله – هذا الإخباري – من أصول مشرقيّة حيث يكنّى بالمدنيّ وبالقيروانيّ[10]، وقد كان عالما بالتّاريخ والنّسب والشّعر[11]، حيث ذكر محمد زيتون أنّ له كتابا في "التّاريخ" في عداد المفقودات[12]، ومن مآخذه عبد الرّحمان بن زياد بن أنعم[13]، وقد روى عنه النّاس أخبار افريقيّة وحروبها، كصاحب المدوّنة سحنون، وفرات بن سليمان، وابن أبي وضّاح[14]،

– أبو عبد الملك الملشوني (ت 242هـ/856م)، صاحب "أخبار الأمم السّالفة والأعوام الماضية"، ويبدو أنّه كان ذا علم واسع بسير الأوّلين، دلّ على ذلك جلوسه عند الأمير محمد بن الأغلب يحدّثه بها رمضان كاملا، له كتاب

---

(1) النباهي أبو الحسن: تاريخ قضاة الاندلس، تح: لجنة احياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1983، ص 30.

(2) ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، تح: محمد الاحمدي أبو النور، دط، دار التراث، مصر، دت، ج2، ص 66.

(3) نفسه، ص 67.

(4) الخشني محمد بن الحارث: طبقات علماء افريقية وتونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 142.

(5) الدباغ: المصدر سابق، ج2، ص 250.

(6) الخشني: المصدر السابق، ص 141. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ج2، تح: ج س كولان، ليفي بروفنسال، دط، دار الثقافة، لبنان، ص139.

(7) نفسه، ص139. القاضي عياض: المصدر السابق، ج4، ص 411.

(8) إبراهيم بحاز: الكتابة التاريخية، ص 136،135. علاوة عمارة: المرجع السابق، ص 152.

(9) ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، ج1، ص108.

(10) القاضي عياض : المصدر السابق ،ج2، ص 204 .

(11) الدباغ: المصدر السابق، ج2، ص 59،58. ابن فرحون : المصدر السابق، ج2، ص 418. المالكي: المصدر السابق، ص 286 .

(12) محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار، مصر، 1988، ص 370 .

(13) الدباغ : المصدر السابق، ج2، ص 58. ابو العرب: المصدر السابق ، ص 75 .

(14) ابن فرحون : المصدر السابق، ج1، ص 418.

مفقود في "أخبار الأنبياء"، وهو كتاب يصفه المالكيّ بالكبير، وكتاب آخر في التّاريخ العامّ عنوانه "البديء"[1]، وقد نقل عنه صاحب "الروض المعطار" خبر خالد بن سنان العبسيّ الرجل الذي لم تأخذ الأرض منه شيئا[2]، واستدرك الملشوني على أنّه من الحواريّين.

– عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر (ت250هـ/864م)، وهو من أحفاد أبي المهاجر فاتح المغرب الأوسط، له دراية بالتّاريخ والوقائع، وقد كان ثقة سمع منه فرات بن محمّد العبديّ[3]، ويذكر له المؤرّخون في ذلك كتابا في "فتوح افريقيّة"[4]، معتمد من أرّخ بعد لإفريقيّة كأبي العرب والبكري[5]، الكتاب في حكم المفقود.

– عبد الملك بن قطن المهريّ (ت 253هـ/866م) كان عالما برواية الأنساب وأيّام العرب ووقائعهم[6] وقد ذُكر له كتاب في "تفسير مغازي الواقديّ"[7]، وروى عنه جماعة من أهل العلم بعده[8].

– محمد بن سحنون (ت 255هـ/870هـ)[9]: صاحب العلم الوفير، يُؤثر عنه كثرة وضعه للكتب، وقد ذكر الخشنيّ أنّه كان يكتب العلم لمن عنى به، وأنّه "سبح في العلم سبحا"[10]، الأمر الذي يوحي بغزارة علمه وللمالكيّ نقول عنه من كتاب ذكره له بعنوان "الطبقات"[11]، وهو كتاب في طبقات العلماء من سبعة أجزاء على منهج الطّبقات، حوى تراجم مغربيّة لعلماء من المنطقة، وبالتّالي فهو ذو قيمة تاريخيّة كبيرة بالنّظر إلى ما سيقدمه من مادة تعين على استجلاء رجال المنطقة، واكتناه أحداثها ووقائعها.

ولابن سحنون أيضا كتاب في التّاريخ من سبعة أجزاء[12]، وهو كتاب ضائع، ولسنا نملك عنه علما عدا ما يُستأنس به من عنوانه الذي يبدو أنّ تأليفه على منهج التّاريخ العامّ، ولا نستبعد أن يكون ابن سحنون قد أشار في كتابه إلى سير الأوّلين، ومغازي فاتحي لبلاد المغرب وملاحمهم إلى وقته، وإذا الأمر كذالك فإنّنا سنسقط مسلّمة أنّ ابن عبد الحكم أوّل من كتب في فتوح المغرب، فابن سحنون –على ما يبدو– أغزر وأدقّ من ابن عبد الحكم في رواية التّاريخ،

---

(1) المالكي: المصدر السابق، ج1، ص401.

(2) الحميري محمد بن عبد الله: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: احسان عباس، دط، مكتبة لبنان، لبنان، 1974، ص 114.

(3) أبو العرب: المصدر السابق، ص120.

(4) نفسه، ص 120. علاوة عمارة: المرجع السابق، 152.

(5) محمد المنوني: المرجع السابق، ص 17.

(6) المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 404

(7) محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج4، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1985، ص 408. الطيب بوسعد: المدرسة التاريخية في المغرب الاسلامي ومنهجها في البحث التاريخي خلال القرون الهجرية الأولى (2و3و4هـ/8و9و10م)، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، العدد 06، 2009، ص 134.

(8) محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص 408.

(9) الخشني: مصدر سابق، ص 132.

(10) نفسه، ص 129.

(11) المالكي: رياض النفوس، ج1، ص 131.

(12) نفسه، مقدّمة المحقق، ج1، ص13.

أليس من الحفّاظ؟ أليس قد قال عنه ابن عبد الحكم:"هذا رجل سبح في العلم سبحا"؟[1] ويبدو أنّ الكتاب موسوعة تؤرّخ للمغرب والمشرق على السّواء.

ألّف ابن سحنون في فنون عدّة، ذكر له أصحاب التّراجم ما يربو عن العشرين كتابا، أجلّها كتاب "الجامع"[2] الموسوعة التي حوت أكثر من مائة جزء من مختلف العلوم، تشمل تصانيف في التّاريخ وفي السّير وفي طبقات الرّجال وغيرها.

لابن سحنون كتاب الإمامة، هذا الذي قال عنه ابن مسكين "أنه كتب بماء الذهب" لما وصل إلى بغداد ويبدو أنّه كتاب يعالج الإمامة بنظرة سنّيّة، على اعتبار أنّ التّصنيف في هذا الفنّ كان قد راج في ذلك الوقت وله أيضا كتاب مفقود في التّراجم عنوانه بـ"طبقات العلماء"، وهو من سبعة أجزاء.

– سليمان بن أبي عصفور (الفرّاء) (ت 269هـ/882م): كان سليمان يقول بخلق القرآن، وهو مذهب المعتزلة والإباضيّة، وذكر الخشنيّ أنّه كان غزير التّأليف في مذهبه "خلق القرآن"، وذكر له أيضا كتابا في "أعلام النّبوّة"[3].

– محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب (ت 283هـ/894م): قال عنه سليمان بن عمران:"ما ولي لبني الأغلب أعقل من زيادة الله الأصغر"، كان عالما خطيبا أديبا[4]، ألّف كتابا سلالاتيّا في تاريخ الأغالبة ونسبهم معنونا بـ"تاريخ بني الأغلب"[5]، وهو في حكم المفقود.

– يحي بن عمر (ت289هـ/901م)[6]: يغلب على ابن عمر الفقه، غير أنّه كتب في التّاريخ بحكم سعة اطلاعه وحافظته، فقد كان "كأنّما الدّواوين في صدره"[7]، وقد كتب عن "أحمية الحصون"[8]، وهو كتاب في حكم الضّائع.

---

[1] محمد بن سحنون: آداب المتعلمين، مر: محمد العروسي المطوي، طبعة جديدة منقحة، دون دار نشر، تونس، 1972، مقدمة المحقق ص 22.

[2] نفسه، ص 26.

[3] الخشني: المصدر السابق، ص 219.

[4] ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص139. بينما يذكر أيضا انه كان قليل العلم؟ وربما يقصد العلم الشرعي (الفقه) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص107.

[5] ابن الابار القضاعي: المصدر السابق، ج1، ص180. الزركلي خير الدين : المرجع السابق، ج6، ص131–132. محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص 53.

[6] انظر ترجمته عند المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 490.

[7] ابن فرحون: مصدر سابق، ج2، ص 356.

[8] أبي زكريا يحيى بن عمر: احكام السوق، تح: جلال علي الجهاني، طبعة تونسية، تونس، 2012، ص 25. ابن فرحون: المصدر السابق، ج2، ص 256. محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 21. فراس الطرابلسي: قراءة في كتاب احكام السوق "السّماع"، مقال منشور ضمن مجلة الثقافة الشعبية، تونس، العدد 29، 2015 ، ص129.

ظاهرة ضياع المصادر التي ذُكرت سلفا مردّه إلى التّطاحن الفكريّ الذي صاحبه التّمذهب، فالمدرسة الحنفيّة في العهد الأغلبيّ تميّزت بغزارة تآليفها، غير أنّها فُقدت بفعل الصّراع مع المالكيّة[1]، وبتفريط الأحناف أنفسهم في تدوين أخبارهم كونهم تشرّقوا –تشيّعوا– تارة[2]، أو تمذهبوا بالمالكيّ تارة أخرى!؟

ذلك إحصاء للإرث الشفويّ المرويّ، وتوصيف لتأليف ضائع خلال القرون الأولى في بلاد المغرب الإسلاميّ، حفظته لنا المصادر المتأخّرة التي كان لها الإرث مستندا، المرحلة تلك شكّلت النّواة الأولى للنّقلة المعرفيّة بالتّاريخ، واللّحظة الفارقة التي رسّخت في عقول الباحثين المهتمّين بتراث المغرب الإسلاميّ فكرة أصالة الكتابة التّاريخيّة في تلك المنطقة، وإذا كان أمر الكتابة في التّاريخ العامّ قد يُنظر إليه نظرة الاستمراريّة والارتكاز على تراث المشرق، فإنّ فكرة الأصالة يُنظر إليها أيضا من زاوية التّأليف المحلّيّ القطريّ، حيث الانتقال من رواية المغازي والسّير والفتوح، إلى الكتابة في تاريخ قطر من أقطار المغرب بعينه، أو سلالة حاكمة بعينها، وإذا صحّ القول فإنّ "التخصّص" في فنّ الكتابة التّاريخيّة المغربيّة قد وجد له من هاهنا مدّخلا، وأضحى لكلّ قطر من أقطاره الثّلاث تآليف شكّلت في الأخير إرهاصا حقيقيّا لبداية التدوين التّاريخيّ في بلاد المغرب، على غرار الرّواية الشّفويّة التي سبقته، ذلك التّدوين هو الذي سيعطي للمنطقة هويّة معرفيّة، وإذا كان سيصبغها بصبغة الأيديولوجيا –على غرار كلّ الدّول سابقها ولاحقها– فإنّه سيمكّن من حفظ جزء كبير من تاريخها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أقدم مؤلَّف وصلنا من المغرب الأدنى، كتاب لوّاب بن سلام اللّوّاتي (ت273هـ/886م) الإمام الدّاعي[3]، الكتاب فيه "بدء الإسلام وشرائع الدّين"[4]، وهو تأليف يعرض تاريخ الإسلام حتّى عهد المؤلِّف، طرح فيه ابن سلام نظرة تعبِّر عن تصوّر الإباضيّين لبعض القضايا الأصولية كالإيمان والإحسان، والولاية والبراء، ويستعرض فضائل بعض الصّحابة، والفقهاء "الذين نأخذ عنهم ديننا" أي فقهاء المذهب الإباضيّ وآثارهم.

وعن إباضيّة –المغرب الأوسط– ألّف الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرّحمن بن رستم (ت208هـ/823م) "مسائل نفّوسة" فيه مسائل متعلّقة بالمذهب والدّولة الإباضيّة، ومثله ابنه افلح الذي كتب "الجوابات"، وكتب جناو بن فتي المديوني وعبد القهّار بن خلف "أجوبة علماء فزّان"، وكلُّها كتب قضاء وفقه إباضيّ، تتقاطع مع التّاريخ في كونها عبارة عن إشكالات فقهيّة بعث بها أتباع المذهب إلى علماء المذهب الذين تولّوْ الرّدّ عنها، مع ما تحفل به من وقائع تاريخيّة –لها علاقة بالواقع المعاش– إذا اعتمدها المؤرّخ مادّة لما يكتب.

---

(1) احمد الطّالبي: الدّولة الأغلبية –التاريخ السياسي، تع: المنجي الصيادي، ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1995، ص 13–15. محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 23–24.

(2) إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 137–138.

(3) الشماخي احمد بن سعيد: كتاب السير، تح: احمد بن سعود السيابي، دط، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1987، ج1، ص 208.

(4) لواب بن سلام المزاتي الاباضي: كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين، تح: الشيخ سالم بن يعقوب و ر.ف.شفارتس، ط1، دار اقرا للنشر والتوزيع والطباعة، لبنان، 1958.

كتب مؤرّخ الدّولة الرّستميّة – كما نعتته وداد القاضي[1]– ابن الصغير المالكيّ (ت أواخر القرن الثّالث الهجريّ/التاسع الميلاديّ) كتابا عن "أخبار الأئمّة الرستميّين"، وهو مؤلَّف تاريخيّ بحت تحرّى فيه صاحبه الصّدق في النّقل، حكى فيه عن الأئمّة الرّستميّين من الإمام عبد الرّحمن إلى غاية الإمام أبي حاتم يوسف سنة (294هـ/906م)[2].

في المغرب الأقصى، تكاد الكتابة التّاريخية تنعدم، غير أنّ دراسة منشورة أصّلت لحركة التّدوين في المنطقة وأشارت إلى عدد من المؤلّفات المفقودة التي كانت قد تغيّر معادلة الحكم على "الاسطوريوغرافيا المغربيّة"، وعدّد صاحبها تآليف من فترة مبكّرة للمنطقة، منها كتاب "النّوفلي" لأبي الحسن النّوفليّ أقدم مؤلَّف في تاريخ الأدارسة حوى بيعة الإمام إدريس واستشهاده، واعتمد في تأليفه على روايات والده الذي عاصر الأحداث، وقد نقل عنه البكري في مسالكه، وفي الكتاب مادة تاريخيّة غنيّة –حسب من نقل عنه–[3].

وضمن الإطار نفسه ما ذكره الدكتور إبراهيم حركات عن البرنوسيّ أبا العباس الفاسيّ الذي اعتمده ابن أبي زرع، وما ذكره المنّوني عن أبي طالب بن أحمد حفيد إدريس الثّاني الذي ألّف في نسب الأدارسة كتاب "كتاب السفرة"، فضلا عن كتاب آخر عنوانه "تاريخ الأدارسة" لمحمّد بن عبد الملك الودّون[4].

بالنّسبة للخوارج الصّفريّة فلم يذكر لهم تأليف، ويبدو أنّ دخول عبد الله الدّاعي الشّيعيّ لعاصمتهم قد أدّى في النّهاية إلى تصفيّة الدّولة تاريخيّا وجغرافيّا.

وهنا يحقّ لنا أن نتساءل عن العقم الذي أصاب الكتابة التّاريخيّة في المغرب الأقصى، والذي مردّه إلى الصّراع الذي ساد المنطقة، وإلى الإهمال الذي طال المصادر إذّاك[5].

تأسيسا على الذي سبق يمكن القول أنّ القرن الثّالث للهجرة قرن بدت فيه الطلائع الأولى للمؤرّخين المغاربة، ويبدو أنّ غلبة الصّراع السّياسيّ والمذهبيّ قد أحال التّرف الفكريّ إلى فقر تأليفيّ، وذلك التّصحّر الثّقافيّ الذي أصاب البلاد مردّه أساسا إلى التّعصّب، الأمر نفسه سيتكرّر أيّام المرابطين والموحدين مع كتاب الإحياء والإرث المرابطيّ توالیا.

عامل الاستقرار سيدفع بحركة التّأليف إلى التّنوّع والازدهار، وإن كان سيتلوّن بلون السّياسة والمذهب، غير أنّه سيكشف في كلّ الأحوال عن واقع معاش، وعن أحداث طبعت ذلك الواقع، ويمكّن الباحثين من مادة خبريّة هامّة، تستدعي منهم الاستقصاء واستحضار أدوات التّاريخ لاكتناه الحقائق، عاملا الاستقرار والأدلجة هذين شهدهما القرن الرّابع الذي قامت فيه الدولة الفاطميّة.

---

[1] وداد القاضي: ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، مقال منشور ضمن مجلة الاصالة، وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، الجزائر، العدد 45، 1975، ص 37.

[2] المهدي البوعبدلي: لمحات من دور الدولة الرّستميّة في الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين، مقال منشور ضمن مجلة الأصالة، وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد 41. 1975، ص 196.

[3] عبد السلام الجعماطي: نحو تأصيل نشأة التدوين التاريخي بالمغرب الأقصى، ضمن مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، الإمارات العربية المتحدة، العدد 72، 2010، ص 134–137.

[4] محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 24. إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 140. عبد السلام الجعماطي: المرجع السابق، ص 138.

[5] إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 140.

ثانيا: القرن الرابع... التاريخ الموجّه

بداية تنبغي الإشارة إلى أنّ طابع الأدلجة التّاريخيّة ينسحب على أغلب المؤلّفات التّاريخيّة مشرقا ومغربا ويستغرق العصور أجمعها وسيطا ومعاصرا، غير أنّ القرن الرّابع الذي هو القرن الفاطميّ في بلاد المغرب انتهج أسلوب الأدلجة الفكريّة، والإسقاطات العمليّة لذاك التّنظير الذي تمّت صياغته في المشرق خدمة لمشروع الدّولة، وفي بلاد المغرب أيضا تمّ توحيد الفكر الإسماعيليّ وأسندت المهمّة إلى القاضي النّعمان كما سيأتي بيانه.

وبذلك كان القرن الرّابع قرن الأدلجة بامتياز، وإذا كنّا هنا سنقتصر على الدّولة الفاطميّة فإنّنا سنستعرض تآليف ذلك العصر خارج الدّولة الفاطميّة، حفاظا منّا على التسلسل الزّمني للموضوع، بهدف استغراق كلّ النّتاج التّاريخيّ الذي احتواه القرن ذاك.

إنّ تأثير العصبيّة المذهبيّة ذاك، انسحب على جلّ كتابات مؤرخي القرن الرّابع، فأبو العرب بن تميم التّميمي صاحب الغزارة التأليفيّة الموجودة منها والضّائعة، كتب كتابا تاريخيّا بحتا سمّاه "التّاريخ"، وهو كتاب قد يكون نهج فيه المنهج الحوليّ[1]، كما كان اشتهر بالكتابة في الطبقات والتّراجم، فقد ألّف كتبا ضائعة تنمّ عن انتصاره لمذهبه ولموطنه عدّدها المالكيّ في رياضه مثل: "مناقب سحنون"، "ومناقب بني تميم"، "عبّاد إفريقيّة"، و"طبقات رجال إفريقيّة"[2]، والذي وصلنا تاريخه التراجميّ عن "علماء إفريقيّة وتونس"، وقد نزع فيه نحو نسبته ومذهبه، فقد أرّخ لمناقب قبيلته، وعلماء المالكيّة دون غيرهم، وهو طبع نبع من المنحة التي نزلت بالبلاد المغربيّة أيّان الفاطميين[3].

كتاب طبقات علماء افريقية كتاب تاريخيّ بامتياز، يتكون من أربعة أجزاء ذكر في الجزء الأخير علماء تونس، وقد اختصره الطلمنكي وقدّمه إلى تلميذ أبي العرب الخشني الذي أضاف ثلاثة أجزاء إلى الأصل ليصبح المجموع سبعة أجزاء.

يتناول الكتاب من دخل إفريقيّة من الصّحابة والتّابعين، ومن نقل وروى عنهم، ومن عاد منهم إلى المشرق، واهتمّ بالفقهاء والمحدّثين، وفي المؤلَّف قيمة تاريخيّة –إضافة إلى التّراجم المضمونة فيه– تتعلّق بالإشارة إلى عمليات الفتح الإسلاميّ لبلاد المغرب، وأعمال ابن حديج، وأبي المهاجر، وعقبة بن نافع ψ.

أرّخ أبو العرب للمحن التي ألمت بالمسلمين مشرقا ومغربا في مؤلّف يعبّر عن محتواه وهو كتاب "المحن" الكتاب مادة تاريخيّة تعرض الوقائع التي اعترضت المسلمين منذ صدر الإسلام إلى وقت المؤلِّف[4].

تلميذ أبي العرب الخشنيّ (ت362هـ/972م) ذيّل كتاب "طبقات علماء افريقيّة وتونس" بعلماء الأحناف والشّافعيّة، بل وحتّى الذين تشرّقوا[5]، في كتابه "طبقات علماء تونس"، الأمر الذي يوحي بموضوعيّة الأخير حيث

---

[1] **المالكيّ: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج1، ص 14.**

[2] **الخشني: المصدر السابق، ص 173. المالكي: المصدر السابق، ج1، ص14. الطيب بوسعد: المرجع السابق، ص 143.**

[3] **محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 22.**

[4] **أبو العرب: كتاب المحن، تح: يحي وهيب الجبّوري، ط3، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 206، مقدمة المحقق، ص 33.**

[5] **إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص137.**

استغرق علماء خارج المذهب المالكيّ، وذُكر أنّ له كتاب "التعريف" ذيّل به كتاب طبقاته غير أنّه لم يصلنا وله كتاب آخر في "قضاة قرطبة"[1].

كان الخشني عالما بالأخبار وأسماء الرّجال، وله تآليف عدّة فاقت المائة ديوان، وأكثر تآليفه على منهج الطبقات، فقد ألّف "الرّواة عن مالك"، و"طبقات فقهاء المالكيّة"، و"تاريخ علماء الأندلس"[2]، وله تآليف أخرى توحي بغزارة علمه.

نتاج الخشنيّ الفكريّ مفقود جلّه، وهذا الجلّ المفقود أنفس وأشمل ممّا هو موجود، ولعلّ ما أحصاه ابن فرحون عند ترجمته للخشنيّ موح بجلل الخطب، ودالّ على أنّ ما ضاع تاريخ مهمّ للمنطقة، فعمليات الجرد للوفيات والأنساب والقضاة كلّه غدا في حكم المجهول.

بالنّسبة للفترة الفاطميّة، ينبغي التّنبيه على نقطة مهمّة سيُبنى عليها الفكر الإسماعيليّ كلّه وهي الإمامة ذلك أنّها شكّلت الحجر الأساس في ذلك الفكر، فالتّنظير المشرقيّ، وفلسفة الإمامة التي شدّت المنظّرين، وحملتهم على جهد الذّات وإيقاظ الخبرات، فانقطعوا للتّأليف، واستنطاق الأحرف والأرقام، إنّما كان الهدف الكامن وراء ذلك كلّه، هو الرّفع من قيمة الإمام، وبناء الدُّنيا على شخصه، تجسّد ذلك في المرحلة المغربية من الدّولة التي قامت لتحاكي ذلك التّنظير، وتمثُّل فلسفة الإمامة كما نُظِّر لها أيّام الدّعوة، تحقيقًا للمشروع السّياسي – العودة إلى المشرق –[3].

وعلى الرّغم من كون المرحلة المغربيّة لم تكن مرحلة الثّراء الفكريّ، لأنّ حاجة الدّولة لسند عسكريّ وسياسيّ أكثر من حاجتها للفكر الذي تمّت صياغته في المرحلة المشرقيّة[4]، فقد كانت الفترة من أخصب الفترات التي مرّت بها بلاد المغرب، وغزارة التّأليف الفاطميّ موح بذلك.

تُجمع المصادر على أنّ النُّعمان صاحب أكثر التّآليف في الدّولة الفاطميّة، خاصّة زمن المعزّ الذي عمل على توحيد الفكر الإسماعيليّ، وأوعز إلى القاضي النُّعمان مهمّة توحيد هذا الفكر، واستحال بذلك من موظّف لدى الدّولة، إلى منظّر وفقيه، استطاع أن يُقعّد ويؤسّس لفكر إسماعيليّ يهدف إلى التّمكين للدّولة، انطلاقا من التّأصيل لها تاريخيًّا، مرورا بدعم شرعيّتها، وانتهاءً بإعادة صياغة التُّراث الإسماعيليّ من منظور أيديولوجيٍّ، بواسطة "مجالس الدّعوة"، التي

---

(1) ابن فرحون: المصدر السابق، ج2، ص213. إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 137.

(2) ابن فرحون: المصدر السابق، ج2، ص213.

(3) هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الاسلامية منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد (1197هـ)، تر: نصير مروة و حسين قبيسي، ط2، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، 1998، مقدمة موسى الصدر، ص 23.

(4) بوبة مجاني: بوبة مجاني: النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي، ط1، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2009، ص 81.

نقلت علم الأئمّة وحكمتهم للعامّة[1]، زيادة على ذلك إشراف المعزّ على تآليف النُّعمان[2]، مراجعةً، وتحديدًا لوجهتها[3]، ونقدًا لمحتواها[4]، بل وتغييرًا لعناوينها، وأخيرا إعطاء الإذن بتأليف الكتاب[5].

كتاب الافتتاح من المصادر التي عالجت البدايات الفاطميّة، والتي حملت أخبارا مرجعيّة للمهتمين بتاريخ تلك الفترة من المرحلة المغربيّة، ويُعدّ بحقّ وحي التّاريخ الفاطميّ، حيث الإلمام بالدّعوة الفاطميّة باليمن، ومجريات الأحداث فيها إلى غاية قيام الدّولة.

أمدّنا النّعمان فيه بمعلومات تفصيليّة عن التّسرب الإسماعيليّ لبلاد المغرب[6]، فقد كان له السّبق في التّطرّق إلى الإرهاصات الأولى للمدّ الإسماعيليّ في بلاد المغرب، وعلى الرّغم من أنّ نصّ النّعمان ليس نصّا زمنيّا معاصرا للحدث، إلاّ أنّه استطاع الإلمام بتلك المرحلة من التّاريخ الإسماعيليّ في بلاد المغرب.

تتأتّى قيمة الكتاب من خلال النّقولات التي اعتمده مصدرا للرّواية الإسماعيلية ،فقد نقل عنه حيثيّات تلك الفترة من السّنة ابن الأثير[7]، وابن خلدون، والمقريزيّ، والنّويريّ، وزاد الدّشراوي ابن عذاري[8]، ومن الإسماعيليّين القرشيّ.

يذكر النُّعمان في نهاية كتاب الإفتتاح، أنَّه ألَّف كتابا منفردا في سيرة المعز[9]، ويذكر الدَّشراوي أنَّ هذا الكتاب هو نفسه كتاب "المجالس والمسايرات"، وعنوانه الكامل "المجالس والمسايرات والمواقف والتَّوقيعات"[10] وأورده القرشيُّ عند عرضه لمناقب النُّعمان، نقلا عن حيدرة الكتاميِّ، وقال أنَّه من أربعة أجزاء[11]، حقَّقه الفقِّيُّ وشبُّوح، واليعلاويّ، في ثمان وعشرين جزءا.

---

[1] النعمان: المجالس والمسايرات، تح: الحبيب الفقي آخرون، ط1، دار المنتظر، لبنان، 1996، ص547،435. القرشي ادريس: عيون الاخبار وفنون الآثار، القسم الخامس والقسم السادس، نشره د. محمد اليعلاوي تحت عنوان: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985، ص 557.

[2] النعمان، المصدر السابق، ص 545. ابراهيم شبوح: القاضي النعمان بن محمد (363هـ)، مواد جديدة عن حياته، ضمن ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية، الدورة الثانية، تونس، من 4الى 7 اوت 1977، ص 225.

[3] النعمان، المصدر السابق، ص 396.

[4] نفسه، ص 430.

[5] القرشي: المصدر السابق، ص 563،561، 566، 569.

[6] الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب، تع: حماي الساحلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ص 78.

[7] ذكر الدكتور علاوة عمارة أنّ ابن الاثير لم ينقل عن النّعمان، وإنّما نقل عن ابن شداد الصنهاجي. علاوة عمارة: ابن شداد جامع اخبار المغرب الوسيط، ج1، ضمن مقالات دولية، إتحاد الجامعات العربية للآداب، 2009، ص69.

[8] القاضي النّعمان: كتاب إفتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، مقدمة المحقق، ص د. نقل ابن عذاري عن الوراق خبر نشأة الدولة العبيدية، ولم ينقل عن النّعمان، وخلال تتبعنا للرواية، بدا انه فعلا لم ينقل عن النّعمان. وداد القاضي، المرجع السابق، ص 145،144.

[9] النعمان: الافتتاح، ص 338.

[10] النعمان: المجالس، ص 17.

[11] القرشي: المصدر السابق، ص 568.

ممَّا يزيد الكتاب قيمة تاريخيَّة أنَّه يُعتبر تكملة للافتتاح، حيث يتعرَّض للعلاقات بين الأمويِّين، والبزنطيِّين وملوك فاس، يفيدنا خلال كلِّ ذلك بمجموعة من الوثائق المتعلِّقة بنظام الحكم، ودواليب السّلطة[1]، ومن ثَمَّة التَّعريج على سياسة خلفاء هذه المرحلة تجاه ثورة صاحب الحمار، مع عرض لأهمِّ المشاكل التي اعترضت الخلفاء وتصدِّيهم لهذه الفتن[2].

كتاب آخر للنّعمان ذكره ابن خلكان بقوله:"عمل في المناقب والمثالب كتابا حسنا"[3]، وذكره الذَّهبيُّ في سيره[4]، والصَّفديُّ في فوات الوفيات[5]، وصاحب "معالم العلماء"[6]، وقال القرشيُّ أنَّه مكوَّن من جزأين[7].

للدَّاعي الإسماعيليّ جعفر بن منصور اليمن (ت 380هـ/990م) [8] الكثير من المؤلَّفات التي لا يزال بعضها محفوظا على شكل مخطوطات لم يتمَّ تحقيقها بعد لدى طائفة البهرة المستعليِّة، وقد ذكر القرشيُّ عند سرده لمناقبه أنّ له كتابا في السّير، وبيَّن أنَّه في "ذكر سيرة أبيه المنصور، وافتتاحه اليمن"[9]، وهذا الكتاب الموسوم بـ"سيرة ابن حوشب"[10]، وقد كان رافدا من روافد الفلسفة الإسماعيليَّة[11].

مؤلِّف آخر من الفاطميّين هو أبو علي منصور العزيزيّ الجوذريّ، الذي دخل بعد سنة 386هـ/996م خدمة أُستاذه جوذر –كاتب ديوان بلاط المعزّ والعزيز– بصفة كاتبا له سنة 350هـ، وجمع المؤلِّف سنون خدمته لاستاذه وما جرى معه في كتاب عنونه بـ "سيرة الأستاذ جوذر"[12].

---

(1) الدشراوي: المرجع السابق، ص 22،23. موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تاسيسها الي غاية القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت.، ص 17.

(2) النعمان:المجالس، ص 17.

(3) ابن خلكان شمس الدين: وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان، ج5، تح احسان عباس، دار صادر، لبنان، 2008، ص 416.

(4) الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج16، تح: بشار عواد معروف، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996، ص 150.

(5) الصفدي صلاح الدين خليل: الوافي بالوفيات، ج27، تح: احمد الارناؤوط وتزكي مصطفى، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2000 ، ص 95.

(6) محمد بن علي بن شهر آشوب: معالم العلماء فهرست كتب الشيعة واسماء المؤلفين منهم قديما وحديثا، تح: عباس اقبال، دط، مطبعة فردين، طهران، ايران، 1934، ص 161.

(7) القرشي: المصدر السابق، ص 566.

(8) جعفر بن منصور اليمن: سرائر وأسرار النطقاء، تح: مصطفى غالب، ط1، دار الاندلس، بيروت، لبنان، 1984. ، مقدمة المحقق، ص 08. جعفر بن منصور اليمن: كتاب الكشف، تح: مصطفى غالب، ط1، دار الاندلس، بيروت، 1984. مقدمة المحقق، ص 13. لم نقف على ترجمة لجعفر في كتب التراجم، وقد ذكر محقق الكتاب تاريخين لوفاته، احدهما 347هـ و380هـ، وذكر بروكلمان ان جعفر كان داعية سنة 350هـ، والذي نميل اليه انه توفي سنة 380هـ. كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص 354/3.

(9) القرشي: المصدر السابق، ص 571.

(10) سيف الدين القصير: ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، دط، دار الينابيع، بيروت، لبنان، دت، ص 96.

(11) النعمان: اساس التأويل، تح: عارف تامر، دار الثقافة، بيروت، دت.مقدمة المحقق، ص 10.

(12) الجوذري ابو علي منصور: سيرة الاستاذ جوذر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تح: محمد حسين كامل وعبد الهادي شعيرة، دط، دار الفكر العربي، بيروت، دت، ص 36.

ابن الجزار 369 هـ/973م[1]، من الذين طرق تأليفهم ميادين مختلفة من العلوم، غير أنّ الذي نأسف له، أنّ أغلب ما ألّفه صنّف في عداد المفقود، إلّا كتاب "زاد المسافر" – الذي ألّفه للقائم–[2]، ورسالة "طب الفقراء"، التي ذكر الزّركليّ أنّها مخطوطة في متحف بغداد، وانه رآها عند زميل له في الرباط[3].

ذكر المترجمون لابن الجزار تآليف عديدة متنوعة، وبحكم مهنته التي اشتهر بها وهي الطب، فان اغلب تلك التّآليف، لم تخرج عن هذا الفنّ، عدا الذي شذّ عن القاعدة، حيث وقفنا على كتب ورسائل له في الفلسفة والتّاريخ، ولذالك دأب من ترجم له على نعته بالفيلسوف والمؤرّخ، فله في الطّب، "زاد المسافر"، و"ذمّ إخراج الدّمّ"، و"أسباب وباء مصر والحيلة في دفعه"، و"البغية"، وله في الفلسفة، "رسالة في النّفس"، وله في السيكولوجيا، "سياسة الصّبيان وتدبيرهم"[4].

الذي يهمّنا من ذلك كتابان مفقودان في التّاريخ، ذكر الصّفدي والزّركليّ منهما كتاب "التّعريف بصحيح التّاريخ" [5]، بينما ذكر له حاجي خليفة كتاب "أخبار الدّولة" [6].

كتاب "أخبار الدّولة" ويعرف أيضا بـ "التّعريف في أخبار إفريقيّة"، هذا الكتاب، أُلّف تأريخا لدولة أبي عبيد الله المهدي [7]، وغطّى به المؤلِّف فترة مهمّة من حياة الفاطميّين المغربيّة، امتدّت هذه الفترة الى حوالي 70 سنة، أي من الفتح، الى غاية 361هـ، فهو بذلك في مرتبة مهمّة ضمن مصادر الدّولة الفاطميّة، وفي فترة حسّاسة جدّا، هي تلك المتعلّقة بالبدايات.

ثالثا: الكتابة التاريخية بعد الفاطميين... الإرث والقطيعة

أفرز النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجريّ تاريخا وجغرافيا مغايرة لذلك الذي كان أيّان الفاطميّين، فقد شهد القرن رحيل الدّولة الفاطميّة إلى المشرق استكمالا لمشروعها الذي ينهد إلى العودة إلى الإقليم الرّابع –العراق– ذلك المشروع الذي قُبر على أسوار القاهرة.

الواقع الجديد في بلاد المغرب تميّز بعودة البربر لحكم المنطقة بتولّي الزيريّين الصّنهاجيّين حكم البلاد خلفاء عن الفاطميّين من عاصمتهم القيروان في المغرب الأدنى، وما لبث الأمر أن استحال المغرب الإسلاميّ مقسّما كما كان، فقد أورث الزّيريّون المغرب الأوسط أبناء عمومتهم الحماديّون الذين استأثروا فيما بعد بالمنطقة، وحكموها مستقلّين بعد حروب الاستقلال التي خاضها حماد مع ابن أخيه باديس ثمّ ابنه المعزّ من بعده، وبعد انتصاره عليه صفا له الجوّ فاتّخذ حمّاد عاصمة له هي القلعة التي نسبت له، ثمّ غيّر العاصمة إلى بجاية أين استكان له الحكم فيها.

---

[1] ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 237.

[2] بوبة مجاني: المرجع السابق، ص 31.

[3] الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص85.

[4] الذهبي: المصدر السابق، ج15، ص561. الصفدي: المصدر السابق، ج6، ص132. حاجي خليفة: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دت ج1، ص27. الزركلي: المرجع السابق، ج1، ص85.

[5] الصفدي: المصدر السابق، ج6، ص132، الزركلي: المرجع السابق، ج1، ص 85.

[6] حاجي خليفة: المرجع السابق، ج1، ص27.

[7] حاجي خليفة: المرجع السابق ، ج1، ص27.

وهناك في أقصى المغرب الإسلاميّ، برز الملثّمون اللّمتونيّون كقوّة نازعت الصّنهاجيّين حكم البلاد، غير أنّ هؤلاء حملوا مشروع توحيد بلاد المغرب، فأذعنت لهم أجزاؤه إلى غاية بجاية، في حين تمكّنوا من إنقاذ الأندلس واستخلاصها من قبضة النّصارى بعد موقعة الزّلّاقة الشهيرة 1087م.

مصمودة –القبيلة البربريّة – استحالت دولة هي الأخرى، فالدّولة الموحّديّة هي الجانب الحضاريّ لتلك القبيلة، حيث الامتداد الأفقيّ والعموديّ، حيث توحيد بلاد المغرب والأندلس تحت راية حكم واحدة، وإذا كان المرابطون قد اكتفوا بحدود وصلت إلى بجاية شرقا، بمعنى أنّهم لم يوحّدوا المغرب، فإنّ الموحّدين قد استغرقوا كل البلاد المغربيّة التي وصفتها مصادر الجغرافيا، الأمر الذي سينعكس على التّأليف التّاريخيّ الذي سيصبغ بالأيديولوجيا الموحّديّة – كما سيأتي بيانه–.

إنّ غرضنا من توصيف الواقع الجديد الذي كان نتاج رحيل الفاطميّين إلى مصر، إنّما هو الإشارة إلى إشكال المكان حال تتبُّعنا للاستوريوغرافيا المغربيّة خلال تلك القرون. الصعوبات تلك تتعلّق بتصنيف الكتابة التّاريخيّة جغرافيّا، فامتداد الدّول تارة وتقلّصها تارة أخرى جعل من إحصاء ما أُلّف عن دولة ما أمرا غاية في الصّعوبة، فتجد مؤرّخا عاش في عهد الموحدين يكتب عن الحمّاديّين والفاطميّين.

مسألة أخرى أفرزها الواقع الجديد تعلّقت بالوصل والقطيعة مع الإرث الإسماعيليّ، فالكتابة التّاريخيّة في ظلّ الإمارة الزّيريّة ظلّت وفيّة للخطّ الإسماعيليّ إلى غاية القطيعة التي جسّدها حمّاد بن بلكين سنة 405هـ/، ومن بعده المعزّ بن باديس الصّنهاجيّ سنة 440هـ اللذان أعلنا تخلّيهما عن المذهب الشّيعيّ، وتحوّلهما إلى المذهب المالكيّ، هذا التّحوّل الذي حمل معه توجّها جديدا للكتابة التّاريخيّة التي نزعت نحو التّأريخ للسّلالة الصّنهاجيّة الزّيريّة الباديسيّة –خصوصا– والتّخلّي عن التأريخ للفاطميّين.

ويمكن القول أنّ الكتابة التّاريخيّة في الدّولة الزّيريّة قد عرفت ثلاث اتّجاهات كبرى شكّلت ميادين خصبة للتّأليف:

اتّجاه الكتابات المنقبيّة الذي اهتمّ بعرض مآثر العلماء والصّلحاء في البلاد المغربيّة، ونذكر في هذا الصّدد ما كتبه التّجيبيّ أبو بكر عتيق بن خلف (ت 422 هـ/ 1031م)، الذي وصفه الدّباغ بالمؤرّخ، وقد ألّف كتابا مفقودا وسمه بـ "الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وما تعلّق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار"[1]، فقد كان معتمد من جاء بعده من المؤرخين أمثال ابن الأبّار ومحمّد بن علي التّوزريّ.

ضمن الإطار نفسه كتب الاجدابيّ أبو عبد الله الحسين (ت 432هـ/ 1040م) في مناقب العلماء والصّلحاء حتّى اشتهر بهذا الفنّ من الكتابة، وأرّخ لمناقب أبي ربيع القطّان، وأبو الفضل الممسيّ، وأبو إسحاق السّبائيّ، وأبو مروان عبد الملك بن نصر، التّراجم الثّلاثة الأولى استغرقهم المالكيّ بتراجم وافية في رياضه اعتمادا على شيخه الاجدابيّ[2].

---

[1] **الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص158. المالكي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج1، ص17. لطيفة بنت محمد البسام: الحياة العلمية في افريقية في بني زيري، دط، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، السعودية، 2001، ص 201.**

[2] **المالكي: مصدر سابق، مقدمة المحقق، ج1، ص18. القاضي عياض: المصدر السابق، 100،101. لطيفة بسام: المرجع السابق، ص 201.**

وممّن ألّف في المناقب أيضا والد المالكي صاحب "الرياض" أبو عبد الله محمد بن عبد الله المالكي (ت 444هـ/ 1052م) الذي عدّد مناقب محرز بن خلف، واللّبيديّ أبو القاسم عبد الرحمن (ت 440هـ/ 1048م)، الذي صنّف عن مناقب شيخه أبا الجبنيانيّ، وقد استقصى في مؤلّفه ذاك نبذا مهمّة عن صلحاء إفريقيّة وأحوالهم[1].

الاتجاه الآخر مثّله إبراهيم بن القاسم الرّقيق القيروانيّ[2] (ت حوالي 425هـ/ 1034م)[3] "مؤرّخ إفريقيّة"[4] الذي اشتهر بعلم التاريخ وكتابة الأخبار[5]، وله من التّآليف ما جعله يصنّف ضمن المؤرّخين الأغزر تأليفا، وقد تفرّد بالكتابة في التاريخ المحلي في المنطقة مؤلفه "تاريخ افريقية والمغرب"[6]، هذا الكتاب الذي يعدُّ مرجعا في تاريخ المغرب من الفتح الى الدّولة الأغلبية، ونظرا للوهن الذي أصاب الكتابة التاريخية في تلك الفترة فقد اشتغل من جاء بعده في تذييل "تاريخ افريقية" على يد العديد ممّن وصفهم ابن خلدون بالمقلّدين، أشهرهم أمية بن الصّلت في ذيله "الديباجة في مفاخر صنهاجة"، ولولا أن "تاريخ افريقية" مفقود جلّه لأصبح موسوعة في تاريخ المنطقة، أليس مؤلّفا من عشرة أجزاء[7] لم تصلنا منه إلاّ قطعة صغيرة حافلة بأحداث الفتح وعصر الولّاة الى الأغالبة؟ ألم يُثن على تاريخ الرّقيق علماء كثر[8]؟.

ومع ذلك فإنّ الرّقيق يُعدّ إرهاصا حقيقيّا لنشأة مدرسة تاريخيّة قيروانيّة وئدت بموته، فمنهجه في كتابة التّاريخ أبان عن علوّ كعبه في تلك الفترة، فقد كان يمتلك أدوات المؤرّخ حيث تفسير وتعليل التاريخ –كما حدث مع أسباب ثورات البربر– إضافة الى وقوفه على تفاصيل تلك الثورات وبيان مواقعها والإحاطة بها إحاطة واقعية بعيدة عن الميثولوجيا

---

(1) المالكي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج1، ص18. الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص172. لطيفة بسام: المرجع السابق، ص 201.

(2) اختلف في كنيته "الرقيق" ام "ابن الرقيق" على مذاهب، مجموعة من المؤرخين تعتمد "الرقيق" لقبا. انظر: ابن سعيد الاندلسي وآخرون: المغرب في حلى المغرب، ج1، تح: شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، مصر، 1978، ص188. ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص2–7. المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، ج3، تح: احسان عباس، ط2، دار صادر، لبنان، 1997، ص 132. التجاني، ومجموعة أخرى اعتمدت "ابن الرقيق" لقبا. انظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تح: سعيد محمود عقيل، ط1، دار الجيل، بيروت، 2005،ص 09، الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب، ج10، تح: محمد حجي وآخرين، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1981، ص 123. السخاوي شمس الدين: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ، تح: فرانز روزنتال، تر: د.صالح احمد العلي، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1986، ص 236. ياقوت الحموي الرومي: معجم الادباء ارشاد الاريب الى معرفة الاديب، ج1، تح: احسان عباس، ط1، دار الرب الاسلامي، لبنان، 1993، ص 97.

(3) حسن حسني عبد الوهاب: العمر في الممصنفات والمؤلفين التونسيين، ج2، تر: محمد العروسي المطوي،بشير البكوش، ط1، دار الغرب، لبنان، 2005، ص 407–418.

(4) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص 09.

Histoire des Berbéres et des dynasties musulmanes de l'Afrique du " Le Baron de Slane: , **Librairie orientalisre**, **paul gueuthner**, 184, **vol 1**, 292."**Nord**

(5) حسن بن رشيق القيرواني: انموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 55.

(6) سعد الله: المرجع السابق، س 1، ج2، ص 422.

(7) علاوة عمارة: المرجع السابق، ص 160. علاوة عمارة: الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التّاريخي المغربي، ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد 25، المملكة المغربية، 2003، ص 140.

(8) ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب، تح: محمد بن شقرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 199، ص 352. السخاوي: المصدر السابق، ص 181.

التي وسمت كتب المتقدّمين أحيانا، هذا ويمكن استجلاء تاريخيّة الرّقيق في السّرديّة التي يصاحبها استدلال بالشواهد والمصادر التي كان يذكرها كلما استدعى الموقف ذلك، وهذه هي الأمانة والموضوعية التي هي من سمات المؤرّخ، تلك الصّفات مجتمعة منحته المكانة التي عبّر عنها ابن خلدون بوصفه الرّقيق بـ "المؤرّخ" والتي لم يحظ بها من كان قبله، والتي لم يرق إليها من جاء بعده حيث الاهتمام بالتّذييل والاقتباس.

وبهذا الصّدد نذكر ذيل محمد ابن شرف (ت 460هـ/1071م) على تاريخ الرّقيق، حيث أكمل سرد أحداث تاريخ المغرب الى غاية 445هـ/1053م وهو العمل الذي سيكمله من بعده ولده، ثمّ أميّة بن عبد العزيز بن الصّلت (ت 529هـ/1134م) صاحب "الديباجة في مفاخر صنهاجة"[1] الذي يدلّ على التوجّه الجديد للدّولة الصّنهاجيّة التي أعلنت القطيعة مع الموروث الإسماعيليّ، ومعه كان التّحوّل في الكتابة التّاريخيّة من الأيديولوجيا المذهبيّة إلى الأيديولوجيا السياسيّة والأسريّة، ومن خدمة المذهب إلى خدمة الدّولة.

الواقع السياسي الجديد الذي افرزه سقوط المهديّة بيد النّورمان، كان له انعكاس على حركة التذييل التي كانت تنهد إلى كتابة تاريخ جامع للمغرب، ذلك العمل الذي سيكمله ابن شداد الصّنهاجي في كتابه "الجمع والبيان في أخبار القيروان ومن فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأيّام"[2].

الكتاب كُتب سنة 597هـ/1200م، وبهذا سأحيد عن منهجي الكرونولوجي الذي التزمته خلال تحريري للأطروحة، وسأتخطّى حدود الزّمن –استثناء– إلى القرن السادس –حيث الموحّدون وابن حمّاد– حتى أحافظ على التّسلسل الموضوعي لحركة التّأليف في العهد الزّيري، وقد أبان عن توّجه واضح نحو الماضي الصّنهاجي، وهو أمر ليس بالغريب، فابن شدّاد من الأسرة الزّيريّة التي حكمت المنطقة، وهو ما يجعله يخالط الأيديولوجيا النّاشئة من الحنين لأجداده الصّنهاجيّين، وتقلّصت دائرة اهتمامه بصنهاجة إلى الفرع الباديسيّ بعد استقلال الحماديّين بالمغرب الأوسط[3].

استطاع ابن شدّاد أن يغطّي مرحلة هامّة طويلة من تاريخ بلاد المغرب، الأمر الذي جعله كتابا استوعب بلاد المغرب تاريخا وجغرافيا، وأضحى بذلك مرجعا للمشارقة عن تاريخ المنطقة، وإذا كان الكتاب مفقودا فإنّه قد شكّل مادّة تاريخيّة لمن جاء بعده، ومنه تمّ إبراز تاريخيّة ابن شدّاد من خلال تلك النّقولات[4].

لم ترق الكتابة التّاريخيّة لدى الحمّاديّين إلى المستوى الذي عرفته أيّام الزّيريّين، وعلى الرّغم من الامتزاج الثّقافيّ الذي شهدته بجاية العاصمة الثانية للحمّاديّين، نتيجة الهجرة الأندلسيّة نحو بجاية، إلّا أنّ التّأريخ هناك بقي متواضعا بسبب الصّراع مع بني هلال.

وضمن هذا الإطار –وخارج حدود الكرونولوجيا التي التزمتها منهجا– يمكن أن نشير إلى تأليفين للابن حمّاد الصّنهاجيّ (ت628هـ/1232م)، وعلى الرّغم من كونه خارج زمن دولة أجداده، إلّا أنّنا نستطيع من خلالهما استجلاء توجّه الكتابة التّاريخيّة في الواقع السياسيّ الجديد، الذي لم يختلف عن سابقيه.

---

[1] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص740. علاوة عمارة: دراسات، ص 161.

[2] سعد الله: المرجع السابق، ج2، ص422. علاوة عمارة،ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط، ضمن مجلة التاريخ العربي، ،المملكة المغربية، العدد 95، 2002م، ص 78. ذكره حاجي خليفة تحت عنوان "اخبار القيروان" حاجي خليفة: المرجع السابق، ج1، ص29.

[3] علاوة عمارة: دراسات، ص 83.

[4] علاوة عمارة: ابن شداد، ص 85.

المؤلّف الأوّل بعنوان "النُّبَذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية"[1]، وهو كتاب مفقود نشر ليفي بروفنصال نتفا منه في كتابه "مختارات تاريخية في أخبار البربر"، ونستطيع أن نستجلي من عنوانه عودة التّأريخ المحلّي السلالاتي[2]، انتصر فيه ابن حمّاد لقبيلته، حيث تتبّع فيه نسب قبيلته صنهاجة، ولغزارة مادّته اعتمده ابن خلدون عند التّأريخ للبربر.

المؤلَّف الثّاني هو "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم"[3]، هذا الكتاب الذي رأيته كُتب بروح المؤرّخ باعتقادي فابن حمّاد المالكيّ قد أنصف الفاطميّين، حيث أورد مناقبهم[4] -بدءا بإثبات اتصالهم بآل البيت- إلى انتصاراتهم التي خلّدها في كتابه، في حين أنّه أبان مثالبهم ولعلّ نسبته لهم ببني عبيد يدلّ على ذلك.

التّأليف في كتاب "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" كان على منهج التّراجم، وطريقة التّأريخ فيه للأحداث كانت تقليديّة لم تختلف عمّا سبق من تآليف، يضاف إلى ذلك التّركيز على مناقب ملوك الفاطميّين في بلاد المغرب، وهو ما يّعيد إلى الذّهن حكاية الكتابات البلاطيّة وإن في زمن متأخر عنهم.

في علم التّاريخ -وفي الفترة الحمّاديّة دائما- نذكر النّهشلي (ت 405هـ /1014م) عالم العرب وأيامها وقد أخذ عنه ابن رشيق في الشعر، ويبدو أنّ مؤلّفاته قد حوت مادّة تاريخيّة غزيرة مهمّة عن المنطقة وتاريخها، كيف لا، وهو الذي اشتغل في ديوان الخراج والإنشاء؟[5].

وقد حمل القرن الخامس الهجريّ تغييرات على مستوى التّاريخ والجغرافيا، تلك التّغييرات التي أعادت الأندلس إلى حاضرة المغرب بعد معركة الزّلّاقة الشّهيرة 479هـ/1087م التي تمثّل بداية مرحلة مهمّة من تاريخ المنطقة، تُوِّجت على إثرها ببزوغ نجم المرابطين، الذين أعادوا ترتيب البيت الأندلسيّ بإنهاء عهد الطّوائف، وإعادة "توحيد" المنطقة تحت حكم واحد.

واقع الكتابة التّاريخية الجديد لم يكن على القدر من الازدهار الذي أفرزته الأحداث السّياسيّة في تلك المنطقة، ذلك أنّ حركة التّأليف لم تجار حركة التّاريخ، ومالت كفّة التّأليف إلى الفقه، ممّا يعيد إلى الذّهن العلاقة الأزليّة بين السلطة والفكر، فالتّوجه الجديد لحركة التّأليف فرضه "دستور" الدّولة المرابطيّة، الذي لا سبيل فيه للاجتهاد أو الاستنباط في الدّين، الأمر الذي يبدو أنّه انسحب على التّاريخ، ولذلك لم تحظ لحركة التّدوين التّاريخيّ بالتّشجيع من أمراء المرابطين مثل الذي شهدته في عهد الطّوائف.

وبناء عليه فإنّ الوهن يكون قد أصاب الكتابة التّاريخيّة في العهد المرابطيّ حوّرها بشكل فاضح نحو الأدب وتوِّجت المرحلة تلك بظهور الببليوغرافيا الأدبية، حيث التّراجم والطّبقات، ويبدو أنّ حكاية التّذييل ستتكرّر وستستمرّ

---

[1] **الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، دار الآفاق، لبنان، 1989، ص 220.**

[2] **سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج2، ص382.**

[3] **مجهول: مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، ط1، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، 2005، ص158.**

[4] **سعد الله: المرجع السابق، ج2، ص380.**

[5] **محمد محفوظ: المرجع السابق، ج5، ص47. رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، طبعة خاصة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 198-199.**

إلى العهد الموحّديّ، لتعيد إلى الذّهن فكرة التّقليد التي أشار إليها ابن خلدون، وتؤكّد أفول الجدّة التي انتهت مع ابن حيّان في الأندلس، والرّقيق في المغرب.

مؤرّخ بارز في الكتابة التّاريخيّة المرابطيّة هو المالكيّ (ت بعد 453هـ/ 1063م)[1] الذي سلك اتّجاه التّأريخ الطّبقيّ من خلال مؤلّفه "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم"، فالكتاب – إضافة إلى القيمة الفقهيّة – يُعدّ مصدرا تاريخيّا قيّما لمن أراد تاريخ القيروان في الفترة المذكورة سلفا ذلك أنّه يستقصي جوانب الحياة القيروانية على جميع الأصعدة، ويستفرد بالتّأريخ للأربطة والعبّاد والزّهاد والصّلحاء[2].

يمكن أن نشير هنا إلى مصنف ابن الصيرفي أبو بكر يحي الغرناطي (ت558هـ/1174م) مؤرّخ المرابطين عن "أخبار دولة لمتونة" أصل المرابطين[3]، وما كتبه عن "تقصي الأنباء وسياسة الرؤساء"[4] وهو كتاب مفقود.

كتاب "أخبار دولة لمتونة" هو نفسه "الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطيّة"[5]، ويندرج ضمن "التّواريخ الأسريّة"، ذلك أنّه اهتمّ بالتّأريخ لأسرة بن تاشفين التي حكمت المغرب، مزاوجا بين المنهج على الموضوعات وعلى السّنون، ويتعداه الى التراجم عند ذكر لحكام المرابطين.

غير ذلك ممّا قد وصلنا من كتابات المرابطين يمكن إدراجه تحت إطار الأدب التّاريخيّ، هذا النّموذج عبّر عنه الفتح بن خاقان الإشبيليّ (ت529هـ/1134م) في مؤلفه "قلائد العقيان في محاسن الأعيان"[6].

ضمن إطار التّراجم –دائما– كتب ابن بسّام الشنتريني (ت 542هـ/1147م) "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، عند عدّه لمحاسن أهل الأندلس، ويبدو أنّ ابن بسّام قد أكمل تعداد محاسن القطر أيام الطوائف والمرابطين، فقد كتب ابن فرج الجيّانيّ (ت حوالي366هـ/977م)[7] في محاسن الدّولة المروانيّة "كتاب الحدائق" للحاكم المستنصر، ممّا حمل ابن بسام على عدم ذكر محاسن تلك الفترة.

---

[1] الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص190.

[2] يوسف بن احمد حوالة: المرجع السابق، ج 2، ص367.

[3] احمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج6، تح: مريم قاسم الطويل ويوسف علي طويل، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت، ص159. انخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، تر: حسين مؤنس، دط، مكبة الثقافة الدينية، مصر، دت، ص 241. وذكره صاحب الحلل الموشية باسم ابي زكرياء، انظر: مجهول: الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1979، ص 124. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج4، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1993، ص116.

[4] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في اخبار غرناطة، ج4، تح: محمد عبد الله عنان، ط1، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1988، ص407.

[5] العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام، ج1، مرا: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1993، ص149. محمد علي دبور: المؤرّخ ابن الصيرفيّ وكتابه الانوار الجليّة في أخبار الدّولة المرابطية، ص 16.

[6] أبو نصر الفتح بن خاقان الاشبيلي: قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، تح: حسين يوسف خريوش، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989، مقدمة المحقق، ص 12. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص2163–2164. لسان االدين بن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص250.

[7] انظر ترجمته في: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص473.

ترجم ابن بسام لأهل الأندلس، واتبع فيه منهجا قوامه "القطريّة" فتراه رتّب أعيان القطر الواحد جمعا دون تخصيص[1]، أي دون مراعاة المكانة السّياسيّة، وعند استغراقه المنطقة ينتقل إلى منطقة أخرى وهكذا.

من النّتاج الأدبي التّاريخيّ تراجم القاضي عياض لعلماء المغرب والأندلس في مؤلّفين منفصلين، الأوّل هو كتاب "الغنية"، وهو فهرس استقصى فيه أساتذته الذين روى عنهم مشافهة أو مكاتبة، ويبلغ مجموع من ترجم لهم حوالي مائة شيخ[2].

أمّا الثاني وهو "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعيان مذهب مالك"، فإنّه في الرّجال الملتزمين مذهب مالك، وقد اوردهم في 1569 ترجمة.

فن الكتابة في الأدب التّاريخيّ سينتهي بنهاية الدّولة الحاكمة "المرابطيّة"، كونه يؤرّخ لمحاسن الأمراء ويكتب بأمرهم، وسنرى أنّه سيستمرّ بعد ذلك مع الموحّدين[3].

استمراريّة التّأليف في ذلك الفنّ جاءت بمقاربة جديدة تهدف إلى استقصاء علماء وفقهاء القطر، وإذا كان هذا النّوع من التّأليف له امتداد تاريخيّ من ابن الفرضي (ت403هـ/1013م)، فإنّنا سنلاحظ أنّه استجدّ في صورة الذّيول التي وضعت على كتابه "تاريخ الفقهاء والقضاة"[4].

بقي أن نشير أخيرا إلى المؤلّفات الجغرافيّة التّاريخية التي نالت حظّا من التّأليف، ونذكر هنا ما ضمّنه أبو عبيد البكريّ (487هـ/1094م) في "مسالكه وممالكه"، هذا الفنّ الذي يبدو أنّه سيعرف غيبة إلى غاية إعادة إحياءه مع الإدريسيّ في "نزهة المشتاق" بدافع من الملوك مرّة أخرى.

بالنّسبة لمؤرّخي الإباضيّة، فقد كان اهتمامهم منصبّا على تدوين السير، حيث التطوّر الحاصل على منهج الطبقات، ويمكن أن ندلّل هنا بما دوّنه أبو الربيع سليمان المزراتيّ (ت 471هـ/1078م) صاحب "السير"، وهو معتمد أبي زكرياء يحي الوارجلاني (ت بعد 474هـ/1081م) في مؤلّفه "سير وأخبار الأئمّة"، الذي عالج فيه انتشار المذهب الاباضيّ في بلاد المغرب الاسلاميّ، وأحوال أهله في المغربين الأوسط والأدنى[5].

الكتابة في حقل السير ستستمر مع الوسياني أبي الربيع سليمان (ت بعد 557هـ/1161م) في مؤلَّفه "السير"، أو المسمّى "سير الوسيانيّ"[6]، ذكر فيها ثلّة من علماء أجلاء من المذهب.

استمرّت الكتابة على حقل السير مع البغطوريّ (حي سنة 599هـ/1203م) صاحب السير المعنونة بـ "روايات الاشياخ اشياخ جبل نفّوسة"[1]، وكما يبدو من عنوانه، فهو استقصاء لعلماء جبل نفّوسة، وغور لجذورهم من

---

[1] انخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص 290.

[2] محمد المنوني: المرجع السابق، ص 29.

[3] علاوة عمارة: دراسات، ص 177.

[4] نفسه، ص 177.

[5] تاديوس ليفيتسكي: مرجع سابق ص 62–63. البغطوري مقرين بن محمد: روايات الأشياخ، تح: عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، ط1، مكتبة خزائن الآثار، عمان، 2017، ص 20.

[6] الوسياني سليمان بن عبد السلام: سير الوسياني، تح: عمر بن لقمان بوعصبانة، ط1، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2009، ج1، ص 136.

علماء المشرق، وحملة العلم، معرّجا على سكناهم وقبائلهم[2]، غير أنّه لم يستغرق فترة صدر الاسلام كونه فترة أخذت حقّها من الكتابة[3].

وعلى منهج الطبقات، ألّف الدرجينيّ (ت بعد 670هـ/1271م) "طبقات المشايخ بالمغرب"، وهو كتاب من جزأين، واحد للتاريخ، والآخر للسّيرة، وهو تهذيب لسير الوارجلانيّ[4]، يزيد عنه باستدراكه للمشايخ الاباضيّة الذين عاشوا بعده، سالكا فيه مسلك الطبقات، حيث كلّ طبقة من 50 سنة، وقد ذكر أنّه استثنى الطبقة الأولى من الصّحابة لشهرتهم[5].

الطبقة الاولى التي تجنّبها الدرجينيّ، خاضها البرّاديّ (حي 09هـ/15م) في "جواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات"[6]، مستغرقا أخبار الطبقة الأولى من الصحابة، وكان له من الجرأة[7] ما جعله يذكر الفتن، ويعالج جوابات الاباضيّة[8].

وسيستمرّ خطّ السير على الشاكلة نفسها مع الشمّاخيّ (ت بعد 840هـ/1436م) في كتابه "السير" ذا المحتوى التراجميّ لعلماء المذهب[9]، مع تقديم بذكر سيرة النبيّ ρ والصحابة، ثمّ طبقة التابعين، فتابعي التابعين فرجال المذهب[10]، وهكذا.

تحصيلا، فإنّ الكتابة التاريخيّة الاباضيّة قد عرفت تطوّرا منهجيّا رافق حقل السير، وهو منهج الطبقات الذي يناسب حقل التراجم، وهو المنهج الذي برع فيه مؤرّخو الاباضية.

عرف النصف الأوّل من القرن السّادس الهجريّ حدثا بارزا أسهم بقسط وافر في تحريك الكتابة التّاريخيّة التي عرفت ازدهارا، الحدث هو ظهور الدّولة الموحّديّة التي حملت معها ظروف الانتعاش، ولعلّي هنا أقصد سببين لهما علاقة مباشرة بالذي حدث من ازدهار للكتابة التّاريخيّة، الأول هو ابن تومرت "مهديّ" الزّمان ومصلحه والثّاني هو رفع القيود على العقل، تلك القيود التي فرضها سلطان المرابطين على الفكر عموما.

---

(1) البغطوري مقرين بن محمد: روايات الاشياخ اشياخ جبل نفوسة، تح: عمر بن لقمان بوعصبانة، ط1، مكتبة خزائن الآثار، سلطنة عمان، 2017، ص 93.

(2) نفسه، ص 94 وما بعدها.

(3) نفسه: مقدّمة المحقّق، ص 67.

(4) الدرجيني احمد بن سعيد: طبقات المشايخ بالمغرب، تح: ابراهيم طلاي، ج01، ص 03.

(5) نفسه: ج01، ص 06. ويذكر البرّادي أن سبب تغافله عن تلك الطبقة هو أن الدرجيني تحفظ عن ذكر تلك الفتن كونه في بيئة معادية. انظر: البرّادي: مصدر سابق، ص 11–66.

(6) البرّادي: مصدر سابق، ص 11.

(7) نفسه، ، ص 11.

(8) نفسه، ص 11.

(9) الشمّاخيّ احمد بن سعيد: مصدر سابق، مقدّمة المحقّق، ص و.

(10) نفسه، ، ص 78 وما بعدها.

ونظرا لغزارة التّأليف في ذلك العهد أراني سأقتصر على ذكر نماذج من التّآليف التي لها علاقة مباشرة بموضوع دراستي، وسأحاول في مقاربة بسيطة الإلماح إلى تأثير شخصيّة ابن تومرت وخلفائه في التّأليف، وإلى ظاهرة التّذييل التي استُدركت على التّراجم السّابقة.

شخصيّة "المهديّ" ابن تومرت ودولته شكّلتا موضوعا للتّدوين التّاريخيّ الذي ابتدأه البيذق أبو بكر بن عليّ الصّنهاجي (ت 555هـ/1160م)، في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين"، كما نجده قد ألّف أيضا في الأنساب كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب".

الكتاب الأوّل قيّم جدّا من جهتين، الجهة الأولى كون صاحبه رفيق مؤسّسي الدّولة الموحّديّة، وبذلك نجده فيه من التّفاصيل ما لا يتوفر في غيره، فقد استرسل في ذكر الدّعوة ابتداء من دخول المهديّ بلاد المغرب، ثمّ عرّج على مرحلة الدّولة ابتداء من تكريس الحكم الموحّديّ في المنطقة، والتّعصّب لهم[1].

الكتاب الثّاني عنوانه "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، وهو-كما يدلّ عنوانه- مقتطفات من كتاب "انساب البربر" -المفقود- للورّاق، وعبد الحقّ بن إبراهيم الصّنهاجي[2]، ضمّنه صاحبه نسب ابن تومرت "الشّريف" الله عليه وسلم، واستقصى القبائل التي ساندته.

ضمن الإطار نفسه -شخصيّة ابن تومرت وخلفاؤه- ألّف عبد الملك بن صاحب الصّلاة[3] "كتاب تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين وظهور المهديّ بالموحّدين على الملثّمين، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام أمير المؤمنين وأخير الخلفاء الرّاشدين"، ومن غير جهد سنخلص إلى مغزى الكتاب وسبب تأليفه، فهو يحكي عدل الله في سوق الإمامة للموحّدين، ويتطرّق إلى سبب ذلك بأنّه تدوين "أخبار ابي يعقوب الخليفة الهمام"[4]، وهو كما نرى مؤلّف سلطانيّ أثّرت فيه شخصيّة حاكمة.

المؤلّف ذاك، أضحى مرجعا لمن جاء بعده في حكاية تاريخ الموحّدين، فقد نقل عنه المقرّيّ في "النّفح" والجزنائي في "زهر الآس"، وابن ابي زرع[5] وغيرهم.

وتحت تأثير الخلفاء والدّولة في الكتابة التّاريخيّة نجد مؤلّفات أخرى عبّر أصحابها عن إيديولوجية موحّديّة جسّد ذلك أبو الحسن عليّ الرّوحيّ (ت576هـ/1180م) في كتابه "بغية الظّرفاء في أخبار الخلفاء"، وابن الكردبوس عبد

---

[1] البيذق أبو بكر الصنهاجي: اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تح: عبد الوهاب منصور، دط، دار المنصور، المغرب، 1971 مقدمة المحقق، ص 05. أيضا: البيذق أبو بكر الصنهاجي: الأنساب في معرفة الأصحاب، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، دار المنصور، المغرب، 1971، مقدمة المحقق، ص 06.

[2] البيذق: الانساب، ص 14. بالنسبة لعبد الحق لم نعثر له على ترجمة.

[3] سمي بان صاحب الصلاة لان اباه كان يؤم الناس في الصلاة. انظر: عبد الملك بن صاحب الصلاة: المن بالامامة، تح: عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1987، مقدمة المحقق، ص 08.

[4] ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص 289.

[5] ابن ابي زرع الفاسي: الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دط، صور للطباعة والنشر، المغرب، 1972، ص181.

الملك بن ابي القاسم (حي سنة 594هـ/1157م) في "الاكتفاء في أخبار الخلفاء"، الكتابان على منهج التّاريخ العامّ يسترسلان السّيرة النّبويّة، ثمّ يتخصّصان في دولة الموحّدين.

هذا، وتجدر الإشارة إلى ما ألّفه ابن القطّان المرّاكشي (ق 7هـ/13م) في بلاد المشرق "نظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان" في ستة أجزاء لم ينج منها إلّا الجزء الأخير، وقد كتبه مؤلّفه تزلّفا للخليفة الموحّديّ المرتضى[1]، وضمّنه أخبار المهديّ بن تومرت ورحلته، وأهم أحداث الفترة الموحّديّة، مسترسلا فيها مستقصيا، إلى غاية سنة 533م.

ظاهرة التّذييل بدأت مع خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (ت578هـ/1183م) الذي كتب المسند التّاريخيّ[2] "كتاب الصّلة في تاريخ أئمّة الأندلس" أكمل به تاريخ ابن الفرضي[3]، ضمّنه الفقهاء والقضاة وأهل الأدب، فهو "في فنّه خطير القيمة ضروريّ الاستعمال"، لا غنى عنه لمن يريد تراجم رجال الأندلس.

ضمن إطار الفهرسة نذكر "فهرسة ابن خير الإشبيلي" (ت558هـ/ 1162م) وهو أحد المصادر التي ضمّت أسماء شيوخه ممّن أجازوه مرتّبين حسب البلدان[4]، وأسماء وصفة كتبهم، والطريقة التي تحمّله فيها[5] وتأتّت قيمته من غزارة فهرسته وغناها، ما يشكّل مادّة تاريخيّة للباحث في تاريخ المنطقة والفترة.

---

[1] **ابن القطان المرّاكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان، تح: د.علي مكي،ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1990، مقدمة المحقق، ص 27.**

[2] **ابن الابار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ط1، دار الكتاب، المصري، مصر، 1989، ص91.**

[3] **انخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص 273. علاوة عمارة: دراسات، ص 177.**

[4] **محمد المنوني: المرجع السابق، ص 46.**

[5] **ابن خير الاشبيلي: المصدر السابق، ص 12.**

الفصل الثاني: اتّجاهات ومناهج التّدوين التاريخي ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 8هـ-9هـ/14-15م

مدخل:

أوّلا: التّاريخ العامّ

ثانيا: التاريخ المحليّ .. الدّول والمدن (التاريخ السياسي)

ثالثا: التّراجم ..السّير والمناقب الصّوفيّة

رابعا: أدب الرحلة

الفصل الثاني: اتّجاهات ومناهج التّدوين التاريخي ببلاد المغرب الإسلامي (08هـ-09هـ/14-15م)

توطئة:

لم يكن المغاربة بدعا من المؤرّخين في كتابة تاريخهم، ولم يستقلّوا بمناهج تمنحهم خصوصيّة على باقي البلاد الإسلاميّة، وإنّما هم في ذلك على التّقليد، والسّير على مناهج من سبقهم، شأنهم في ذلك شأن غيرهم.

وبهذا الصّدد، يمكن أن ننوّه إلى أنّ مغاربة القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين قد طرقوا أبواب التّأريخ واستغرقوا حقول الكتابة التّأريخيّة جلّها، وممّا تجدر الإشارة إليه سيطرة الكتابات على التّراجم، والتّاريخ المحلّيّ -تاريخ الدّول-، والرّحلة، على التّأليف التّأريخيّ.

وقد أشار إلى ذلك الدّكتور أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثّقافيّ، حينما وضع فصلا عن تراث القرن التّاسع الهجريّ، ووسمه بأنّه "من أوفر إنتاج الجزائر الثّقافيّ"، وإذا كان كتابه مقتصرا على جمع إرث الجزائر، فإنّ المطّلع على كتابه يدرك أنّ الرّجل يريد لملمة ذلك التّراث التّاريخيّ بحدود جغرافيا الجزائر المعاصرة، وبالتّالي فإنّه سيستقصي نتاج الجزائريين عبر العصور التّاريخيّة الماضية بحدود الجزائر اليوم.

وعليه، فإنّ حكم الدكتور سعد الله ذاك يجعله ينسحب على بلاد المغرب كلّها -أو على الأقلّ جلّها- ذلك أنّ جغرافيا الجزائر المعاصرة، تشمل أجزاء ممّا كان يسمّى المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، فالحدود كانت تخضع للغلبة لا للقوانين والمواثيق.

ما يمكن الخلوص إليه أنّ اتّجاهات الكتابة التّاريخيّة في المنطقة خلال الزّمن نفسه تعبّر عن خصوبة التّأليف التّاريخيّ فيها، وما غلبة الكتابة في التّراجم والرّحلة على التّآليف إلّا انعكاس للواقع الذي ميّز الفترة حيث الوضع السّياسيّ المضطرب للدّول النّاشئة، ممّا حمل العلماء على الرّحلة طوعا أو كرها، وحيث الاهتمام بالأنساب والرّجال من مقتضيات التوجّه الصوفي في الاعتناء بمناقب أهله من جهة، وما اقتضتها مسألة الشرف التي اشتغل بها الفكر ونالها التأليف لارتباطها السياسي من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة ما اقتضاه الاهتمام بالبيوتات العلمية وأعلام الفقه والعلم.

هذا فيما تعلّق بحقول التّأليف التّاريخيّ، أمّا في الشّقّ المتعلّق بالمنهج، فإنّ أولى الملاحظات التي استوقفتني هي استغراق مورّخي الفترة لجلّ مناهج التّدوين التّاريخيّ وقتذاك، ذلك أنّهم ألّفوا على الطّبقات، وعلى السّنون، وعلى الأحداث، ثمّ هم قد زاوجوا بين المنهجين فألفوا على المنهج الحدثيّ - الحوليّ، بل قد أبدع منهم الخزاعيّ الذي استقلّ بمنهج لم يُسبق إليه -كما سيأتي بيانه-.

كما يجب أن ألمح إلى نقطة أخرى ضمن هذه التّوطئة وهي أنّ مسار الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب خلال القرنين المذكورين سيعرف انتقال المعرفة التّاريخية من الأندلس إلى المغرب[1]، الأمر الذي سيمنح الكتابة التّاريخيّة هناك زخما بفعل التأثّر والتفاعل، بعد استقرار الوافدين الجدد على أرض المغرب.

أخيرا، تجدر الإشارة إلى أنّ تتبّعي لمسار الكتابة التّاريخيّة -كاستمراريّة للفصل السّابق- لا ينهد إلى إحصاء ما أُلّف عن المنطقة وجرده، ولا إلى استغراق ما أُلِّف حول المنطقة من خارجها، فذلك قد يحيل البحث عملا بيبليوغرافيّا

---

[1] علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، ص 167.

صرفا، يُخلُّ بالمقصود، وإنّما المعول عليه هنا الحديث عن نماذج اختيرت ممّن كانت وفاته ببلاد المغرب فحسب، من أجل أن أدلّل على تنوّع الاتّجاهات التي عرفها التّأليف التّاريخيّ خلال القرنين المدروسين، والكلام على مناهج التّدوين فيها.

أوّلا: التّاريخ العامّ

هذا النّوع من كتابة التّاريخ في بلاد المغرب مردّه إلى القرن الثّالث الهجريّ، حيث ابن سحنون، وأبو عبد الملك الملشوني، وسليمان بن عصفور وغيرهم، ولولا أنّ ما ألّفه أولئك مفقود في غالبه لفاق المغاربة نظراءهم المشارقة في أسبقيّة كتابة التّاريخ العامّ.

ملاحظة أولى على تلك التّآليف، تجعلنا ندرك أنّ المغاربة أسبق -أو على الأقلّ- بنفس الرتبة في ميدان النّتاج التّاريخيّ العامّ، ألا ترى أنّ ابن سحنون -مثلا- على نفس الفترة مع البلاذريّ (ت277هـ/892م) واليعقوبيّ (ت284هـ/897م)، وأقدم كرونولوجيا من الطّبريّ (ت 310هـ/922م) وابن الأثير (ت 774هـ/1373م)؟

هذا النّموذج من الكتابة التّاريخيّة يتّسم بشمولية وعالميّة موضوعاته[1]، وهو عادة ما يخرج عن دائرة القطريّة في سرديّته، وينزع نحو تدوين التّاريخ من ظهور سيّدنا آدم، مرورا بالأنبياء عليهم السلام، ثمّ يعقّب على ذكر الحوادث والدّول وفق المنهج الحوليّ أو المنهج الموضوعاتيّ.

تدوين التّاريخ العامّ في بلاد المغرب خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين مثّله لسان الدّين بن الخطيب (776هـ/ 1374م) صاحب المصنّفات التي "بلغت السّتّين"[2]، والذي يهمّنا منها ما أُلّف في التّاريخ العامّ.

كتب ابن الخطيب أرجوزة "رقم الحلل في نظم الدول" أهداها إلى السلطان أبي الحسن المرينيّ أرجوزة تلخّص تاريخ الدّولة الإسلاميّة من زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم وانتهاء بدولة بني نصر إحدى ملوك الطّوائف، والنص كما يبدو تاريخ أدبيّ لا يخلو من قيمة تاريخيّة من خلال مادّته.

نظم ابن الخطيب "تاريخه" شعرا، فأورد ذكر دولة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم دولة الخلفاء من بعده، فالدّولة الأمويّة فالعباسيّة تواليا، وما يميّز هذه المنظومة أنّ ابن الخطيب يشرحها نثرا، فبعد أن يكمل نظم دولة النّبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء، يعمِد إلى شرح ما نظمه، وذلك منهجه طيلة القصيدة، كلّما قال نظما أوصله نثرا[3].

مؤلَّف آخَر -ضمن التّاريخ العامّ-لابن الخطيب هو كتابه الشّهير "أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يتعلق بذلك من الكلام" والذي يبدو من عنوانه أنه أقرب إلى المناقب، لكنّ محتواه لا يعكس ذلك، فمناسبة تأليفه هي مبايعة السلطان المرينيّ أبو زيان محمد بن عبد العزيز الذي بويع قبل أن يبلغ الحلم[4]، غير أنّ ابن الخطيب تجاوز ذلك إلى التّأريخ للدّول الإسلاميّة التي تواترت حكم الرقعة الممتدّة من الخليج إلى المحيط، وهو ما استدركه بعدُ في العنوان بقوله "وما يتعلّق بذلك من الكلام".

---

(1) **بوسعد الطيب: المرجع السابق، 138.**

(2) **للمزيد حول ترجمته انظر: المقري: نفح الطيب، ج5، ص75-188.**

(3) **أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، تونس، 1316هـ/1898م، ص 5- 12.**

(4) **لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، ج1 تح: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، مقدمة المؤلف، ص08.**

الكتاب ثلاثة أقسام تستغرق تاريخ دولة الإسلام الكبرى من المشرق ودوله، إلى الحديث عن دول إفريقيّة والمغرب، فيغطي بذلك فترة تمتدّ لخمسة قرون هجريّة، غير أنّه قد توقّف عند دولة الموحّدين، ممّا يدلّ على عدم إتمامه، ويفترض محقّق الكتاب أنّه قد قتل قبل تمامه[1].

ما يلاحظ على كتاب "أعمال الأعلام" هو الميول الأدبية لابن الخطيب، فتراه يخلّل الأحداث التّاريخيّة بالاسترسال في الشّعر والنّثر، الأمر الذي يزيد من انصراف القارئ وابتعاده عن الحدث التّاريخيّ، ومن ثمّة بون الهوّة بينه وبين ما يأمله من التّحصيل التّاريخيّ.

هذا، وإنّ مثل تلك العوائق لا تعدم الكتاب فائدة للباحث في تاريخ الإسلام عموما، وتاريخ الغرب الإسلامي خصوصا.

ثانيا: التاريخ المحليّ .. الدول والمدن (التاريخ السياسيّ)

التّأريخ للدّول ستتمّ معالجته بطريقتين مختلفتين، الطريقة الأولى يعمد فيها صاحبها إلى التّأريخ للدّولة الواحدة والاقتصار عليها، حيث يسترسل في بيان قيامها وحكّامها وسقوطها، المقاربة الثانية هي كتابة تاريخ قطريّ يؤرّخ لدولتين أو أكثر، وبذلك فأنّ المؤرّخ يستغرق قطرا أشمل وأوسع من المحليّة الضّيّقة أو الدّولة الواحدة.

وأعظم من كتب تاريخا محلّيا -قطريّا- هو ابن عذاري المرّاكشيّ (حي 712هـ/ 1312م) في موسوعته "البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب"[2] التي دوّن فيها أخبار المغرب والأندلس من الفتح الإسلاميّ إلى النّصف الثّاني من القرن السّابع الهجريّ.

مؤلّف ابن عذاري من ثلاثة أجزاء يغطّي زمن بلاد المغرب من الفتح الإسلاميّ لإفريقيّة -بالضبط فتح مصر سنة 21هـ/642م[3]- إلى غاية الدّولة المرينيّة حتى أوصل تاريخه إلى سنة 667هـ/1268م.

أبان ابن عذاري عن رسوخ قدم في التّاريخ عند جمعه لأخبار المغرب الإسلاميّ، وهو ما يعطي صاحبه لقب المؤرّخ[4]، ويكفي أن نذكر هنا أنّ مجموع مصادره سبعا وعشرين كتابا[5]، ممّا يجعله مستوعبا لأخبار الدّول من خلال تعدّد مشاربه.

---

[1] **لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ج1، ص08.**

[2] **هكذا سمى ابن عذاري كتابه، انظر: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ج01، تح: إ.ليفي بروفنسال و ج.س كولان، ط3، دار الثقافة، لبنان، 1983، ص6.**

[3] **نفسه، ج01، ص 08.**

[4] **علاوة عمارة: دراسات، ص 168.**

[5] **ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص2-3. عبد الله بن محمد علي: كتاب البيان المغرب لابن عذاري ومنهجه التاريخي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، السعودية، 1419هـ، ص 62.**

أرّخ ابن عذاري لجلّ الدّول التي حكمت بلاد المغرب والأندلس، على المنهج الحوليّ الذي يؤرّخ بالسّنين[1]، ويضيف إليه المنهج الموضوعي – الحدثي حيث التّأريخ على الأحداث[2]، فتراه يضع عنوان للحادثة التي يريد ذكرها، وعند الاسترسال في بيانها يؤرّخ بالسّنين لوقائعها ، كما أنّه يستدعي المقارنة، فعند عرضه لتاريخ خليفة أو حاكم، يحيلك إلى حاكم آخر مُشاكل له في القيادة.

إضافة إلى التأريخ للدّول، يؤرّخ ابن عذاري للمجتمع، فهو يعرض الظواهر الاجتماعية التي وسمت العصر المدروس، فيذكر ما شهده القطر من "مجاعة ووباء وطاعون"[3]، ويعرض أيضا للتّأريخ للأوضاع الاقتصاديّة من غلاء الأسعار وتعداد للمنتجات[4] وغيرها.

تحصيلا للذي سبق، يمكن القول أن تاريخ ابن عذاري موسوعة للباحث في تاريخ المغرب والأندلس، وقد تأتّت قيمته التّاريخيّة من مادته الوفيرة والمتنوعة، فهو تأريخ للمجتمع والاقتصاد والجغرافيا والدّول وغيرها.

التّأريخ للقطر سيتكرّر مع الزركشي (ت بعد 894هـ/1489م) صاحب كتاب "تاريخ الدولتين الموحّديّة والحفصيّة"، وقد طرق فيه أخبار دولتين توارثتا الحكم، فالحفصيّة وريثة الموحّديّة، ويبدو أنّ هذا سبب تناولهما بالتّأريخ مجتمعين.

تاريخ الزّركشيّ خلاصة فترة حكم الموحّدين والحفصيّين، وقد توسّع مؤلّفه بالتّأريخ لمدن المغرب إذّاك مرّاكش، وتونس، وتلمسان، وهي مدن شكّلت نماذج عن أقطار المغرب الثلاث، كما أنّه تعرّض للتّغريبة الهلاليّة وما اعترى الدّولة من فتن واضطرابات جرّاءها[5].

أتى المؤلّف على تاريخ الموحّدين ابتداء بتشكّلها على يد "الإمام ابن تومرت" الذي راح يستعرض ترجمته، ثم استعرض بعض حكّام الدّولة مستقصيا أخبارهم، ونبذا من أحوالهم، ويرفق اسم الخليفة بكلمة "دولة"، على أنّه لم يستعرضهم كلّهم، واكتفى بذكر "دولة عبد المؤمن بن علي"[6]، و"دولة يعقوب المنصور"[7]، و"دولة محمد الناصر بن المنصور"[8]، على أنّه خلال ذكر كلّ دولة يذكر خلفاء كل حاكم باختصار.

وبعد الانتهاء من خلفاء الموحّدين، ينتقل إلى " مبدأ الدّولة الحفصيّة"[9]، فيعكف على ذكر خلفاءها، ويستقصي أخبار كلّ خليفة، وأعماله، ونبذ من الحوادث التي عرفتها فترة حكمه، وبهذا فإنّ تأريخه للدّولة الحفصيّة أغزر وأعمق وأوفى من تأريخه للموحّدين، وتلك الأيديولوجيا في صورتها المتكرّرة مع كلّ دولة.

---

(1) **ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص5.**

(2) **عبد الله بن محمد علي: المرجع السابق، ص 277.**

(3) **ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص116.**

(4) **نفسه، ج4، ص38.**

(5) **الزركشي محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة ، تونس، 1966، مقدمة المحقق، ص أ**

(6) **نفسه، ص 07.**

(7) **نفسه، ص 15.**

(8) **نفسه، ص 17.**

(9) **نفسه، ص 18.**

رواية الأخبار في تاريخ الزّركشّيّ نابع من اتّصاله بالدّولة إذ هو من كتّابها[1]، وقد رتّب فصوله على المنهج الحدثي الحوليّ، فهو يذكر الحدث أو الموضوع عنوانا للفصل، ثمّ يسترسل في بسط الحوادث على السّنين، ولا يذكر مصادره كونه شاهدا على أغلب ما يروي.

أنهى الزّركشيّ أحداث تاريخه بذكر حوادث سنة 882هـ/1477م[2]، وذلك لا يُعقل، فقد ذكر أحداثا سنة 887هـ/1482م[3]، وهو ما يوحي بأنّ ما ذكره الزّركشّيّ من تواريخ في نهاية كتابه قد تكون استدراكات لما فاته قَبلُ.

أخيرا، جاز التّنويه على أن الكتاب قيمة تاريخيّة تضاف إلى الذي أُلّف حول المنطقة وفي الفترة، إذ حفظ جزءا مهمّا من تاريخها، وترجم لشخصيّات ممّن اشتغل في الدّولة، هذا وهو مصدر للحرف والصّناعات ممّا قد يحتاجه المؤرّخ للمجتمعات.

أحداث بلاد المغرب تلك ستتمّ معالجتها بمقاربات أخرى تعتمد التخصّص في ذكر قبائل بعينها، وبيان تأثيرها على مجريات الأحداث بإبراز دورها في الحروب، وفي قيادة الدّول أحيانا أخرى، المقاربة تضمّنها كتاب "مفاخر البربر" لمؤلّف مغربيّ مجهول (حي سنة 712هـ/1312م).

الكتاب أوّل محاولة لكتابة تاريخ شعوب المغرب الإسلاميّ[4]، يؤرّخ للفتح إلى الدّولة الموحّديّة، ويركّز على إسهام البربر في صناعة أحداث الفترة[5]، بعد احتقار "كثير من جهلة النّاس"[6] لهم، ممّا حمل المؤلّف على بيان "ملوكهم في الإسلام ورؤسائهم وأنسابهم وبعض أعلامهم"، وبسط معلومات تتعلّق بالحياة الاجتماعيّة لهم ولعلمائهم[7]، وهو الأمر الذي يدلّ على وعي المغاربة أكثر بمسؤوليتهم في كتابة تاريخهم المحلّيّ[8]، بنزوعهم نحو التّأريخ لبلادهم.

أهمّية الكتاب تتأتّى من تعدّد مآخذه، فمحمد المنّوني يذكر أنّ "هذا المؤلّف يورد معلومات ينفرد بها عن أيّ مصدر آخر معروف"[9]، وبالتّالي فإنّ الكتاب وثيقة نادرة تلبّي حاجيات الباحث في تاريخ المغرب الإسلاميّ عموما، وتاريخ البربر خصوصا.

وفي تلمسان قامت الدّولة الزّيانيّة، الدّولة التي نازعت المرينيّين والحفصيّين ملك المنطقة، بشرعيّة تاريخيّة من الموحّدين تارة، وبقوة السّلطان والواقع تارة أخرى، الشّرعيّة تلك سيجسّدها التّأليف الذي سينزع نحو التّأصيل التّاريخيّ للدّولة، بتتبّع جذورها ومنابتها، ومنه التّدليل على الأحقيّة بالحكم من غيرها.

---

(1) الزركشي: المصدر السابق ، مقدمة المحقق، ص و.

(2) نفسه ، ص 159.

(3) نفسه، ص 135.

(4) مجهول: مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، ط1، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2005، مقدمة المحقق، ص 15.

(5) نفسه، ص 180-184.

(6) نفسه، ص 91.

(7) نفسه، ص 153.

(8) نفسه، ص 91.

(9) محمد المنوني: المرجع السابق، ص 68.

حركة التّأصيل ستبدأ مع كتاب "زهر البستان في دولة بني زيان" لمؤلّف مجهول عاش في كنف الدّولة الزّيّانيّة فترة حكم أبي حمّو موسى الثّاني[1]، ولا نعلم عن حياته سوى أنّ له قصب السّبق في كتابة تاريخ شامل عن بني زيّان، ودلالة التّأصيل والشّرعيّة إقراره صراحة أنّ الدولة الزّيانيّة "خلافة"[2]، خلافا لما تواترته المصادر من كونها لم ترق إلى مصاف دولة الخلافة، ووسمه لأبي حمّو بـ "إمام دهرنا"[3].

قضيّة إثبات الشّرعية ستستمرّ ببسط روايات علم الحدثان -الغيب- الذي تنبّأ بـ "قيامة" أبي حمّو بأمر الزّيّانيّين[4]، وانتهاء بالإعلاء من شأنه ووسمه بـ"صقر بني عبد الواد"[5]، وقد ضمّن تاريخه أدبا منظوما وشعرا موزونا.

لو أنّ أجزاء الكتاب الثّلاثة موجودة لاستطعت أن أثبّت الحكم، لكن يبدو أنّ ما ذهبت إليه قد دلّ عليه الجزء الثّاني الذي بقي محفوظا، حيث ذكر المؤلّف عند ابتداءه الجزء الأوّل، وذكر عند نهايته الجزء الثّالث.

يمكن استجلاء ما في الجزء الأول من الكتاب من خلال تلميحات مبعثرة في الجزء الثاني، ويبدو أنّ مؤلّفه قد خصّصه لقيام الدّولة الزّيّانيّة ووراثتها حكم الموحّدين، دلّت على ذلك قرينة أنّ الكتاب محاولة لإثبات شرعيّة بني عبد الواد دون غيرهم -كما سبق- ودلّت على ذلك عبارات توحي -دون شكّ- بمحتوى الجزء الأوّل وهي "ذكر رجوع الخلافة الزّيّانيّة"[6]، و"..تقدّم في السّفر الأوّل وفاة أبي سعيد"[7]، و".. قد تقدّم في السفر الأوّل دخول الجزائر عنوة.."[8] من قبل الجيش المريني الذي هزم الزّيانيّين وأخرجهم من الجزائر إلى تونس سنة 753هـ/1352م.

الجزء الثّاني الذي وصلنا يؤرّخ لمرحلة مهمّة هي أرقى فترات الدّولة الزّيّانيّة، وهي فترة حكم أبي حمّو موسى الثّاني (ت 791هـ/1389م)، وضمّنه مؤلّفه مادّة لا توجد في كتاب "بغية الرّواد" الذي وصلنا كاملا[9]، وحمل دقائق عن الفترة لا توجد "نظم الدّر".

نهج صاحب كتاب "زهر البستان" منهجا وصفيّا لفترة حكم أبي حمّو موسى الثّاني، وقف خلالها على حيثيات بلاط أبي حمّو، وترى صاحب الكتاب لا يذكر مصادره إلّا إسنادا تارة كقوله "قال الرّوي .."[10]، وتارة يصرّح بذكر الكتاب بقوله "ورد في مقتبس بن حيّان"[11].

---

(1) عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، ج02، ط1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002. ص468.

(2) مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، ج02، تح: بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص12.

(3) نفسه، ج2، ص15.

(4) نفسه، ج2، ص15-17.

(5) نفسه، ج 2، ص386.

(6) مجهول: المصدر السابق، ج2، ص12.

(7) نفسه، ج2، ص13.

(8) نفسه، ج2، ص18.

(9) نفسه، مقدمة المحقق، ج2، ص08-09.

(10) نفسه، ج2، ص146.

(11) نفسه، ج2، ص 385.

الجزء الثّالث من الكتاب يبقى مبهما، غير أنّه لا يخرج من كونه تتمّة للمرحلة ما بعد 765هـ/1363م، فقد أشار الكاتب إلى أنّ الانتهاء من الجزء الثّاني كان في تلك السّنة المذكورة[1]، وأرجّح أن يكون مؤلّفنا المجهول قد قضى نحبه مع أبي حمّو موسى الثّاني -كونه نصيرا له- الذي قتله ولده أبو تاشفين الثّاني مع حلفاءه المرينيّين سنة 791هـ/ 1389م، وإذا كان هذا مجرّد تخمين، فإنّ الجزء الثالث سوف لن يكتمل هو أيضا، بل ويحتمل ألّا يُكتب أيضا، لأنّ المرحلة تلك حسّاسة ذات توتر واضطراب.

أخيرا نشير أنّ الباحث في تاريخ الدّولة الزّيّانيّة لا يُعدم فائدة من كتاب "زهر البستان" خصوصا من أراد استيفاء فترة أبي حمّو الثّاني، أو من أراد تاريخ الدّولة ككل.

تدوين تواريخ الدّول ذاك سيستمرّ مع ابن الأحمر (ت 807هـ/1405م) الغرناطيّ نسبا، الفاسيّ إقامة ووفاة، فقد كان مؤرّخ بني مرين، كتب ثلاثة كتب لملوك بني مرين، ممّا يعيد إلى الذّهن مسألة التّواريخ السّلطانيّة.

كتاب "النّفحة النّسرينيّة واللّمحة المرينيّة" أرجوزة ، تشتمل على اثنا عشر ومائة بيت في تاريخ الدّولة المرينيّة، استقصى فيها ابن الأحمر قيامها إلى إمارة أحمد بن أبي سالم المرينيّ أبي العباس المستنصر، ورفعه إليه سنة (789هـ/ 1387م).

وقد نظمها ابن الأحمر بنسق يعارض "رجز الملزوزي" "نظم السلوك في الأنبياء والملوك"، ونظم ابن الخطيب "رقم الحلل في نظم الدول"، ووجه المعارضة فيها أنّه اقتصر على بني مرين وفضائلهم، وقد أتبَع كلّ نظم بشرح مبهمه، وترجمة أعلامه، فقد خالط نظمه نثرا.

يسوق الكتاب تاريخ الدّولة المرينيّة، وذلك ببسط حكّامها ووزرائهم وكتّابهم، بل ويعرض فترات حكمهم لبلاد المغرب أيّام المرينيّين، ممّا حمل بعض الذين تناولوا كتب ابن الأحمر بالتحقيق على القول بأنّ كتاب "النفحة" هو نفسه كتاب "روضة النسرين" وليس ذاك، فالنفحة قد أتمّها ابن الأحمر سنة 789هـ/1387م كما أسلفنا، بينما أتمّ الروضة سنة 807هـ/1405م أيّاما قبل وفاته.

إنّ التّشابه الحاصل عند تقديم الكتابين حمل الباحثين على اعتقاد ما ذهبوا إليه، وحسبما ما يبدو، فإنّ أعمال ابن الأحمر سلسلة تاريخيّة لدولة بني مرين، كانت "النّفحة النّسرينيّة" مقدمة لها، وكان كتاب "روضة النّسرين" خاتمة لها، قرينتي في ذلك أنّ العنوانين بنفس المعنى، غير أنّ أن الأول نفحة على شكل بسط لتاريخ الدّولة، بينما الثّاني "روضة" بشيء من التّفصيل، وقد كان خاتمة أعماله.

في كتاب "روضة النّسرين في دولة بني مرين" تقديم يبيّن فيه مؤلّفه فائدة علم التّاريخ، ثمّ يذكر تفاصيل الدّولة المرينيّة بدءا بأنساب ملوكها "إلى أواخرهم من عهد أوائلهم"[2]، حتى أيّام ابي سعيد عثمان بن احمد المرينيّ، حيث أورد أنّ

---

[1] **مجهول: المصدر السابق ، ج2، ص379.**

[2] **ابن الأحمر الغرناطي: روضة النسرين في دولة بني مرين، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، المطبعة الملكية، المغرب، 1962، ص08.**

بعض المؤرّخين يصلهم بآل البيت من سيّدنا عليّ τ، هذا ويسترسل ابن الأحمر في تفصيل قبائلهم وبطونهم[1]، ويذكر نتفا من إمارتهم أيّام الموحّدين، على أنّه يلقّب يعقوب بن عبد الحقّ بأمير المؤمنين[2].

منهج ابن الأحمر الغرناطي في "روضته" على الموضوعات، فهو يذكر صاحب الدّولة -أي السّلطان- ثمّ يستقصي جوانب من شخصه، ويتعدّى ذلك إلى بسك أخبار دولته ووزرائه وحجّابه وغيرها، وهكذا عمله إلى آخر الكتاب.

عند وصول ابن الأحمر لدولة الأمير أبو سعيد عثمان بن أحمد، أطراه بقصيدة مطوّلة ذكر فيها محاسنه، ومدحه فيها وأثنى عليه[3].

ذيّل ابن الأحمر كتابه "روضة النّسرين" بذكر الدّولة عبد الواديّة، بفصل سمّاه "ذكر الدّولة الزّيّانيّة العبد الواديّة بتلمسان" والملاحظ أنّه لم يذكر في مقدّم كتابه أنّه سيورد فصلا عن تلك الدّولة، وواضح أنّ ذكره للدّولة الزّيّانيّة كان أيّام تبعيّتها لبني مرين، ويبدو أنّ غلبة الانحياز لبني مرين حمله على ذلك، فقد أورد في مقدمّة كتاب الدّولة الزّيّانيّة أنّه سيورد مثالب بني زيان وقد فعل[4].

يتناول ذيل ابن الأحمر ملوك بني زيّان من أوّل يوم، غير أنّ مؤلّفه يقدّم شروحا مقتضبة عن ملوكها، ولا يفتأ يذكر مثالبهم ومساوئهم، وهو عهد قطعه على نفسه من مقدّمه، وقد أوصل تعداد الحكام إلى حمّو بن أبي حمّو الذي كان في طاعة السلطان عثمان، وينهي تأليفه في سنة 807هـ/1405م[5].

الذيل هذا أفرده هاني سلامة بتحقيق في كتاب مستقّل حافظ فيه على عنوانه الأصليّ[6] وسواء كان الكتاب واحدا أم اثنين، فإنّ القيمة التّاريخيّة له محفوظة في ثنايا الكتابين، والباحث لا يُعدم فائدة من مادّته التي حواها.

قريبا من التأريخ للدول وللمدن، ألّف السلطان الزيّانيّ أبو حمو موسى الثّاني (ت 791هـ/1389م) كتابا في خطط القيادة والسّيّاسة، وسمه بـ "واسطة السّلوك في سياسة الملوك"، وهو عبارة عن رسالة في فنّ الحكم[7].

ويبدو أنّ التّأليف في ذاك الفنّ من اختصاص رجل كأبي حمّو موسى الثّاني، أليس مقيم الدّولة الزّيّانيّة وبانيها بعد أفول وانكسار؟ فعل كذاك كفيل بأن يجعل منه شخصيّة صاحبة حقّ في التّنظير لأسس الحكم ونظم الإدارة، إضافة إلى ذلك ثقافته الواسعة، فقد كان يحبّ الآداب والفنون ويحمي أصحابها[8].

---

(1) ابن الأحمر الغرناطي: المصدر السابق ، ص 08-12.

(2) نفسه، ص 17.

(3) نفسه، ص 41-42.

(4) نفسه، ص 44.

(5) نفسه، ص 60.

(6) ابن الأحمر الغرناطي: اخبار الدولة الزيانية بتلمسان، تح: هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001.

* يمكن ادراج كتاب فاس ضمن حقل التراجم كما يمكن ادراجه ضمن التاريخ الاجتماعي والثقافي، وقد ادرجته ضمن تاريخ المدن كونه يستقرأ تاريخ مدينة فاس من خلالها عائلاتها.

(7) سعد الله أبو القاسم: المرجع سابق، س 01، ج2، ص 218.

(8) نفسه، ص 218.

من مزايا الكتاب، أنّه خلاصة تجربة في الحكم والسّياسة[1]، جمع فيه صاحبها نصائح هي إرث تمرّس في السّلطان، ووعي بمبادئ التّنظيم والقيادة، فكانت بذلك نظريّته في السّياسة أصيلة ومتميّزة، تستقي أصالتها وتميّزها من واقع معاش بيّضه صاحبه في صفحات كتاب.

التّنظير لقواعد الحكم وأخلاقيّاته في كتاب أبي حمّو، كان من خلال الاستشهاد بمآثر العرب، ومناقب الخلفاء الرّاشدين وغيرهم[2]، واستشهاده بمناقب الخلفاء بيان لخطوط السّياسة العامّة التي كان يريد التّقعيد لها، وهي سياسة تستقي مبادئها من التّسامح والعدل الذي ساد دولة الخلفاء.

استطاع أبو حمّو تصوير التّاريخ الزّيّانيّ عموما، وسيرته هو خصوصا، تصويرا شعريّا، ففي قصيدته "جرت ادمعي"* توصيف دقيق بديع لرحلة التّيه من تونس إلى تلمسان، وفيها يظهر اهتمام ابي حمّو بالتّاريخ من خلال نظم الواقعات شعرا.

وأيّا كانت النّصائح التي قدّمها أبو حمو لولده تاشفين، فإنّ الأخير ثار عليه واحتزّ رأسه، بعد تحالفه مع بني مرين الذين أعادوه للحكم سنة 791هـ/1389م.

في إفريقية الحفصيّة كتب محمد بن احمد ابن الشّمّاع (ت 873هـ/1459م) "الأدلّة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة"، وهو كتاب يُفصح عنه عنوانه، ألّفه صاحبه سنة 861هـ/1457م[3] والرّجل مغمور لا تذكر كتب التّراجم المعروفة[4].

كتب ابن الشّمّاع كتابه للخليفة الحفصيّ أبي عمرو عثمان (839هـ-894هـ/1435م-1488م)، ممّا جعل التّأليف ينحو منحى الأدلجة، ذلك أنّه أطنب كثيرا في توصيف فترة الحاكم المذكور، وكنتيجة لذاك أغفل الكثير من التّفاصيل المتعلّقة بالفترة.

تناول ابن الشّمّاع في كتابه أخبار الخلفاء الحفصيّين "على وجه الإيجاز والاختصار"[5]، وذلك لأنّ غرضه من التّأليف "التّذكرة والموعظة"، وهو هدف يقتضي عدم الأطناب حتّى لا يسري إلى النّفس الملل فينتفي المقصود، وتلك هي الغاية التي من أجلها اكتسى التّاريخ العزّة والتّجلّة عند العلماء.

الكتاب من خمسة أبواب، تستغرق المقدّمة حدّ بلاد المغرب، والتعريف بتونس، وأخبار الفتح، ويتابع صاحب الكتاب بعد ذلك ذكر خلفاء الدّولة الحفصيّة تباعا، إلى غاية "الإمام" أبي عمرو عثمان صاحب الفترة.

---

(1) عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 469.

(2) حساين عبد الكريم: حركة التأليف التاريخي في العهد الزياني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الاسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجيلالي اليابس، بلعباس، الجزائر، 2018/2017، ص 100.

* انظر التتمّة: مجهول: زهر البستان، ص 40.

(3) ابن الشماع محمد بن احمد: الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الطاهر بن محمد المعموري، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 29.

(4) نفسه ، ص 19.

(5) نفسه، ص 27.

يستدعي ابن الشّمّاع منهج الإحصاء عند استرساله ذكر خلفاء الدّولة، ويعمد إلى الوصف والمدح حال التّطرّق إلى مناقبهم، وعند ذكر البلدان والغزوات وما يستدعي الوصف، غير أنّ الملاحظة الغالبة هي الاختصار الذي اختزل التّفاصيل التي تبدو مهمّة.

وقد رتّب المؤلّف كتابه على فصول، خصّص كلّ فصل لحاكم من الحكام، يتطرّق فيه لترجمته وذكر مناقبه، وينهي كتابه بالحديث عن دخول الهلاليّين بلاد تونس، ويبدو أن ابن الشّمّاع لا يلتزم قواعد التّأريخ، دلّ على ذلك أنه لا يقيم وزنا لكرونولوجيا الأحداث، فيقدّم ما ينبغي أن يتأخّر والعكس.

التّأريخ المحلّيّ سيعرف انحصارا يجعله يقتصر على المدينة الواحدة، وهو الأمر الذي جرى عليه التّأليف السّلطانيّ، الذي يلبّي حاجة الملوك من "تعرّف تاريخ الدّول"[1]، فعلي الجزنائي (ت 766هـ/1365م) قد ألّف كتابه "جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس"، وأهداه إلى الوزير عمر اليابانى الحفصي* المريني.

فالكتاب إذن قد وضع بتكليف من الوزير ذاك، وقد صرّح الجزنائيّ على ذلك في مقدمة الكتاب، بقوله: "... وبعد، فإنه لما كان من شيم سيدنا الوزير السعيد... تعرّف تواريخ الدول.. أردت أن أطالع وزارته السّنيّة... بكتاب مختصر يشتمل على ذكر من أسس مدينة فاس كلأها الله تعالى من الأدارسة.."[2].

الكتاب من بابين: الباب الأول في ذكر تأسيس فاس[3]، حيث ذكر الجزنائيّ فيه فضائل إقليم المغرب، وهو الذي استدعى له أحاديث عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم تثبت ما ذهب إليه[4]، الجزنائيّ أيضا دافع عن نظريّة عروبة البربر[5]، كما استرسل في الباب نفسه في حكاية هجرة الأدارسة إلى بلاد المغرب بعد موقعة فخ سنة 169هـ/786م، وبناء فاس على يد سيدنا إدريس الأصغر سنة 191هـ[6].

في الباب الثاني ذكر الجزنائيّ عمارة مدينة فاس وتوسيعها، ويدقّق في سرد معلوماته متّبعا منهجا يقوم على الاستدلال بالتّواريخ والأرقام التي تؤكّد صحّة ما نحله، ويستمرّ كذلك إلى أيّام المرينيّين الذين زادوا المدينة جَمالا.

من جهة أخرى نجد الجزنائي حريص على ذكر مصادره التي اعتمدها، فتراه يحيل على كل حكاية ليست له، وذلك منهجه طيلة التّأليف، كما أنّه يستشهد بالشّعر حال الوصف، وحال ذكر مناقب الوزراء والملوك وغيرهم.

يبقى أن نشير إلى أنّ لكتاب الجزنائيّ قيمة تاريخيّة كبيرة، دلّ على ذلك اعتماد الكتب التي تبحث نسب الأدارسة عليه، وظلت كذلك الكتب التي تؤرّخ لمدينة فاس تستقي أخبارها ومعلوماتها عنه.

وضمن إطار التّأريخ للمدن يندرج التأريخ للأسر العريقة التي سكنت المدن، أقصد هنا "بيوتات فاس الكبرى"* لابن الأحمر، وجدير بالملاحظة هنا أن ننبّه إلى أنّ الدار التي نشرت الكتاب أوردت أنّ ابن الأحمر "شارك في تأليفه"،

---

(1) علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في أخبار مدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991، ص 1-2.

*كنيته أبو حفص . انظر: علي الجزنائي: المصدر السابق، هامش ص 02.

(2) نفسه، ص 02.

(3) نفسه ، ص 04.

(4) نفسه، ص 04-06.

(5) نفسه، ص 08.

(6) نفسه، ص 18،19.

الأمر الذي يوحي أنّه من تآليف مؤرّخين عدّة يدلّ على ذلك التّواريخ المذكورة فيه والتي تتأخر عن عصر المؤلّف بقرن من الزّمن[1].

نهج ابن الأحمر منهج التّقصّي لكبرى البيوتات التي سكنت فاس، سواء البيت الفاسيّة بالأصل أو الواردة إليه مثل "بيت بني مدين شعيب"، على أنّ ابن الأحمر يترجم أحايين كثيرة لبعض شخصيات العائلة ويذكر تاريخ وفاتها.

عند ذكر العائلة يسترسل ابن الأحمر في بيان مشاهيرها، وفضائلها، كما أنّه يتتبّع نسبها، فيمجّد التي تنتهي إلى آل البيت، ويشنّ في الكتاب حملة على آل تومرت ودولتهم، ويبدو أنّ نسبة الكتاب كلّه لابن الأحمر فيه تجنّ على ما ورد في المتن، فهو يورد -فعلا- تواريخ بعده بقرن، فيؤرّخ مثلا وفاة "شيخه" محمد بن القاسم من بيت بني القوريّ بـ 872هـ[2]، ويؤرّخ وفاة شخصيّة مهمّة من بيت بني شجار بـ 897هـ[3]، ممّا يؤكّد فرضيّة تعددّ المؤلّفين، فابن الأحمر توفّي سنة 807هـ؟

ومن مدن المغرب التي تتبّعها المؤرّخون بالتّأليف مدينة "مرّاكش"، وقد أُفرِد لها كتاب اختُلِف في مؤلِّفه، الكتاب هو "الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المرّاكشيّة"*، على أن الجميع متّفقون على أن مؤلّفه من القرن الثّامن الهجريّ (ق 08هـ/15م)، انتهى من تأليفه سنة 783هـ/1341م.

يتناول الكتاب أخبار مدينة مرّاكش واختطاطها[4]، وعصر المرابطين والموحّدين بشيء من التّفصيل في ذكر ملوكهم وأخبارهم، وقد توسع في ذكر الدولة المرابطيّة، ونبذا من الموحّدين في الصّدر الأوّل من دولتهم، كما استقصى أخبار مراكش.

سلك مؤلّف الكتاب منهجا يقوم على اختصار الأخبار، مع الالتزام بالفترة الزّمنيّة التي يندرج تحتها الخبر، وذكر سلطان ذلك الزّمن، وعند التّأريخ للمرينيّين تجده يقتصر على ذكر التّواريخ دون الأخبار "ميلا للاختصار"[5].

اعتمد صاحب التّأليف مصادر تاريخيّة مفقودة وموجودة، وهو يذكرها في متنه كالصّيرفيّ[6]، وابن صاحب الصلاة[7]، والبيذق[8]، كما أنّه استفاد من وثائق دولة بني الأحمر حيث اشتغل كاتبا للديوان.

الكتاب من المصادر التّاريخيّة المهمّة للباحث في تاريخ المرابطين وبداية الموحدين، وقد تضمّن حقائق تاريخيّة حول تأسيس مدينة مرّاكش, وأصل المرابطين، وحول تاريخ العدوة الأندلسيّة أيّام المرينيّين، ويبدو أنّ الكتاب يتعدّى تاريخ المدن إلى التّأريخ للدّول.

---

(1) ابن الأحمر الغرناطي: بيوتات فاس الكبرى، منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1972، مقدمة الدار، ص 05.

(2) ابن الأحمر الغرناطي: المصدر السابق ، ص 65.

(3) نفسه، ص 68.

(4) مجهول: الحلل الموشيّة في ذكر الاخبار المرّاكشية، تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1979، ص 13.

(5) مجهول المصدر السابق ، ص 13.

(6) نفسه، ص93.

(7) نفسه، ص 116.

(8) نفسه، ص 138.

حظي ثغر سبتة هو الآخر بقسط من التّأليف، فقد كتب محمد السّبتيّ (ت 825هـ/1422م) "اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار"، وهو لملمة للشّواهد والآثار التي كانت بسبتة قبل احتلالها من قبل النّصارى، ممّا يعيد إلى الذهن فكرة الحنين التي راودت الكتّاب بعد فراق الوطن رغبة أو قسرا.

جمع السّبتيّ في كتابه ما تركه المسلمون في سبتة قبل دخول النصارى إليها، ومن جملة ما عدّد قبور المدفونين فيها من الصّلحاء وغيرهم، كما ذكر المساجد، والأسواق، والفنادق، وبيوتات الأشراف، ولولا مخافة الإطالة لجاوز بذلك الإحصاء إلى المحارث والمزارع والأودية وغيرها[1].

سلك السّبتيّ في مؤلّفه منهجا قوامه الإحصاء والوصف والاختصار، فهو لا يفتأ يذكر من دفن بسبتة، ويحصي عدد الفنادق والأسواق مثلا، كما أنه يقف على وصف ما رآه وصفا مقتضبا مختصرا، فغايته لم تكن التّدقيق قي الآثار، بل كانت الإحاطة بالمظاهر الحضاريّة التي كانت قبل في سبتة.

لا يخلو الكتاب من قيمة تاريخيّة تجلّت في غزارة المادّة التي احتواها، وقد يجد فيه الباحث في تاريخ سبتة معلومات قد لا تتوفّر في كتب التّاريخ الأخرى، فقد اكتنه السّبتيّ صغائر الشّواهد التي قد لا يلتفت إليها مؤرّخون آخرون.

أخيرا، فإنّ الكاتب لا يذكر مصادره ويكتفي بالقول "قيل"[2]، "قالت العلماء"[3]، ويبدو أن أغلب معلوماته قد أخذها مشافهة عن والده[4]، وبذلك فإنّه لا يسندها، هذا ولا يُعدم الباحث في تاريخ سبتة فائدة من كتاب السّبتيّ.

هذا النّوع من الكتابة التّاريخيّة -التّأريخ للمدن- عرف اهتماما جعله يتوسّع أفقيّا ليشمل مدنا عدّة بعد اقتصاره على مدينة واحدة، هذا "الانفتاح" مثّله ابن الخطيب في "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار"، تناول فيه مدن الأندلس والمغرب.

المقاربة الجديدة التي تناول بها المؤلِّف تأريخه ذاك أعطت المغرب هويّة جديدة استغرقت الأندلس، ويبدو أنّ ابن الخطيب قد راوده الحنين لبلده الأصل، فقد شمل معياره أربعا وثلاثين مدينة أندلسيّة، في مقابل تسعة عشر مدينة مغربيّة[5].

يتعرّض المؤلِّف للمدينة الواحدة وصفا، فيقيّد موقعها الجغرافيّ، ويستعرض نبذا من أخبارها ليصبغ عليها طابع التّاريخ، ثمّ يستقصي أحوالها الاجتماعيّة، فتراه ينتقد سلوكاتهم ذامّا بعضها، ومادحا للبعض الآخر.

---

(1) محمد بن القاسم السّبتيّ: اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الاثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1983، ص 56.

(2) حمد بن القاسم السّبتيّ: المصدر السابق، ص 42.

(3) نفسه، ص، 47.

(4) نفسه، ص 117،119.

(5) لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار، محمد كمال شبانة، دط، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2002، ص 44-45.

انتهج ابن الخطيب في تحرير كتابه منهجا قصصيّا يقوم على الوصف الدّقيق، والاستقصاء الوثيق فكتابه من بابين، باب لمدن الأندلس، وباب لمدن المغرب، وعند عرضه لمدينة ما تجده يسترسل في بيان مواطن الحسن فيها، فيصف أسواقها، وأحوال المعاش والكسب[1].

وبحكم استقرار ابن الخطيب في العدوتين الأندلس والمغرب، فإن مصادره تبقى مشاهداته للمدن التي وقف عليها بنفسه، هذا ويعتمد ابن الخطيب من سبقه من المؤرّخين عند التّأريخ لمدينة ما، كما تراه قد استفاد من منصبه كوزير حيث الوثائق والتّقارير.

من هنا تأتّت قيمة الكتاب الذي يُعدّ مصدرا حافلا بأخبار مدن المغرب والأندلس، شاملا لمختلف الجوانب الحيواتيّة للمدينة الواحدة، مستغرقا نواحيها التّاريخيّة، والجغرافيّة والاجتماعيّة، والاقتصاديّة.

وفي فتح إفريقيّة ألّف عيسى بن سلامة البسكريّ (ت 860هـ/1456م) كتابا -لازال مخطوطا- قصد فيه اختصار فتوح إفريقيّة، وقد رتّبه على ثلاثة أبواب، ذكر في الأوّل من دخل إفريقيّة من الصّحابة والتّابعين، وفي الثاني ذكر من دخلها من الأمراء، والثالث في كرامات الأولياء والصّالحين، وروح التّصوّف قد غلبت على تأليفه هذا[2].

ثالثا: التّراجم ..السّير والمناقب الصّوفيّة

يعدّ التّأليف على التّراجم خصوصيّة يكاد ينفرد بها تدوين التّراث الإسلاميّ بصفة خاصّة، وتلك الخصوصيّة تأتّت من العناية التي أولاها المسلمون بهذا النّوع من الكتابة التّاريخيّة، كونها جزءا من علم الرّجال[3] الذي هو مرتكز علم الحديث.

انطلاقا من ذلك كان اهتمام المسلمين بسيرة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم أولى تلك المحطّات في التّاريخ للرّجال، وقد أسّست سيرته صلى الله عليه وسلم لفنّ السّيرة فيما بعد، الأمر الذي دفع إلى كتابة تاريخ الصّحابة والمحدّثين، وأُرِّخ -كذالك- للصّلحاء والمتعبّدين[4] وغيرهم في البلاد الإسلامية مشرقا ومغربا، واستمر ذلك إلى وقتنا.

وقد نظّمت ورتّبت تلك الكتب وفق مناهج اتبعها مؤرّخو التّراجم، بدءا بالتّأليف على الطبقات، أو على الوفيات، أو على حروف المعجم، وغير ذلك من المناهج المعتمدة في صياغة التّراجم، ذلك التّطور في المناهج فرضه الاهتمام بالتّراجم للأفراد، أضِيفَ لها ذكر المناقب، الأمر الذي جعل مساحة التّاريخ تتقلّص في فنّ التّراجم.

بالنّسبة لبلاد المغرب، فإنّ مجموع ما أُلّف في فنّ التّراجم يفوق ما تمّ تأليفه في غيرها من فنون الكتابة، ويبدو أنّ علاقة السّلطة بالعلماء قد أثّرت على حركة التّأليف تلك، حيث الحضوة التي حملت المؤرّخين على النّزوع نحو التّصنيف

---

[1] **ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص 49-50.**

* **نسبه بعض المحقّقين لابن الخطيب، بينما نسبه سهيل زكار لمجهول، وحقّق عيد القادر بوباية نسبته لابن سمّاك العامليّ، وعن تحقيق نسبته انظر كتاب مفاخر البربر لمجهول، هامش ص 20.**

[2] **سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س2، ج1، ص77،78.**

[3] **أبو العباس احمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1979، ص 19.**

[4] **نفسه ، ص 19.**

للملوك والحكّام[1]، هذا وقد كان للتّصوّف وقعه على توجيه التّراجم صوب المشيَخة والكرامة.

وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ ما احتوته كتب التّراجم والفهارس من إطراء وتفصيل المناقب استجابة لواقع معيّن، لا يعدم المؤرّخ مادّة تاريخيّة مبثوثة فيها، تلزمه إجهاد الذّات وإيقاظ الخبرات، لاستجلاء الوقائع التّاريخيّة، واستقراء الفترة محل الدّراسة.

إتّجاه التّذييل -كما أشرنا سابقا- هو الغالب على تأليف ما بعد القرن السّادس الهجريّ، وأكبر موسوعة كتبت في التّراجم خلال القرنين 8هـ-9هـ/14م-15م، هو كتاب"الذّيل والتّكملة على كتابي الموصول والصّلة" لابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/ 1303م)، وقد وصل بها "صلة" ابن بشكوال (ت 578هـ/1183م)، الذي ذيّل بدوره كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي (ت 403هـ/1012م)[2]، وهو المعبَّر عنه بـ "الموصول" في عنوان الذّيل.

كتاب الذّيل في تسعة أسفار، ما وصلنا منه خمسة، ترجم فيها ابن عبد الملك لأكثر من 5000 شخصيّة من علماء العصر، الأمر الذي كلّفه كثيرا من وقته وعمره، بحكم المادة التي تتطلّب الاستقصاء والبحث، وربّما هذا الذي يفسّر قلّة تآليفه، فليس له إلا هذا، وكتاب الجمع بين كتابي ابن القطّان وابن المؤاق[3].

استدرك ابن عبد الملك -إذن- على تراجم من ذكرنا سابقا، غير أن تراجمه كانت أشمل وأعمق، فقد أراد استدراك هفوات من سبقه، حيث أضاف إلى تلك التّراجم "الأندلسيّة" تراجم الطّارئين"[4] عليها، وزاد في ذلك أن ترجم للنّساء في ذيل على تراجم الرّجال[5].

عاب ابن عبد الملك التّراجم على منهج الطّبقات لتعسّر العلم بتاريخ وفاة المترجَم له[6] ولذلك فقد سلك صاحبه منهجا يقوم على الترتيب على أحرف المعجم المشرقيّ لصحة اعتباره[7] وقد بدأ باسم "أحمد" في "الألف"، و"محمد" في "الميم" تبرّكا[8].

وقد اعتمد مصادر متعدّدة ومآخذ متنوّعة تنبؤ عن سعة اطّلاع المؤلّف، فقد استوفى مؤلّفات رجال هذا الفنّ، ثمّ أحاط بالتّقييدات التي تعتني بالمواليد والوفيات والأنساب، وأخيرا "ما تلقّاه عن مشايخه" مشافهة وسماعا، أو قراءة وإجازة[9].

---

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط5، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1969، ص 374.

(2) محمد ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج01، تح: احسان عباس وآخرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2012، ص202.

(3) محمد ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق مقدمة المؤلّف، ج1، ص 122.

(4) نفسه، ج1، ص205.

(5) نفسه، ج1، ص208.

(6) نفسه، ج1، ص208.

(7) نفسه، ج1، ص211. والترتيب المشرقيّ هو (ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن و هـ ي)

(8) نفسه، ج1، ص 212.

(9) نفسه، ج1، ص177.

يُعدّ كتاب الذّيل معجما حافلا بتراجم الأندلسيين والمغاربة، استوعب مؤلّفات من سبقه، وترجمته لأصحابه شاملة وافية تميّزت بالغزارة والوفرة، كما أنّه لا يفتأ يتعقّب الأسانيد والأنساب بالنقد والتّصويب، ومن هذا وذاك جاءت قيمته التّاريخيّة التي هي أقرب للعلميّة في التأليف[1].

فنّ الصّلة سيعرف ازدهارا واهتماما مع لسان الدّين ابن الخطيب، الذي كتب كتاب "أوصاف النّاس في التّواريخ والصّلات"، الكتاب إحصاء لمائة وسبع وخمسين شخصيّة أوصافها مبثوثة في المصادر[2]، وقد حاول ابن الخطيب جمع تلك الأوصاف المتناثرة في الكتب، وبسطها في كتابه هذا.

يذكر ابن الخطيب مصادره التي استقى منها ترجمة المترجم له في كتابه، فيذكر مثلا مصدره "القدح المعلّى في التّاريخ المحلّى"[3]، وكتاب ابن الخطيب ذاك، مكمّل لكتابه "الإكليل الزّاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر"، ثم يبسط رجاله مرتّبين على أحرف المعجم،

من مصادر التّراجم في المغرب الأوسط كتاب "عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية" لأبي العبّاس أحمد الغبريني (ت 714هـ/1315م)، الرّجل الذي خبر الزّمان، فأضحى من الفحول في الميدان[4].

أحصى الغبرينيّ في مؤلّفه قرابة مائة وثمانين ترجمة لعلماء وصلحاء ومشاهير تلك الفترة المزدهرة من تاريخ أقطار المغرب والأندلس، فهو بالتّالي أقرب إلى كتب المشيَخة التي تُوسَم بها كتب التّراجم الصّوفيّة.

وقد حمله على تأليفه ذاك رسم خارطة للمشايخ الذين يؤخذ العلم "اللّدنيّ" عنهم، ذلك أنّ الزّمان قد يغيّبهم، فأراد بذلك بيان أوصافهم وأحوالهم، والإخبار عنهم، حتى تتحقّق الغاية المقصودة من ذكرهم، وهي الاقتداء بهم، والاهتداء بسلوكهم[5].

لم يستقلّ الغبريني بمنهج واحد في تراجمه لعلماء بجاية، فقد أدرج علماء من أواخر القرن السّادس " أبا مدين شعيب" و"الإشبيليّ" كتوطئة مباركة، ثمّ استطرد في ذكر علماء المائة السّابعة دون مراعاة للزّمان أو أحرف المعجم، ويبدو أنه سلك مسلكا يعتمد مكانة العالم عنده، أو أنّه رتّبهم وفق سلّم تتلمذه على أيديهم.

وقد نقل لنا فيه واقعا عن الحياة العلمية المشرقة التي طبعت مدن المغرب عموما كالقيروان وفاس، والمغرب خصوصا كبجاية وتلمسان قرنا من الزّمان، فترة شهدت تلاقحا فكريّا جعلت من بجاية مقصدا لعلماء القطر من أندلس ومغرب، والوافدين إليها من بلاد المشرق[6].

---

(1) محمد ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق مقدمة ، مقدمة المحقق، ج01، ص127-131..

(2) ابن الخطيب لسان الدين: أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تح: محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي المغرب والامارات، دت، مقدمة المحقق، ص 03.

(3) الحفناوي محمد ابو القاسم: تعريف الخلف برجال السّلف، ج01، تح: محمد رؤوف القاسمي، دط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص31.

(4) نفسه ، ج01، ص31.

(5) الغبريني أبو العباس احمد: المصدر السابق، ص 19،20.

(6) زينب قوني: أبو الحسن الغبريني وكتابه عنوان الدراية، مقال منشور ضمن مجلة الأثر، ورقلة، الجزائر، العدد 27، 2016، ص 284.

من هنا كانت القيمة التّاريخيّة للكتاب التي تأتّت من رسمه للحياة الأدبيّة والفكريّة، ممّا يجعل الباحث يستبين معارف تلك الفترة، كما أنّه يستطيع استجلاء مكانة بجاية، فالكتاب سجلّ حافل لمآثر المائة السّابعة فيها، وفي بلاد المغرب والأندلس عموما[1].

وفي إطار التّأريخ لعلماء القطر -دائما- كتب عبد الواحد بن الطّوّاح التّونسيّ (ق08هـ/14م) كتاب "سبك المقال لفكّ العقال"، "جمع فيه طائفة من أهل العرفان"[2]، وصلت إلى تراجم نحو من ثلاثين اسما من علماء تونس والمغربين الأوسط والأقصى[3].

كتب المؤلّف المغمور تراجم لمشاهير من عاصر من صوفيّة وقته أو قارب، يبسط فيها سيرهم ونبذا من مآثرهم، وتوسّع في التّرجمة للعلماء حتى وسع مؤلَّفه العلماء والأدباء ممّن التقاهم في رحلاته[4].

يذكّر المؤلِّف في فصل "تمهيديّ" بمكانة العلم وفضله، ثم يبدأ في تراجمه بأهل التّصوّف السّابقين عنه زمانا، ويستوفي أخبارهم وأحوالهم، ثمّ ينتقل إلى مشاهداته الشّخصيّة، حيث يسرد تراجم من لقيهم، ويبدو أنّه رتّبهم وفق لقياه لهم، أو وفق مكانتهم عنده.

لم يلتزم ابن الطّوّاح منهجا يبسط به تراجمه، لكنّه كان في يثبّت معلومات أعلامه سالكا فيها مسلك أهل البرامج والأثبات، فيذكر من سبقه بالفضل والعلم ممّن يشار إليه بالبنان، ويترجم بإسهاب لمن لقيه بل وحتى أولئك الذين سمع عنهم وأُخبر بفضلهم.

الكتاب صورة عن المؤلّف المغمور لمن يبحث في شخصيّته، حيث بدت مظاهرها في ثقافته وتصوّفه، كما أنه يعكس جوانب من الحياة الفكريّة في أقطار المغارب الثّلاث، ومدى التّفاعل الحاصل بينها من خلال العلاقات التي كانت تطبع الحياة الثقافيّة فيها، بل إنه يتعدّى ذلك إلى عدوة الأندلس ومظاهر الحياة العلميّة هناك.

التّأريخ للمشيَخة اتّسع أفقيّا ليستغرق الأرياف، فما صنّفه الغبرينيّ تأريخ لأهل المدن وما ألّفه ابن الطّوّاح لم يخرج عن هذا، إلّا ما كان على وجه الصّدفة ممّن التقاهم خلال رحلاته هذا الذي حمل عبد الحق البادسيّ (حي 722هـ/1322م)[5] على "النّزوع" إلى لملمة "صلحاء" الأرياف، فكتب كتابه "المقصد الشّريف والمنزع اللّطيف في التّعريف بصلحاء الرّيف".

كتاب "المقصد الشريف" صلة لكتاب "التّشوف" الذي كتبه ابن الزيات، والذي كان قد "غفل" عن ذكر صلحاء الرّيف[6]، فرتّب كتابه على ثلاثة أقسام، قسم أطنب فيه الكلام عن التّصوّف وما تعلّق به من كرامات ومقامات،

---

(1) **الغبريني: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص 15.**

(2) **عبد الواحد بن محمد الطواح: سبك المقال لفك العقال، تح: محمد مسعود جبران، ط2، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، 2008، ص 52.**

(3) **نفسه، مقدمة المحقق، ص 09.**

(4) **عبد الواحد بن محمد الطواح: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص 38.**

(5) **عبد الحق البادسي: المقصد الشّريف والمنزع اللّطيف في التّعريف بصلحاء الرّيف، تح: سعيد اعراب، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1993، مقدمة المؤلف، ص06.**

(6) **نفسه، ص 15.**

وخصّص القسم الثاني للكلام على حياة الخضر عليه السّلام لما لها من علاقة بالتّصوّف والعلم اللّدنيّ -على ما يبدو-، وختم بالكلام في القسم الثّالث على مشائخ الرّيف[1].

جمع البادسيّ بين منهج ابن الزيات في "التّشوّف" ومنهج أبي نعيم في "الحلية"، فهو قد جمع بين المنهجين، حيث تناول فيه نسب المترجم له موطنا وقبيلة، ثمّ يأتي على ذكر المدارس والزوايا والشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم، ويعقب كل ترجمة مناقب وحلى المترجم له[2]، وبذلك يكون قد استوفى الحد الذي ينبغي على الباحث معرفته.

الكتاب حلقة تؤرّخ للتصوف ببلاد المغرب عموما، تسلّط الضوء على جانب مهمّ منه وهو التّصوّف، كما أنّه وثيقة تاريخية تؤرّخ للعصر المرينيّ ولأحداث بني وطاس، والعلاقات مع النّصارى، وهو كذلك معجم جغرافي يحدد مواطن القبائل تحديدا دقيقا[3]، ما يجعل الباحث لا يعدم منه فائدة.

والتّرجمة للصّلحاء ستعرف توسّعا لتشمل ذكر كرامات المترجم له، وإفرادها بكتاب واحد، الأمر الذي يوحي بغلبة نزعة التّصوّف في تلك الفترة، هذا النّوع من التّأليف مثّله أبو العبّاس الماجريّ (ت ق 08هـ/15م) في كتابه "المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح"، ومن غير تأوّل أبان صاحبه من عنوانه عن غرضه من التّأليف.

الشّيخ أبو محمد صالح دفين مدينة أسفي، وهو صاحب الطّريقة الماجريّة الصّوفيّة، التي تمتدّ إلى العهد الموحّديّ، أين عرفت إبراز مبادئها وطقوسها، وعرفت الطّريقة إعادة إحياء مع أبي محمد، غير أنّها ستعرف غلوّا أساء إليها، وجلب لها التّشنيع من المخالفين[4].

وقد دفعت تلك التّشنيعات المؤلّف إلى بيان كرامات شيخ الطريقة أبي صالح، كمحاولة منه لشرعنة الطّريقة ببيان قدسيّة أبي صالح -شيخها الأوّل- من خلال نسبته للأشراف -مع أنّ بربريّ- ومن خلال بسط زهده برباطه وكراماته.

نهج الماجريّ في بسط كرامات جدّه منهجا يقوم على عقلنة تأليفه، وتنقيحها ممّا قد يشوبها من تأويل جهلة العصر، معتمدا في روايته لها على ما صحّ سنده وما استفاض من الأخبار والمرويات، ويذكر أنّه قد سكت عن بعض تلك الكرامات خشية الافتتان بها والمغالاة فيها وعدم فهمها[5].

الكتاب صورة صادقة عن تصوّف العصر، ولولا أنّ مؤلفه قد تغاضى -كما أسلفت- عن بعض الكرامات لكانت الصّورة أدقّ وأوفى، ومع ذلك فالذي يبحث تاريخ التّصوّف لا ينتفي فائدة من ترجمة الماجريّ هذه.

في إطار التّذكير بتاريخ المدن كتب ابن الخطيب كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، يؤرّخ فيه لبلده الأم الذي فارقه "مكرها"، وأرّخ له حتى يستبين القارئ أحوالها قبل دخول النّصارى إليها وبعد دخولهم، ومنه يستطيع استجلاء حضارة الإسلام هناك.

---

[1] عبد الحق البادسي: المصدر السابق ، ص 16.

[2] نفسه، ص 07-08.

[3]،نفسه، ص 08-09.

[4] أبو العباس الماجري: المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ ابي صالح، ج01، تح: عبد السلام سعيدي، ط1، دار ابي رقراق، المغرب، 2013، ص66.

[5] أبو العباس الماجري: نفس المصدر، ج01، ص67.

كتاب "الإحاطة" ليس تاريخاً لغرناطة فحسب، بل هو مؤلّف يشتمل على مجموعة ضخمة من التّراجم لعلماء غرناطة ونزلائها[1]، ويبدو أنّ ابن الخطيب كما حفظ الآثار الغرناطيّة قبل النّصارى، هو الآن يحفظ علماء قبل النّصارى -أيضا- حيث ترجم لزهاء خمسمائة شخصيّة بأسلوب مركّز وقصير.

ذكر ابن الخطيب منهجَه في إحاطته، إذ أشار إلى أنّه قد اتبع منهجاً مُتميّزاً في تنظيم مادّته "..على الحروف المبوّبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المرتبة؛ فذكرتُ الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكُبَراء...ثم الزّهّاد والصُّلحاء والصّوفية والفقراء"[2].

وذكر ابن الخطيب -أيضا- مصادره في مقدمة إحاطته، وعلى رأسها تواريخ ابن القوطيّة ، و"المقتبس" لابن حيّان، و"قلائد العقيان" للفتح بن خاقان، و"الذخيرة" لابن بسّام الشنتريني، و"البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي، و"روض القرطاس" لابن أبي زرع الفاسي وكان معتمده الرّئيس تاريخ ابن الصيرفي المسمّى "الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية"[3]، عند التّأريخ للمرينيّين.

وفي تونس كتب أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت 849هـ/1445م) المكنّى "بالرّصّاع" فهرسته الشّهير، وهو مجموعة تراجم جمعها لشيوخه في تلمسان وتونس، وعلى الرّغم من غلبة علوم التفسير والحديث على تآليفه إلّا أنّ له من المؤلّفات ما يجعل منه مؤرّخا.

للرّصّاع كتاب "تحفة الأخيار في فضل الصّلاة على النّبيّ المختار" في التّصوّف، وله أيضا كتاب "فهرست الرّصّاع" في التّراجم، هذا الأخير الذي -زيادة على تراجم شيوخه- معلومات تتعلّق بالتّعليم ونظام التّدريس في الزّيتونة[4].

وقد كتب الرّصّاع تراجمه نزولا عند بعض السّائلة له أن يجمع لهم روايته عن مشايخه وتآليفهم[5]، لتنمية الفائدة لهم في الرّواية والدّراية[6]، جمع فيه ثبتا لما يربو عن المائة شيخ، وكان إذا ذكر شيخه استرسل في ذكر حياته ومؤلّفاته وما استفاده منه[7].

---

(1) محمد المنوني: المرجع السابق، ص 92.

(2) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في اخبار غرناطة، ج01، مطبوع، ط1، شركة الطبع العربية، المغرب، 1901، ص 10.

(3) لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ج01، ص05.

(4) سعد الله أبو القاسم: المرجع سابق، ج02، ص415.

(5) الرصاع: المصدر السابق، ص 07.

(6) نفسه، ص 03.

(7) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج02، ص419.

الكتاب شرح مدلول كلمة محمد واشتقاقاته[1]، كما حوى تعاريف لمدن المغرب الإسلاميّ كتلمسان[2]، وسوسة[3]، وقدّم مفاهيم لمصطلحات ذلك العصر كالرّباط[4]، والكرامة[5]، والمسيد (المسجد)[6]، وتعدّى ذلك إلى المصطلحات العثمانيّة كالإيّالة[7]، كما أنّه قد أوصافا لملابس الملوك، ومجالسهم[8]، وبذلك فهو معجم تعدّى فنّ التّراجم إلى التّعريف بالبلدان والعادات وغيرها.

في المغرب الأوسط، استدرك البرّاديّ أبو القاسم بن إبراهيم (حي سنة 810هـ/1407م)[9] "ما أخلّ به كتاب الطبقات" الذي كتبه الدّرجينيّ، في كتاب وسمه صاحبه بـ "جواهر المنتقات في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات"[10].

يستدرك الكتاب ما فات كتاب طبقات الدّرجينيّ من الطّبقة الأولى (1هـ-50هـ)[11] ، فذكر البرّاديّ سيرة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، وأحداث الخليفتين عثمان بن عفّان وعليّا بن ابي طالب رضي الله عنهما، وما أحدثته الفتنة أيّام سيّدنا عثمان، بدعوى أنّها سبب افتراق الأمّة.

تلك الأحداث، تستغرق جلّ الكتاب، ساقها صاحبها سوقا مستوفيا كلّ الجوانب، غير ما اختصره من الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وسمّى تلك الفترة "بالطّبقة الأولى"[12]، إلى غاية سيّدنا عليّ، بالتّأريخ على السّنين[13]، ثمّ انتقل إلى بيان الدّولة الرّستميّة، ونبذا من أخبار أئمّتها.

وفي تلمسان كتب أبو عبد الله محمد بن يوسف السّنوسيّ (ت 895هـ/1489م) كتاب "مناقب الأربعة رجال المتأخّرين"[14]، وهو كتاب نُسِب إلى ابن صعد -تلميذ السّنوسيّ- بعنوان "روضة النّسرين في مناقب الأربعة المتأخّرين"، والغريب أنّ الأربعة المتأخّرين الذين ترجم لهم ابن صعد هم أنفسهم الذين ترجم لهم السّنوسيّ قبله، الأمر الذي أثار شكّ نسبة الكتاب لأحدهما في ذهن الدّكتور سعد الله[15].

---

(1) الرصاع: المصدر السابق، ص 3-4.

(2) نفسه، ص 08.

(3) نفسه، ص 13-14.

(4) نفسه، ص 15.

(5) نفسه، ص 44.

(6) نفسه، ص 14.

(7) الرصاع: المصدر السابق ، ص 46.

(8) نفسه، ص 48-50.

(9) لجنة البحث العلمي لجمعية التراث: معجم مصطلحات الاباضية، ط2، دار الوعي للنشر والتوزيع، الرويبة، الجزائر، 2012، ص 632. تاديوس ليفيتسكي: المؤرخون وكتاب السير والرواة الاباضيون الوهبيون في افريقيا الشمالية من القرن الثامن وحتى القرن السادس عشر الميلادي، تر: ماهر جرار وريما جرار ، نشر تحت عنوان المؤرخون الاباضيون ضمن منشورات مؤسسة توالت الثقافية، 2007، ص 42.

(10) البرادي أبو القاسم محمد بن إبراهيم: جواهر المنتقات في إتمام ما اخل به كتاب الطبقات، طبعة حجرية، قسنطينة، الجزائر، 1302هـ، ص 04.

(11) بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية، ط3، منشورات الفا، قصر المعارض، الجزائر، 2010.، ص 50.

(12) البرادي أبو القاسم بن إبراهيم: الجواهر المنتقاة، تح: احمد بن سعود السيابي، ط1، دار الحكمة، لندن، 2014، ص 21.

(13) البرادي: المصدر السابق، ص 29-35.

(14) عبد السلام المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط1، دار الفكر، لبنان، 1997، ص 170.

(15) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س 2، ج1، ص75.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الكتاب تراجم منقبيّة لأربعة أولياء هم: محمد الهوّاريّ، وإبراهيم التّازيّ، وأبو الحسن أبركان، وأحمد الغماريّ، وقد ذكرهما ابن مريم في بستانه معا في مواضع مختلفة كمؤلّفين للكتاب، وقد أفاد منه كثيرا في تراجمه.

لأبي عبد الله محمد السّنوسيّ تلميذ كتب له ترجمة أحصى له فيها مناقبه، التّرجمة عنونها بـ "المواهب القدسيّة في المناقب السّنوسيّة" وتلميذ السّنوسيّ الذي كتبها هو الملّاليّ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (حي سنة 897هـ/1491م)[1].

الكتاب ترجمة مستفيضة لحياة أستاذه السّنوسيّ، وهو المصدر الأوحد المباشر الذي يتعرّف على الإمام السّنوسيّ[2]، ألم يكن الملّاليّ مصاحبا له؟ كتبه صاحبه بنزعة صوفيّة تعكس روح العصر الذي عاشاه، وتكشف عن خصائص ذلك العصر كونها فاعلة فيه.

المواهب القدسيّة مخطوط جميل في فنّ التّراجم المنقبيّة، من مقدّمة وعشرة أبواب، اشتمل على أحوال أولياء الله، وما ينبغي من مجالستهم ومحبّتهم، ثمّ انصرف الملّاليّ بالتّعريف بشيوخ الإمام السّنوسيّ بدءا بوالده أوّل مشايخه، واسترسل بعد ذلك في تراجم مشيَخته بذكر كراماتهم، كما والتفت إلى ذكر تلاميذ السّنوسيّ وعدّهم ستة وعشرين تلميذا.

كتب الملّاليّ كتابه بنزعة صوفيّة واضحة، تجلّت في تحليله لمقامات الصّوفيّة، فذكر الكرامات، والمكاشفات، والرّؤى، كسمات تدلّ توصل إلى الولاية التي حظي بها الإمام السّنوسيّ، وبيّن طريق السّالك الذي يبتغي الكمال الرّوحيّ، وهي المنازل القدسيّة عبر الطّريق الصّوفيّ[3].

رتّب الملّاليّ كتابه ترتيبا منهجيا، بدأه بشخصية السّنوسيّ، ثم استرسل في بيان بقيّة حياته منتقلا من فترة لأخرى انتقالا سلسلا متمثّلا حياة إمامه كما عايشها، الترتيب والاستفاضة تلك، أثّرت فيمن جاء بعده، ولخّص كتابه، كابن مريم في بستانه، وأحمد بابا التّنبكتيّ في لآلئه[4].

التأليف على التّراجم عرف نقلة منهجيّة مع عليّ بن محمد الخزاعيّ (ت 789هـ/1387م)، فقد كتب كتابا في مرتّبا على الحرف والصّناعات التي كانت على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم وخلفاءه، مخرجا للأحاديث الواردة في إثبات تلك الصّناعة على عهده صلى الله عليه وسلم، ثمّ ينتقل في فصل أخر يترجم لمن تولّى تلك الحرفة، محيلا تراجمه على مصادر يذكرها مرتّبة في آخر فصول من فصول كتابه الذي وسمه بـ "تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة"[5].

---

[1] خليفي الشيخ: أبو عبد الله الملالي التلمساني ومؤلفه المواهب القدسية في المناقب السنوسية، ضمن مجلة الانسان والمجتمع، جامعة تلمسان، الجزائر، 2011، العدد 01، ص 104.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س 2، ج1، ص76.

[3] خليفي الشيخ: المرجع السابق، ص 107.

[4] سعد الله: المرجع السابق، س2، ج1، ص77. خليفي الشيخ، المرجع السابق، ص 105.

[5] علي بن محمد الخزاعي: تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة، تح: احسان عباس، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1985، ص 23-32.

الكتاب موسوعة للباحث في أصحاب الدّواوين والحرف والصّناعات على عهده صلى الله عليه وسلم، ففيه تراجم مترفة عن أولئك، وفيه تأصيل لتلك الحرف والصّناعات مؤيّدة بأحاديث النّبيّ، وتتبّعٍ لتطوّرها إلى عهد المؤلّف موثّقة بمصادر وتجارب شخصيّة.

من التّأريخ لدواوين الدّولة ومدنها إلى التّأريخ لدواوين الشّعر وأصحابه، فقد لملم ابن الأحمر "ملوك وأمراء وكبراء وشعراء المغرب والأندلس"[1]، في كتاب وسمه بـ"نثير الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزّمان"، فيه نيف وسبعون ترجمة لأدباء من المرينيّين والزّيّانيّين والحفصيّين.

الكتاب حلقة من سلسلة التّأريخ للأدب والشّعر، ما يجعل الباحث يستبين مواطن القوّة والضّعف في مسيرة الشّعر في بلاد المغرب، وهو حلقة من حلقات الأدب التّاريخيّ الذي يمكّننا من استجلاء واقع الحياة الثّقافيّة عموما في تلك الفترة، كما أنّه يسلّط الضّوء على العلاقات التي حكمت أقطار المغرب، وأحوال المعاش، والقصور، والحكم، وغيرها.

الحياة الفكريّة والثّقافيّة في بلاد المغرب ستشهد ازدهارا حمل المؤرّخين على التّرجمة لأهلها، وقد جمع كتاب "بلغة الأمنية ومقصد اللّبيب فيمن كان بسبتة في الدّولة المرينيّة من مدرّس وأستاذ وطبيب" لمؤلّف جهول (حي 820هـ/1417م) ثلّة منهم، وقد قصره على مدينة سبتة.

الكتاب فيه ذكر لشخصيّات علمية عاصرت الدّولة المرينيّة، بلغ تعداد من ترجم لهم فيه سبعة وأربعين رجلا وامرأة[2]، وما يميّز التّأليف ترجمته لتلك الطبيبة وهي "عائشة ابنة الشيخ ابي عبد الله بن الجيّار"[3]، وفيه دلالة واضحة على إسهام المرأة في الحياة العلمية في الدّولة المرينيّة.

ضمن فنّ الفهارس، كتب التّجيبيّ (ت 730هـ/1330م) برنامجه الذي أعاد النّظر فيه في مرويّاته التي أوردها في رحلته -التي سيأتي بيانها-، وقد حرّر فيه أسانيده ومشايخه الذين لاقى في أسفاره، ويبدو أنّه تلخيص لرحلته تلك.

سلك التّجيبيّ في برنامجه نهج من سبقه حيث جمع فيه ما حضره ذكره من مشائخ رحلته، ويبدو أنّ برنامجه أكثر دقّة -في الأسانيد- ممّا أورده في رحلته[4]، وقد أهدى برنامجه إلى وزير لم يذكر اسمه، لكنّه لقّبه بما يدلّ على مكانته.

تلك البرامج والفهارس تُكتب عادة نزولا عند رغبة السّلاطين أو المريدين، فمحمد القيسي الواد آشي (ت 749هـ/1349م) كتب برنامجه استجابة لطلب "أرباب الرّواية"[5]، فاستحضر من لقي منهم خلال رحلته، ومن أخذ عنه، أو كتب له بها من المشرق والمغرب.

---

(1) **ابن الأحمر: نثير الجمان في شعر من نظمني وأياه الزمان، تح: محمد رضوان الداية، ط2، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1987، ص 26.**

(2) **مجهول: بلغة الأمنية ومقصد اللّبيب فيمن كان بسبتة في الدّولة المرينيّة من مدرّس وأستاذ وطبيب، تح: محمد بن تاويت التطواني، منشور ضمن مجلة" تطوان"، العدد 09، 1964م، المغرب، ص 188.**

(3) **نفسه، ص 187.**

(4) **القاسم بن يوسف التجيبي: برنامج التجيبي، تح: عبد الحفيظ منصور، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص 09.**

(5) **شمس الدين محمد الواد آشي: برنامج الواد آشي، تح: محمد الحبيب الهيلة، مركز البحث العلمي وإحياء التّراث، كلية الشريعة، مكة المكرمة، السعودية، 1981، ص 41.**

رتّب الواد آشي برنامجه على منهج قوامه التّأريخ للشّيوخ ومؤلّفاتهم، فهو بذلك لم يشذّ عمّن سبقه في الفنّ، وقد عدّدهم في الفصل الأوّل تسعة وسبعين ومائتي شيخ، ممّن لقيه أو أجازه، ثمّ استعرض في فصل آخر مؤلّفاتهم التي درسها عليهم[1] وعدّدها ثمان وثلاثين مؤلّفا.

وقد استقصى الواد آشي شيوخه أولئك مرتّبين على قدر الأخذ عنهم، فيتدرّج في عرضهم وفق ذلك، كما أنّه يرتّبهم أيضا حسب بلدانهم التي ينتسبون إليها، فذكر التونسيّين، فالمغاربة، فالمصريّين، إلى المقدسيّين[2].

ونشير في اتّجاه التّأريخ للأنساب إلى تأليف محمد بن غالب ابن السّكّاك المكناسيّ (ت 818هـ/1416م) نصح ملوك الإسلام بالتّعريف بما وجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام" والغرض منه التّعريف بآل البيت، وكيفيّة التّعامل معهم.

سرد الكتاب أصول آل البيت الكرام[3]، وأنسابهم وتفرّعاتهم، ثم انتقل إلى تعامل الخلفاء والأمويّين والعبّاسيّين معهم، ووقف على بعض الحوادث التّاريخيّة التي وقعت لهم إذّاك، حيث بسط محنة مقتل سيّدنا الحسن وبعده الحسين رضي الله عنهما.

انتهج المؤلِّف في كتابه منهجا يقوم على بسط ملوك دول الإسلام المتعاقبة بعد دولة الخلافة الرّاشدة، وعند ذكر كل خليفة يتطرّق مباشرة إلى فعله مع آل البيت، ولا يسترسل في استخلافه ولا في شكل حكمه، وما تجدر الإشارة إليه أنّه لا يلقّبهم بالخلفاء، وإنّما يكتفي بالقول ،أيّام فلان" أو "عهد فلان"، في إشارة إلى خلافته.

بالنّسبة للسّيرة النّبويّة فإنّ أغلب ما أُلّف ضائع خصوصا في المغرب الأوسط خلال القرنين الثّامن والتّاسع، القرنين شهدها ثراء في كتابة سيرته صلى الله عليه وسلم، غير أنّ أغلب تلك المؤلّفات في عداد المفقود، ولو لم تحفظ لنا المصادر نتفا ممّا أُلّف لكان ذلك التّراث قد غُبر، وقد أحصى أحد الباحثين عددا منان المفقودات تلقّفها من المصادر[4].

غير أنّه يمكن أن نذكر -للاستئناس- ما ألّفه الثّعالبي عبد الرحمن (ت 875هـ/1470م) في هذا الاتّجاه، الكتاب موسم بـ "الأنوار في آيات النّبيّ المختار"، تحدّث فيه عن سيرته صلى الله عليه وسلم[5]، نهج فيه منهج ابن إسحاق في المغازي، حيث عرض نبذا من سيرة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، من خلال ما تناقلته التّوراة والإنجيل وأخبار الأوّلين[6].

---

[1] شمس الدين محمد الواد آشي: المصدر السابق، ص 42،41.

[2] نفسه، مقدمة المؤلف، ص 34.

[3] ابن السكاك محمد بن غالب: نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، تح: نزيهة المروني العلمي الادريسي، ص 17.

[4] حسين عبد الكريم: المرجع السابق، ص 118.

[5] عبد الرحمن الثعالبي: الأنوار في آيات النبيّ المختار، تح: محمد الشريف قاهر، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2005، ص 35.

[6] سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س 2، ج1، ص69.

ويمكن الاستئناس بديوان أحمد الخلوف (ت 899هـ/1494م) فيه مجموعة من القصائد في مدح النّبيّ صلى الله عليه وسلم كلّها مخطوطة، مثل "استرواح القبول بمدح طه الرّسول"[1]، ومن هذا الدّيوان نسخة من 246 صفحة يملكها المؤرّخ عبد الرّحمن الجيلالي رحمه الله[2].

نختم مبحثنا هذا بالثّعالبيّ عبد الرحمن بن محمد (ت875هـ/1471م) صاحب "غنيمة الوافد وبغية الطّالب الماجد"، وهو ثبت لمرويّاته ومؤلّفاته، قيّدها نزولا عند رغبة بعض السّائلين له عن إجازته فيما يحمله من مرويّات[3].

الفهرسة تلك، وثيقة تعطي فكرة عن الحركة العلميّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، ذلك أنّها حوت أسانيد ومؤلّفات أفاد منها الإمام الثّعالبيّ ومصنّفاته التي عدّد بعضها في فهرسته، ونظرا لكثرتها فقد أحال صاحبها السّائلين إلى فهارس أخرى قد كتبها[4]، وهي لا تزال مخطوطة إلى اليوم.

رتّب الثّعالبيّ تأليفه على منهج يبدأ فيه بذكر تصانيفه، ثمّ ينتقل إلى ذكر مرويّاته، وفي كل مرّة يذكر من أخذ عنه الرّواية، تجده يقدّم له ترجمة مقتضبة، يعرفه فيها، ولا يسترسل الثّعالبيّ في ببسط الكتاب الذي رواه، بل يكتفي بذكر عنوانه ومؤلّفه.

وللباحث في فهرسة الثّعالبيّ مادة في تعقّب علماء القطر، وفي بيان تآليف المشائخ الذين أخذ الثّعالبيّ عنهم، كما أنّ الباحث أيضا يستطيع استجلاء واقع الحياة العلميّة في الفترة التي عاصرها عبد الرحمن، والعلاقات التي ربطت أجزاء العالم العربيّ وقتذاك.

رابعا: أدب الرحلة

العلاقة بين فنّ الرحلة والجغرافيّة علاقة استلزاميّة، إذ لا يمكن الفصل بين الرّحالة والجغرافيّ إلّا في تفاصيل بسيطة، فمؤلّفوا الكتب الجغرافيّة بالأصل رحّالة، والرّحالة جغرافيّون عند تدوين رحلاتهم، فالجغرافيّ يجوب البلاد، ويخترق المسالك، ثم يلملم ذلك في كتاب يسمّى "المسالك والممالك".

والاختلاف الذي يقع بين كتب الرحلات وكتب المسالك والممالك، هو القصد والوصف، ذلك أن مؤلف الرحلة يذكر أسباب خروجه للرّحلة، ويدوّن ما لاحظه بعد عودته منها، وأما الجغرافيّ فإنّه يكتفي بذكر المسافات، وبوصف المدن التي يمر بها، وما استقلال الجغرافيا عن الرّحلة في وقت نتأخّر إلّا دليل على الرّابطة العلائقيّة بينهما.

من جهة أخرى، غلب الاعتقاد لدى الكثير من الدّارسين لأدب الرّحلة أنّها من جنس الأدب، فنصّها سرد لمشاهدات ومعاينات من خلال التّرحال وجَوْب للأقاليم حجًّا، أو قسرا، أو طلبا للعلم، ونتاجها حاصل تلك التّجربة الشّخصيّة بالأساس مشاهدة وسمعا، كلّ ذلك ممزوج بأحاسيس لها وقع على نفسيّة الرّحّالة، يتمثّله نثرا أونظما.

ورغم أنّ الاعتقاد ذاك له ما يبرّره منهجيًّا، لتقاطع الرّحلة مع الأدب في تفاصيل كثيرة، إلّا أنّ تصنيفها ضمن حقل معيّن فيه تجنّ على ما تحفل به من علوم، ومعارف تاريخيّة، وجغرافيّة، وفلسفيّة ...وأدبيّة[5].

---

[1] **سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س2، ج1، ص81.**

[2] **الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج2، ص64.**

[3] **عبد الرحمن الثعالبي: غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، تح: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2005، ص 25.**

[4] **نفسه، ص 25-26.**

[5] **جميلة روباش: ادب الرّحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2015/214، ص 09.**

تلك المقاربة الجديدة التي نظرت إلى نص الرّحلة على أنّه رافد من روافد التّأريخ، تأتّت من القيم المعرفيّة التي عُدمها المؤرّخ في النّص التّاريخيّ المتخصّص، فقد تكشّف الباحثون من خلالها جوانب من حيوات البشر في الأقطار والبلدان، وتمكّنوا من استجلاء الوقائع والجزئيات التي أغفلتها كتب التّاريخ.

فالرّحلة إذن صورة الواقعة التّاريخيّة -بوجدانها وأحاسيسها- في الزّمان والمكان، ونقل لمشاهد تلك الحوادث وفق خبرات الرّائي وأحواله، فهي بُعد من أبعاد التّاريخ، خرجت به من حدوده الضّيّقة، إلى دائرة أوسع قوامها "وراء كلّ نصّ تاريخ".

ومن هنا فإنّ اتّصال الرحلة بالتّأريخ حتميّة فرضها البحث والاستقصاء الذي هو لبّ التّاريخ، غير أنّ المراهنة على النّص وحده قد لا يجلّي الحقيقة، فالرّحالة بمشاعره قد يحيد عن الموضوعيّة، الأمر الذي يتطلّب إجهاد الذّات، وإيقاظ الخبرات، عند المقاربة للحادثة التّاريخيّة بالنّص الرّحلاتي.

حقل الكتابة التّاريخيّة على أدب الرّحلة في بلاد المغرب الإسلاميّ عموما مفقود، وسنرى أنّ رحلات المغاربة خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين معدودة، والملاحظة هنا أنّ أغزر ما أُلّف وعُثر عليه في هذا الاتّجاه مصدره المغرب الأقصى، وأمّا القطرين الآخرين فقد فُقدت تآليفهما.

وسأكتفي هنا ببسط ما أُلّف في هذا الاتّجاه لا على سبيل الإحصاء والاستقصاء، وإنّما من باب التّلميح إلى ولوج مؤرّخي القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين حقل الكتابة التّاريخيّة على الرّحلة، وسأحاول أيضا استجلاء مناهج التّأليف فيها.

ممّا نذكره في هذا المجال في المغرب الأدنى، رحلة عبد الله بن محمد بن أحمد التّيجانيّ التّونسيّ (حيّ سنة 717هـ/1318م)[1]، وقد كان مجال رحلته محدودا، ذلك أنّها كانت من تونس إلى ليبيا، حيث فارق التّيجانيّ "مخدومه"[2] "يحي بن زكرياء الحفصيّ"[3] الذي واصل رحلته لآداء فريضة الحجّ، وقفل التّيجانيّ عائدا إلى بلاده على طريق غير طريق الذّهاب.

وعلى الرّغم من قصر رحلته تاريخا وجغرافيّة، فقد زوّدنا التّيجانيّ بمعلومات وافية عن المناطق التي عاينها، وأخبار المدائن التي مرّ بها، مع ذكر فقهائها، وأدبائها، وصلحائها، مع التأصيل لقبائلها وأنسابها[4]، فهي بالتّالي معجم جغرافيّ تراجميّ شامل عن المنطقة.

يستشهد التّيجانيّ بمصادره[5]، ويعرض رحلته بأسلوب خال من التّعليق وإبداء الرّأيّ، وقد رتّب مادة كتابه على أساس جغرافي، بحيث يذكر البلدان التي نزل فيها وفق خط المسير، ويسترسل في ذكر المدينة واصفا إيّاها وصفا دقيقا مستغرقا كل جوانب الحياة فيها، طبيعيّا وبشريّا.

---

(1) عبد الله بن محمد التيجاني: رحلة التجاني، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، مقدمة المحقق، ص و.

(2) نفسه، مقدمة المحقق، ص م- ط.

(3) اغناطيوس يوليانوفيتش كراتشوفيسكي: تارخ الادب الجغرافي، ج01، تع: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التاليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، مصر، دت، ص 383.

(4) عبد الله بن محمد التيجاني: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص مح.

(5) عبد الله بن محمد التيجاني، نفس المصدر، ص 07، 14.

في المغرب الأدنى -دائما- نذكر رحلة لمحمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحميريّ التّونسيّ (ت 726هـ/ 1326م)، وهي معجم جغرافيّ وسمه بـ"الروض المعطار في خبر الأقطار"، وقد اقتصر فيها مؤلّفها على ذكر الأقطار المشهورة لدى النّاس، والتي ترتجى الفائدة منها والحكمة[1].

ويبدي ابن عبد المنعم رأيه في الكتاب بالقول إنّه "أعظم فائدة" من نزهة المشتاق، فهو أغنى أخبارا، وأوسع في سرد الأحداث، وفي دقة وصف البلاد، حيث قسّم كتابه قسمين، أحدهما وصف البلاد أو القطر، والثّاني ما اشتملت عليه من أخبار ووقائع[2].

وقد التزم منهجا كتب به كتابه، فرتّب موادّه على حروف المعجم، مبرّرا ذلك بتسهيل وصول القارئ للموضع الذي يريد[3]، هذا ولم يتطرّق ابن عبد المنعم للأماكن التي لا طائل من ذكرها تلافيا لـ "الاستثقال" الذي ينجر عن ذلك مع انعدام الفائدة.

ختام رحلات المغرب الأدنى، رحلة القلصاديّ علي بن محمد القرشيّ (ت 891هـ/1486م) البسطيّ أصلا، الباجيّ وفاة، التي سلكها بهدف الحجّ والاستزادة المعرفيّة، فقد كانت رحلة امتزجت فيها العبادة بالعلم[4]، المسمّاة "تمهيد الطّالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب"[5].

قصد القلصاديّ من تدوين رحلته التّعريف بمشايخه[6]، غير أنّ امتدّ مستغرقا التّاريخ والجغرافيا، ذلك أنّه ذكر المعالم والبلدان، وأورد الأحداث والأخبار التي عاينها هناك، فكانت جامعة لكلّ ذاك، واصفة مسالك طرق الحجّ، ترجم فيها لثلاث وثلاثين من شيوخه، ومصنّفاتهم[7].

وصف القلصاديّ للمشاهد والبلدان تميّز غالبا بالإيجاز، فهو لا يقف على التّفاصيل الدّقيقة ولا يتوسّع في بسطها، غير أنّه يولي بالغ الأهمّية للسّند، ويستوفي مشاهد الأماكن المقدّسة التي زارها، ويؤرّخ لنقاط تنقّله من مكان لآخر، إيجازه ذاك يشمل حتى تراجمه لشيوخه، وفي كلّ ذلك هو مجانب للتّكلّف.

أضحت الرّحلة سند علماء القرون التّالية للقرن التّاسع الهجريّ، ومعتمد الباحثين في الحياة العلميّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، فهي وثيقة تسلّط الضوء على مرحلة مهمّة من تاريخ المنطقة، تصوّر نشاط العلماء، وواقع الحياة بصفة عامّة[8].

---

(1) **محمد بن عبد المنعم الحميري التونسي: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: احسان عباس، دط، مكتبة لبنان، لبنان، 1974، ص 01.**

(2) **نفسه، ص 01-02.**

(3) **نفسه، ص 01.**

(4) **أبو الحسن علي القلصادي: رحلة القلصاديّ، تح: محمد أبو الاجفان، دط، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، مقدمة المحقق، ص 70.**

(5) **نفسه، ص 82.**

(6) **نفسه، ص 81-82.**

(7) **نفسه، مقدمة المحقق، ص 71.**

(8) **القلصادي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص 72-73.**

في المغرب الأوسط، دوّن المقريّ الكبير التّلمسانيّ أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالجدّ (ت 749م/1349م) رحلته إلى الحجاز سمّاها "رحلة المتبتّل، نظم اللآلي في سلوك الأمالي"، وقد كتبها بروح الصّوفيّ الفقيه، القاضي الأديب، المؤرّخ[1].

طاف المقرّيّ بأرض المشرق زائرا بلدتن عدّة، التقى خلالها بفقهاء أعلام أمثال أبي حيان، وابن القيّم، وابن دقيق العيد، ثمّ عاد إلى تلمسان والتقى أيضا أبو علي حسن السّبتيّ، وأبا القاسم العزفيّ، وصحب أبا عنّان المرينيّ إلى فاس[2].

تميط الرّحلة اللّثام عن مغمور العلاقات الثّقافيّة بين أقطار المغرب الإسلاميّ، فكانت معتمد من جاء بعدها من المشتغلين بالتّأليف في المشيَخة والفهرسة، وهي الفرصة التي أتاحتها للتّبادل الثّقافيّ في البلاد المغربيّة[3].

يصف المقرّيّ في رحلته كلّ من لقيه من شخصيّات، وما زاره من بلدان، ووصفه ذاك خال من التّكلّف والاصطناع، يركّز من خلاله على أعمال الموصوف المهمّة بواقعيّة وصدق، وتراه يولي بالغ الاهتمام بالسنّد والرّواية[4].

للرّحلة دلالات تاريخيّة حضاريّة، تأتّت من خلال استجلاء الشخصيّات والمسالك والبلدان، وقد يتكشّف الباحث من وراءها قوافل التجارة وطرائقها، كما يستجلي السّلع والبضائع[5]، ومن ثمّ الواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ للأقاليم الموصوفة من خلال قوافلها.

من الرّحلات المغمورة المفقودة هناك أيضا، رحلة منصور بن علي الزّواويّ البجّائيّ أصلا، التّلمسانيّ موطنا ووفاة (ت 770هـ/1369م)، وقد كانت رحلة في طلب العلم، تنقّل خلالها بين أقطار المغرب الإسلاميّ بأندلسه، وقد سأله ابن الخطيب لسان الدّين عن مشيَخته، فكتب له من لقيهم في رحلته العلميّة تلك[6]، ولولا نقولات ابن الخطيب عنه ما عرفنا لمنصور رحلة.

وصف منصور الزّواويّ مشيَخته أوصافا مطنبة توحي باحترامه لهم، ولما وصلت الأوصاف تلك لابن الخطيب، أراد أن يضمّنها إحاطته فتصرّف في تلك التّراجم أحيانا، ونقلها كما هي أحيانا أخرى.

استمرّ البجّائيّ في سرد مشيَخته التي طلبها منه ابن الخطيب، فاستوفى جملة من علماء بجاية، وثلّة من علماء تلمسان، وذكر أيضا من لقي بالأندلس من مشائخ، ثمّ استطرد في ذكر من أجازه من أولئك، ومنهم الألبيريّ أبو عبد الله محمد الفخار.

الرحلة مفقودة، وما وصلنا متقطّعا في إحاطة ابن الخطيب أماط اللّثام عن العلاقات التي كانت تربط مدن المغرب والأندلس بجاية وتلمسان وغرناطة، كما قدمت صورة حيّة عن الواقع السّياسيّ الذي طبعته الدّسائس والمؤامرات التي راح ضحيّتها البجّائيّ نفسه.

---

(1) حفناوي بعلي: الرحلات الحجازية المغاربية ، المغاربة الأعلام في البلد الحرام –دراسة نقدية توثيقية ثقافية– دط، دار اليازوري العلمية، 2017، ص 271،276.

(2) نفسه، ص 272.

(3) نفسه، ص 275.

(4) نفسه، ص 276، 284.

(5) حفناوي بعلي: المرجع السابق، ص 294.

(6) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س 1، ج02، ص322-326.

إضافة إلى منصور الزّواويّ، أفادنا أبو زيد عبد الرحمن الثّعالبي (ت 875هـ/1471م) برحلته العلميّة بداية من مدينته يسّر، ويبدو أنّ رحلته ذيل على فهرسته ذلك أنّه عطف عليه ذكر شيوخه ومن لقيه في رحلته[1].

رحلة الثّعالبيّ من الحجم الصّغير، وقد امتدت إلى المشرق (مصر)، وذكر فيها من لقيه من مشائخ هناك، واقتصر على ذكر من أخذ عنهم، ثم استرسل في ذكر من أجازه مثل ابن مرزوق الجزائري، وعبد الواحد الغرياني التّونسيّ، والحافظ العراقيّ[2].

رحلة الثّعالبيّ لا تكلّف فيها، عرضها صاحبها بسيطة سهلة، مرتّبة على خطّ رحلته، يذكر خلالها شيوخه تواليا حسب المنطقة أو البلد الذي يلجه، وسيترسل في بسط العلوم التي أخذها عن شيوخه، هذا ولا يذكر الثعالبيّ تواريخ دخوله المدن إلّا نادرا، كما أنّ منهجه في بسط تجواله لم يكن منسّقا، لكثره غدواته وروحاته على القطر الواحد، في وقت وجيز.

وفي أقصى المغرب الإسلاميّ، كتب ابن رشيد الفهريّ السّبتيّ (ت 721هـ/1322م) رحلته الحجازيّة "ملء العيبة بما جُمِعَ بطولِ الغيبةِ في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة"، وقد كتب رحلته خلال غيبته، وأتمّها بعد رجوعه إلى موطنه[3].

ما يميّز رحلة ابن رشيد إذن، هي أنّها يوميات يدوّنها مؤقّتة، فهو يكتب رحلته دون الاعتماد على ذاكرته، وهو ما يتيح له جمع ما أمكنه من المعلومات وتقييدها دون نسيان، وقد ضمنها شيوخه الذين أخذ عنهم في المشرق والمغرب، واصفا طريقه في إفريقيّة.

رتّب ابن رشيد رحلته دون التّقيّد بمنهج معيّن، فقد جمع ما تيسّر له من مشاهد، وأسماء الشّيوخ عن "غير رويّة"، ولذلك لم يلتزم بالتّسلسل الزّمنيّ لا في ترتيب الأحداث ولا في عرضه لشيوخه، فتراه يقدّم ما لا ينبغي أن يقدّم وهكذا[4].

هذا وقد أثنى على الرّحلة جمّ من العلماء الذين أخذوا عن ابن رشيد فيما بعد، ذلك أنّها حوت من الفوائد العلميّة والتّاريخيّة ضروبا، وهي "ديوان لم يسبق له مثيل" كما تمثّلها ابن الخطيب في الإحاطة.

رحلة التّجيبيّ القاسم بن يوسف السّبتيّ (ت 730هـ/1330م) "مستفاد الرّحلة والاغتراب" هي الأخرى خلاصة تجربة توثّق مشيَخة صاحبها، وتراجم وافية لبعض الرّجال الذين لقيهم في طريق رحلته، وسيرهم، وبعض تصانيفهم[5].

---

[1] عبد الرحمن الثعالبي: رحلة الثعالبي، تح: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2005، ص 107.

[2] نفسه، ص 115، 119،

[3] محمد الفاسي: ابن رشيد الفهري ورحلته الى المشرق، ضمن مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 05، جامعة الدول العربية، مصر، 1959، ص 34-38.

[4] السّبتيّ ابن رشيد محمد بن عمر: رحلة ابن رشيد السبتي، درا: احمد حدادي، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003، ص 238.

[5] عبد السلام المري: المرجع السابق، ص 232.

رحلة التّجيبيّ تراجم وافية لخّصها في برنامجه، ووصف دقيق لطريق الحجّ، ومدنه وموانئه، تعرض فيها لبعض المشاهد الصّوفية في مصر، بل إنّه استقصى حتى نظام حكم المماليك هناك[1].

هذا وقد تعرض التّجيبيّ للبدع التي كانت تقام في مكّة منكرا ذلك، وفي ردوده لها يلتزم منهج المحدِّثين عند سرده للرّواية، كما أنّه يعدّد رواياته في المسألة الواحدة، ويلتزم الدّقة الشديدة عند النّقل، فكانت معلوماته غاية في الدّقة[2].

تعرّض التّجيبيّ في رحلة لأحوال العباد وطبائعهم، وبيان سلوكاتهم ونقدها بميزان الشّرع، فهي بذلك إضافة للباحث في تاريخ مكّة ومصر، ومصدر من مصادر التأريخ للحياة الدّينيّة فيهما خلال تلك الفترة.

نموذج أخر من نماذج كتابة الرّحلة مثّله إبراهيم بن الحاج النّميريّ (ت 768هـ/1367م) وما يُميّزها أنّها "رحلة غيريّة"، فهي من وحي السّلطان أبي الحسن المرينيّ، وبقلم إبراهيم ابن الحاج النّميريّ، وقد وسمها بـ "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب".

كان ابن الحاج هنا النّاطق الرّسميّ لأبي الحسن، بطل الرّحلة ومنفّذها[3]، وقد وصف فيها رحلة أميره إلى تونس (الزّاب)، هذه الرّحلة -كما وصفها محقّقها- ذات صبغة سياسيّة حربيّة، ذلك أنّ سبب خروج أبي الحسن هو إخضاع بعض الأقاليم لسلطة المرينيّين[4].

دوّن ابن الحاج ما كان يطلبه منه أبو الحسن، فبعد فتح كلّ مدينة يطلب منه كتابة كتاب لذلك، كما نجده يحرّر رسائل يبعثها أبو الحسن إلى النّواحي[5]، ويصف لنا المشاهد التي أمر أبو عنان ببنائها، والأماكن التي زارها ووقف عندها.

عالج ابن الحاج في رحلته مواضيع سياسيّة وتاريخيّة ودينيّة، كان خلالها فاقدا لحريّة التّأليف فيها، الأمر الذي جعله شديد اليقظة والحذر من زلّات القلم، والنّزعات النّفسيّة، يتّبع حركة أبي الحسن ويستقصي جزئيّاتها، ويعتني بنقل الأخبار والوقائع، ولذلك فقد غلب السّرد والوصف على رحلته، وصف يميّز بالطّول في مواطن، كما أنّه تميّز بالقصر والاختصار في مواطن أخرى.

أخيرا تجدر الإشارة أنّ "فيض العباب" رحلتان في رحلة واحدة، الأولى رحلة محليّة في إقليم المغرب الأقصى، والثّانية امتدّت إلى غاية بلاد الزّاب، وفي كلا الرّحلتين لا يعدم باحث التّاريخ مادّة خبريّة عن تلك الأقاليم.

وأعظم ما أُلّف في هذا الفنّ على الإطلاق رحلة ابن بطوطة محمد بن عبد الله (ت 770هـ/1369م) ". تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، فهذا المؤرّخ قد انتظمت رحلته مستغرقة العالم الإسلامي كاملا، وإن

---

(1) محمد فهمي امبابي: البدع في مكة من خلال رحلة التّجيبي السبتي، ضمن مجلة كلية الاداب، جامعة بنها، مصر، 2015، العدد 39، ص 385- 387.

(2) نفسه، ص 387.

(3) الرحلة وجه من أوجه السّيرة الغيريّة "رحلة ابن الخاج النميري انموذجا"، ضمن مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، العدد 1، 2015، مج 28، ص 159.

(4) ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب، تح: محمد ابن شقرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1990، ص 157.

(5) ابن الحاج: المصدر السابق، ص 28-29.

كانت صياغة الرّحلة لا تعود لصاحبها، فقد أملاها ابن بطوطة على الكاتب محمد بن جزّي الكلبيّ، كاتب بني مرين بفاس[1].

رحلة ابن بطوطة وثيقة تاريخيّة حَضارية ثقافية، حاول صاحبها جهده التّمسّك بالحدث لتّاريخيّ زمانا ومكانا، وسرده موجزا ومفصّلا، مستغرقا الواقع الحضاريّ للمجتمعات، من خلال بيان سلوكاتهم، والتفاعلات الحيواتيّة لديهم، وفي كثير من الأحيان كان من الفاعلين في ذلك الواقع، من خلال مصاهراته، ووظائفه التي تقلدها هنا وهناك[2].

تجاوزت الرّحلة فنّ المذكّرات إلى التّأريخ للعالم الإسلاميّ وذكر ممالكهم، ويتحدّث أيضا عن شبكة العلاقات التي كانت تربطهم، ومن خلاله تكشّف الباحثون المراسيم والتّقاليد السّلطانيّة في مختلف الأقاليم، الأمر الذي يوحي بأنّه ليس مجرّد سائح يهوى السفر، وإنّما هو نقطة تلاقح حضاريّ تتشكّل عندها ثقافات العالم.

الرّحلة صياغة أدبيّة أملاها ابن بطّوطة من ذاكرته، واختزنت كل تلك الأعلام والأماكن[3]، والحكم على منهجها وأسلوبها هو في الحقيقة حكم على ابن جزّيّ، وعلى الرّغم من كونه لم يتصرّف في جوهر القصّة، إلّا أنّه كان يتعامل معها اختصارا وإطنابا، الأمر الذي افتقر إلى التّناسب والتّناسق[4]، وابن بطّوطة يذكر مصادره غالبا بقوله "حدّثني" ويسند القول لأهله في جلّ ما ينقله[5].

اعتمد ابن بطّوطة المقارنة، عند ملاحظة لقرينة تشبه تلك التي في بلاده الأصل، فتراه يقارن الأودية في الأناضول بأودية المغرب الأقصى -تقريبا للفهم- وبين أسطول المغرب والصّين، باب المقارنة ذاك صورة استحضار الذّات من خلال الغيْر، وشكل من أشكال الحنين للوطن[6].

ابن الخطيب الذي مرّ بنا، له رحلة وسمها بـ"نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" نصف أجزاءها مفقودة، وما عُثر عليه هو الجزء الثّاني والثّالث، وهي خلاصة مأساة ومحنة لخّصها ابن الخطيب في عنوانها، فكانت أن سخّر كل ثقافته و"نفضها" في كتاب يحكي "عُلالة" الاغتراب، وما استعمله في غربته ليؤنس وحدته[7].

---

[1] عبد السلام المري: المرجع السابق، ص 229.

[2] محمد بن عبد الله بن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج01، تح: عبد الهادي التازي، منشورات اكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1997، مقدمة المحقق: ص 91.

[3] نفسه، مقدمة المحقق، ج01، ص91.

[4] كراتشوفسكي اغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الادب الجغرافي العربي، تع: صلاح الدين عثمان هاشم، مرا: ايغور بليايف، دط، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1963، ص 426. شادي حكمت ناصر: ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة: نسيج الواقع والخيال، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآداب، الجامعة الامريكية في بيروت، لبنان، 2003، ص 18.

[5] محمد بن عبد الله بن بطوطة: تحفة النّظّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج 02، تح: محمد عبد الرحيم، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، دت، ص 317.

[6] نفسه، ج 02، ص221.

[7] لسان الدين بن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج 03، تح: السعدية فاغية، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1989، مقدمة المحقق، ص11.

أحداث الرّحلة تغطّي فترة زمنيّة افترضها محقّقا الجزأين الموجودين الثّاني والثّالث، أنها تمتدّ من 760هـ/1359م إلى 764هـ/1363م[1]، وهي في مجموعها تهتمّ بأحداث الأندلس والمغرب المعاصرة لفترة محمد الخامس الغنيّ بالله، صاحب ابن الخطيب في حلّه وترحاله.

عالج ابن الخطيب في رحلته مختلف جوانب الحياة، فتعرّض إلى الجفاف الذي شهده المغرب، والفيضانات بعد ذلك، إضافة إلى الطاعون الذي أتى على السّكان، كما أنّه قدّم توصيف سياسيّا لأحداث العصر مبرزا الفتن والاضطرابات التي شهدتها الدّولة المرينيّة أخريات حياتها، حيث الثّورات الدّاخليّة وانقسام الدّولة إلى فاسيّة ومرّاكشيّة، وببعد عودته للأندلس واستقراره فيها تحدّث عن قصر الحمراء وما أحدثه فيه محمد الخامس من احتفالات بمناسبة المولد.

يستطيع الباحث أن يتكشّف من الكتاب حقائق تاريخيّة، ويخرج بتصوّر شامل عن الأوضاع الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصادية، لكلّ من عدوتي الأندلس والمغرب، كما أنّه وصف للعلاقات الدّبلوماسيّة التي ربطت الإقليمين فترة من الزّمن.

ذالكم إذن، تمثّل لواقع التأليف التّاريخي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، حاولت من خلاله استجلاء اتّجاهات الكتابة التّاريخيّة أثناءه، والإلمام بمناهجها، حتى نستبين مسارها، ومن ثمّ نستقرأ خصائصها، ونستقصي العوامل المؤثرة فيها، وهو موضوع الفصل القادم بإذن الله.

[1] **لسان الدين بن الخطيب، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ج03، ص13-19.**

الفصل الثالث: الكتابة التاريخية في المغرب الاسلامي خلال القرنين 8-9هـ/14-15م..المؤثرات والخصائص.

مدخل

اولا: المؤثرات الثقافية

1- العلماء والأمراء.. جدليّة الاهتمام والبحث عن الشرعية (العامل السياسي)

2- البحث عن الذّات (النّزعة الصوفية)

3- الرّحلة العلميّة

4- مذهب مالك وأثره في التّأليف التّاريخيّ.

5- اهتمام الحكّام بالعلم

ثانيا: خصائص الكتابة التّاريخيّة في المغرب الإسلاميّ

1- الخصائص الموضوعاتيّة (ثراء حقول التّأليف)

2- الخصائص المنهجيّة (تمثّلات مناهج التّدوين التّاريخيّ)

الفصل الثالث: الكتابة التاريخية في المغرب الاسلامي خلال القرنين 08هـ-09هـ/14-15م.. المؤثرات والخصائص.

توطئة:

كنت قد بيّنت في الفصل التّمهيديّ من هذا البحث ظروف القرن السّابع والثّامن الهجريّين، وهي الظّروف التي عاصرتها الكتابة التّاريخيّة محل الدّراسة، واليقين أنّ مسار الكتابة التّاريخيّة في كلّ طور من أطوار التّاريخ رهن ظروف وعوامل مؤثّرة فيه أفقيّا وعموديّا، وصابغة له صبغة معيّنة تميز الكتابة في قطر ما عن قطر آخر.

والواقع أنّ الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب استقت خصوصيّتها من عوامل أثّرت في اتّجاهاتها، ومواضيعها، وهو تقليد جرت عليه الكتابة التّاريخيّة في كلّ مرحلة من مراحل تشكّلها وتطوّرها، عبر حقب تاريخ المغرب الإسلاميّ.

ويكفي أن أذكّر هنا، أن غلبة التّأليف في تاريخ الدّول والملوك مردّه إلى التّمكين السّياسيّ للدّولة ذلك التّمكين الذي لا يكتمل بالسّيف وحده دون التّاريخ، فهو بحاجة دائما إلى ثورة تأليفيّة تؤصّل لسلاطين تلك الدّولة، ومن ثمّ شرعنة حكمهم في أوساط العامّة.

يكفي هنا أيضا أن نستجلي منحنى الكتابة التّاريخيّة في أي من دول المغرب الإسلاميّ، فتراه يتذبذب صعودا ونزولا، وفق قرب الحاكم وبعده عن العلم والعلماء، فما أُلّف أيّام أبي الحسن المرينيّ، قد يفوق ما أُلّف في أيّام ابنه مثلا، فالمعادلة يتحكّم فيها المتغيّر الذي هو الحاكم، ومدى اهتمامه بالعلماء.

مسار الكتابة التّاريخيّة مرهون أيضا بالصّراعات الدّاخليّة والخارجيّة، وقد كانت للاضطرابات التي أحدثتها تلك الصّراعات عظيم الأثر على العلماء، فقد وجدت أن جلّهم هاجر نحو المشرق وتوفّي هناك، أمثال أبي عصيدة البجّائيّ وغيره كثير.

الصّراعات وما أحدثته من اضطرابات، حذت بالبعض اختيار حياة العزلة وترك الدّنيا، فالثّعالبيّ والسّنوسيّ مثلا، انقطعوا للتّآليف الصّوفيّة[1]، التي غذّت التّاريخ عن طريق المناقب، والسّير، والتّراجم.

تلكم إذن، لمحة عن علاقة الرّابطة العلائقيّة التي حدّدت مسار الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب، وهي نفسها التي ستسمها بميزات تجعلها تستقلّ بخصائص عن غيرها من الكتابات في الأقطار الأخرى، وإن كانت المؤثّرات المشتركة ستؤدي ضرورة إلى خصائص مشتركة.

أوّلا: المؤثرات الثقافية

01- العلماء والأمراء.. جدليّة العالم ..السلطان والبحث عن الشرعية (العامل السياسي)

شهد القرن السّابع الهجريّ سقوط الدّولة الموحّديّة، وبروز ثلاث دول في بلاد المغرب الإسلاميّ، تلك الدّول تنافست حكم المغرب سلكت سياسة التّمكين لها بسلطان السّيف تارة، وبسلطان القلم تارة أخرى، ذلك أنّ كلّ دولة قامت بتوظيف التّاريخ خدمة لمشروعها.

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س2، ج1، ص44.

الواقع ذاك، حذا بحكّام الدّول نحو التّنافس في احتضان العلماء والاهتمام بالعلم الظّاهرة تلك، طبعت بُلَطَ دول المغرب التي عجّت في أحايين كثيرة بالمؤرّخين والكتّاب الذين استقدمهم الأمراء بدافع الحبّ في العلم تارة، وبدافع البحث عن المجد تارة أخرى[1].

إضافة لتلك النّيّة التي رافقت اهتمام الأمراء بالعلماء، هناك التّهديد الأجنبيّ لسواحل المغرب الإسلاميّ الذي كانت له عواقب وخيمة على الحياة الثّقافيّة عموما، والكتابة التّاريخيّة خصوصا، فقد دفعت بعض العلماء إلى الهجرة، كما التجأ آخرون إلى البُلَط، وآثر آخرون حياة العزلة والزهد[2].

إذن، فقد تحكّمت العلاقة بين الأمير والمؤرّخ في رسم حركة التّأريخ في بلاد المغرب الإسلاميّ، ولنا أن نتذاكر أنّ جهود أمراء الدّول الثلاث في خدمة العلم وأهله، ورعاية العلماء كانت رهن ثقافة الأمير، ومستواه المعرفيّ.

يكفي هنا، أن نذكر أنّ أبا عبد الله محمد بن أبي تاشفين الزّيّانيّ كان مجلّا للعلماء، مقرّبا لهم، فقد آوى في قصره ثلّة من علماء العصر، منهم التّنسيّ محمد بن عبد الله، ومثله فعل السّلطان أبو فارس الحفصيّ مع ابن قنفذ[3]، وكان أبو عنّان المرينيّ يتابع شرح المقرّيّ لصحيح مسلم[4].

الدّعم التّاريخيّ للسّلطان كان -أيضا- بمحاولة المؤرّخين رفع أنساب سلاطينهم إلى البيت الشّريف، فقد كتب أولاء ما كتبوا تزلّفا للحكّام، ويمكن أن نذكر هنا ما كتبه ابن أبي زرع في "أنيسه"، وابن الأحمر في "روضه"، وما ألّفه يحي ابن خلدون في "بغيته"، والزّركشيّ مؤرّخ الدّولة الحفصيّة.

وقد سار المرينيّون على الخطى نفسها، فاتخاذ مرّاكش عاصمة له دلالة تاريخيّة وهو وراثة العرش الموحّديّ، إضافة إلى ذلك، أنّ ادّعاء الأصل العربيّ كان أيضا من قبيل دعم الشّرعيّة التّاريخيّة بشرعية سلالاتيّة لتثبيت الحكم[5].

البحث عن الشّرعية ذاك، عرف ممارسة عمليّة تمثّلها أبو حمو موسى الثّاني من خلال زواج ابنته من أبي عبد الله الشّريف التّلمسانيّ، وبهذا أضحى جزء من الأسرة الزّيّانيّة من أصول شريفة دون اعتبار للتّأليف التّاريخيّ[6].

حركة التّأليف التّاريخيّ ستتأثّر بقربها من بلط الحكّام، وكنت قد أشرت في الفصل الثّاني إلى تواريخ سلطانيّة قعّدت لدول المغرب الإسلاميّ تحت طائلة الأيديولوجيا، ويكفي هنا الإحالة عليها لندرك أنّ الكتابة التّاريخيّة قد دأبت على مجاراة السّلطان، والتّوجّه بأمره، وهذا الذي حصل من ابن مريم في "زهر البستان في دولة بني زيّان"، ومع ابن الأحمر في "النّفحة النّسرينيّة واللّمحة المرينيّة"، وفي "روضة النّسرين في دولة بني مرين"، اللّذان كتبهما في بلاط أبي سعيد عثمان بن أحمد المرينيّ، وإذا شئنا مع ابن الشّمّاع في "الأدلّة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة"، الذي كتبه للخليفة الحفصيّ أبي عمرو عثمان.

---

(1) عبد الكريم حساين: المرجع السابق، ص 142.

(2) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س 2، ج1، ص44.

(3) نفسه، س 2، ج1، ص44.

(4) فافة بكوش: المقري ورحلته العلمية بين تلمسان وحواضر المغرب الاسلامي، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2012، ص 153.

(5) أبو ضيف مصطفى: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ج01، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1960، ص171.

(6) أبو ضيف مصطفى: المرجع السابق، ج1، ص153.

من جانب آخر، كان للاضطرابات السّياسيّة التي عرفتها المنطقة بالغ الأثر على مسار الكتابة التّاريخيّة في المنطقة، ونشير هنا إلى إنّ الاضطرابات كانت داخل الأسرة الحاكمة الواحدة، وبين دول المغرب الثلاث، والتّحرّشات الأوروبيّة على سواحل المغرب الإسلاميّ، وما كان من انعكاساتها على العلماء، حيث هاجر البعض قسرا، في حين ألّف البعض في تلك النّزاعات.

وقد تحدّث ابن قنفذ عن احتلال الأجانب لثغر بجاية وعنّابة، ودخولهم القل، ويمكن للباحث أن يستقي من نوازل المازونيّ ضعف الدّولة الزّيانيّة، وانعدام الأمن، والظّلم الذي حذا بالكثير من العلماء إلى الهجرة، ومن الذين هاجروا إلى المشرق الفضل بن محمد المشداليّ، وابن علي وأبو عصيدة البجّائيّين، وناصر بن أحمد المزنيّ[1]، ومحمد بن عبد الكريم المغيليّ الذي استقرّ في السّودان القديم[2]، الأمر الذي لو لم يحدث لكانت الكتابة التّاريخيّة قد عرفت جرّاءه نهضة أكبر ممّا بسطت -آنفا- في بلاد المغرب خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، بل وحتّى بعدهما.

02- البحث عن الذّات (النّزعة الصّوفيّة)

العلماء أولئك لم يكونوا على نفس الدّرجة من العلاقة بالحاكم، فقد فضّل آخرون حياة العزلة والانقطاع عن النّاس، وهجر الفتن ودسائس السّياسة، وقد كان من أسباب تصوّف بعض العلماء ضغط الحكّام[3]، وكانوا ينشدون في تصوّفهم بحثا عن الذّات التي أنفت عيشة الانقلابات، الأمر الذي سيكون له انعكاس على النّتاج التّاريخيّ في بلاد المغرب خلال القرنين محلّ الدّراسة.

وقد طغت على القرن التّاسع روح التّصوّف العمليّ، والالتفاف حول الشّيخ، وفيه تشكّل عقل المؤرّخ الذي سينحو منحنى التّراجم المنقبيّة، والكتابة في السّيرة النبويّة، وإذا علمنا أنّ أغلب من سلك طريق التّصوّف تلك فقهاء، فإنّ ذلك لا يعني أنّ التّأثير سينحصر على الحياة الفقهيّة، الأمر سيستغرق التّاريخ أيضا، وسنرى أنّ الكتابة التّاريخيّة قد عرفت ثراء من خلال الكتابات الصّوفيّة في تلك الحقول سابقة الذّكر.

وهنا يمكن أن نذكر ما كتبه عمر بن أحمد الجزائري (حي 760هـ/ 1359م) في كتاب سمّاه "ابتسام العروس ووشي الطروس في مناقب قطب الأقطاب سيدي أحمد بن أبي عروس"[4]، وما ألّفه الثّعالبيّ أكبر زهّاد العصر وعلماءه، وشكّل أنموذج الهروب من فتن السّياسة ومكائد الحكّام، وقد قدّم للتّاريخ تآليف تعكس غلبة التّصوّف عليه، فقد كتب في سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم، كتاب "الأنوار في سيرة النّبيّ المختار".

هذا وقد حفلت كتب التّراجم بمؤلّفات تاريخيّة بروح صوفيّة، وكنت قد ألمحت إلى بعضها في الفصل الثّانيّ، وممّا ذكرت " البستان" لابن مريم، وكتاب "مناقب الأربعة رجال المتأخّرين" للسّنوسيّ.

---

(1) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س 2، ج1، ص44-370.

(2) نفسه ، س 2، ج01، ص44.

(3) نفسه ، نفس المرجع، س 2، ج01، ص57.

(4) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س2، ج01، ص62. محمد محفوظ: المرجع السابق، ج2، ص 335. مجموعة من الأساتذة: موسوعة العلماء والادباء الجزائريين، ج02، دط، منشورات الحضارة، بئر توتة، الجزائر، 2014، ص48.

بالمحصّلة فإنّ التّصوّف قد وجّه الكتابة التّاريخيّة وجهة معيّنة، قوامها الاهتمام بالتّراجم المنقبيّة، والتّأليف في سيرة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وما غلبت تلك التّآليف إلّا دليل على روح التّصوّف التي سادت العصر.

03- الرّحلة العلميّة

شكّلت الرّحلة أهم مؤثّر في سير الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، فبالإضافة إلى الرّوافد المحليّة للمعرفة التّاريخيّة التي مثّلتها الرحلة بين مدن المغرب، كانت هناك روافد خارجيّة من المشرق والأندلس[1].

الرّحلات المغربية باتّجاهيها سواء تعلّق الأمر بهجرة نحو المشرق، أو بهجرة صوب بلاد المغرب، شكّلتا رافدان من روافد نقل المعرفة التّاريخيّة، وقد كانت الرّحلة نحو المشرق بهدف الحجّ أو طلب العلم، وفي كليهما تمكّن المغاربة من لقاء علماء ومؤرّخين ساهموا في التّلاقح الفكريّ، والامتزاج الثّقافيّ، الذي كان من نتاجه ثراء الكتابة التّاريخيّة وتنوّع حقولها، ومن الذين ارتحلوا إلى المشرق، أبو القاسم زيتون وعاد بعلم غزير، بسطه في تونس، وأبو عليّ ناصر الدين المشداليّ الزّواويّ، الذي اتصل ببجاية وكثر طلبته هناك[2].

من أكبر منن الرّحلة في التّأليف التّاريخيّ في بلاد المغرب، ازدهار الكتابة التّاريخيّة في هذا الاتّجاه، وسنرى أنّ ما أُلّف في هذا الحقل عرف يضاهي ما تمّ تأليفه على التّراجم والمناقب، ذلك أنّ الرّحّالة يعمد إلى تقييد رحلته عند عودته لبلاده للإفادة منها، وسيستطيع كلّ من قرأ رحلته أن يتبيّن المدن والمشايخ الذين لقي في رحلته.

والرّحلة أيضا عامل مؤثّر في تكوين عقل المؤرّخ، الذي يعمد إلى محاكاة المناهج التّأريخيّة التي يستقيها من شيوخه هنا وهناك، "وعلى قدر كثرة الشّيوخ يكون التّحصيل"[3]، وقد يتكلّل ذلك بإجازة يحصل عليها الطّالب في كلّ علم وفنّ[4].

هذا بالنّسبة للرّحلة إلى خارج بلاد المغرب، أمّا بالنّسبة للذين دخلوا بلاد المغرب، فأكثر هؤلاء من الأندلس، بعد تراجع المدّ الإسلاميّ هناك إثر نكسة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، وضياع الأندلس بعدها سنة 897هـ/1492، وهو ما أدى انتقال المعرفة التّاريخيّة إلى بلاد المغرب، عن طريق الجالية الأندلسيّة التي استقرّت في مدن المغرب كتلمسان وبجاية وفاس، والدّور الذي لعبته في تفعيل الحقول التّأريخيّة في المغرب الإسلاميّ.

وعن إسهام الأندلسيّين، نشير هنا إلى تصدّرهم المشيَخة في بلدان المغرب، ومن بين هؤلاء ابن الأبّار القضاعيّ (ت 658هـ/1259م) شيخ ابن جلّاب (ت 664هـ/1265م)، وأبي عبد الله الكنّانيّ (ت بعد 699هـ/1300م) شيخ الغبريني[5].

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص 455-456.

[2] نفسه ، ص 369.

[3] ابن خلدون: المصدر السابق، ص 455.

[4] لامعة زكري: الرحلة العلمية بين الاندلس والدولة المرينية ودورها في تمتين الصلات الثقافية خلال القرنين 09/07هـ -15/13م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010، ص 35.

[5] عمارة سيدي محمد: هجرة الاندلسيين إلى بلاد المغرب خلال القرن 7هـ/13م ودورهم الثقافي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة وهران -السانيا- 2012-2013م، ص 99- 116.

في إطار الهجرة الأندلسيّة دائما نذكر ابن الخطيب الأندلسيّ (ت 776هـ/1375م) نزيل فاس والمتوفى بها، وقد ساهم في صناعة المعرفة التّاريخيّة هناك، إلى جانب ابن الأحمر الغرناطيّ (ت 807هـ/1405م) مؤرّخ بني مرين.

الهجرة الدّاخليّة بين مدن المغرب هي الأخرى كان لها بالغ الأثر في الكتابة التّاريخيّة، ويكفي أن نشير هنا إلى يحي بن خلدون، الذي خدم البلاط الحفصيّ، ثمّ انتقل إلى البلاط الزّيّانيّ، وكتب كتابه "بغية الرّوّاد".

وعموما، فإنّ الهجرة باتّجاهيها شكّلت رافد من روافد المعرفة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، وإذا كان المجال غير مناسب لإحصاء وبيان تلك الرّوافد، فإنّ ما أُحصي من تآليف ومؤرّخين في مختلف الحقول التّأريخيّة دليل على ذلك[1]، وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أنّ التّأثير ذلك عرف حركة عكسيّة، فقد امتدّ تأثير المغاربة إلى المشارقة الذين هاجروا نحو بلاد المغرب[2].

04- مذهب مالك وأثره في التّأليف التاريخي.

من حيث المذهبيّة، ومدى وقعها على الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 08هـ-09هـ/14م-15م، فإنّ تأثير المذهب الموحّديّ على الحياة العلميّة عموما بقي متواصلا، فقوامه عقلنة المعارف.

وانتهاج دول المغرب لمذهب مالك الذي أصبح المذهب الرّسميّ للمنطقة، والتّخلّي عن مذهب ابن تومرت أحدث ردّة فكريّة هناك، فكانت النّتيجة إعادة إحياء الاتّجاه القديم المستجدّ في التّدوين التّاريخيّ المنكبّ على مذهب مالك، شرحا، وتلخيصا، وتراجم لأهل المذهب.

هذا، وقد أحدث مذهب مالك ثورة علائقيّة بين أقطار المغرب الثّلاث، بل وحتّى بينها وبين الأندلس، تجسّد ذلك من خلال حرّية التّنقل بين العدوتين، وما ترتّب عن ذلك من تبادل ثقافيّ فكريّ تاريخيّ، مكّن بعض المؤرّخين من الاستقرار في المغرب، ويبدو أنّ الوحدة المذهبيّة كانت من جملة العوامل الموجّهة لحركة التّدوين التّاريخيّ في بلاد المنطقة.

الالتفات إلى مذهب مالك كان ابتداء على يد القاضي عياض السّبتيّ (ت 544هـ/ 1150م) صاحب "رياض النّفوس"، الذي خصّص تأليفه لتعقّب أعيان مذهب مالك، وبيان فضله، ومسالكه.

يمكن أن نلحظ اهتمام مؤرّخي بلاد المغرب بمذهب مالك خلال القرنين محلّ الدّراسة، من خلال المصنّفات -كما أشرت- وعلى سبيل التّدليل على سطوة مذهب مالك على مسار الكتابة التّاريخيّة أذكر ما ألّفه ابن فرحون (ت 799هـ/1397م) في التّراجم المالكيّة، وكتابه هو "الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب"، هذا الكتاب الذي سيعرف ذيولا عدّة أبرزها "نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج" لأحمد بابا التّنبكتيّ.

وعمد أبو الفضل قاسم بن عيسى التّنوخيّ القيروانيّ (ت839هـ/1436م) إلى كتاب عبد الرحمن بن محمد الدّبّاغ " معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان " فأضاف إليه زيادات تكميلية تتعلّق بموضوعه التّراجميّ، وقد كان للمؤلَّف قيمته وأهميته التّاريخيّة الجليّة.

---

[1] للاستزادة حول الموضوع انظر: عبد الله طويلب: الروابط الثقافية بين الدولتين المرينية ودولة بني نصر في الاندلس ق 07هـ-10هـ/ ق13م-16م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010، ص 97.

[2] عيفة الحاج: تأثير المدرسة التاريخية المغربية والأندلسية في كتابات المؤرخين المصريين والشاميين خلال القرنين 6هـ-7هـ/12م-13م، ضمن مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2011م، العدد 13، ص 37-69.

كما ألّف في علم الرّجال -دائما- محمد بن الحسن بن مخلوف أبركان كتاب "المهيّأ في ضبط مشكل رجال الموطّأ"، وقام ابن مرزوق بالتّأليف في الإسناد جزءا في رجال الموطّأ، و"شرح الشّفا"، وألّف إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله منظومة في السّيرة[1].

05- عناية الحكّام بالعلم

من المفارقات أنّ منحى الحركة العلميّة في بلاد المغرب خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، لم يكن مشاكلا للانكسار السّياسيّ الذي شهدته المنطقة قبل، فقد عرفت الحركة العلميّة ازدهارا، وإذا كان بأس الحكّام بينهم شديدا، فإنّ صلتهم بالعلماء اتّسمت بالقرب والعناية.

اهتمّ -إذن- سلاطين بلاد المغرب بالعلم والعلماء، في مختلف مجالات العلوم والآداب، حيث كانت البلط تعجّ بالعلماء، وتنشّط الحياة الفكريّة فيها، من خلال إتاحتهم الفرصة للمناظرات العلميّة التي كانت تُعقد بمعيّة السّلاطين، ما أتاح الفرصة للتّعمّق في البحث والإقبال على دراسة مختلف المؤلفات، حتى صارت مدن المغرب الإسلاميّ كتلمسان وبجاية، وفاس، مشتهرة ببيوت العلم والتّأليف، ولنا أن نذكر هنا عائلة المقرّيّ، والعقبانيّ والقنفذ[2]، وجعلت منها محجّ الطّلاب وأهل العلم إليها.

ويبدو أن هذه الإنجازات لم تأت لمجرد رغبة الملوك في المجد والشّرعيّة فقط، بل إنّ الواقع الثّقافيّ، وزخم الثّورة التّأليفيّة، الذي استغرق أقطار المغرب الإسلاميّ، كان له تأثير على رعاية السّلاطين للعلم والعلماء.

لذا فليس من العجب أن يلحظ الباحث في تراث القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين بروز إنتاج ثقافيّ، يحمل طابع الاستمرار تارة، والجدّة تارة أخرى، ويشمل المجالات الثّقافيّة جلّها، والتّاريخ منها، ذلك أنّ حقول حركة التدوين في هذا العصر -الذي اضطربت فيه الأوضاع السياسية- كانت تتّجه قبل كل شيء إلى العلوم الدينية والتّاريخيّة.

إن كثيرا من أولئك العلماء والفقهاء الذين تفوّقوا في العلوم الدّينيّة كالحديث والأصول والتّفسير والفقه، كانوا في الوقت نفسه يمتازون بتمكّنهم من التّاريخ، ويكفي أن نرى أن ابن مرزوق -مثلا- لقي حظوة أربعة من سلاطين المرينيّين، وأنّه عالج التّاريخ، وأنّ أبا عنّان استخلص الشّريف التّلمسانيّ محمد بن أحمد له، واحتفى به كما احتفى بغيره من العلماء[3].

عملية الاهتمام بالعلم من قبل سلاطين المغرب الإسلاميّ تجلّت أيضا في دعم الحركة الفكريّة في بلدانهم، وذلك من خلال إقامة الصّروح العلميّة المتنوّعة[4]، والتي قامت بأدوار رئيسة في دعم التّعليم والمعلّمين.

---

[1] عبد الكريم حساين: المرجع السابق، ص 114.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س 2، ج01، ص45.

[3] نفسه، س1، ج02، ص 418.

[4] مصطفى داودي: الحركة العمرانية الإسلامية والدلالات الحضارية خلال العصر الوسيط، ضمن أعمال الملتقى الدولي: تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الفني، منشورت وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، الجزائر، 2011، ص 50.عبد العزيز لعرج: العمران الإسلامي وعمارته السكنية، قيم دينية ودلالات اجتماعية، ضمن حولية المؤرخ، الجزائر، العدد 03، 2005، ص 07.

من الصّروح العلميّة التي أقامها السّلاطين، المساجد والكتاتيب والزّوايا التي أضحت مراكز إشعاع علميّ وفكريّ، وتأثيره على العلماء كبير لارتباطه بحياة العامّة، فكان جامع الزّيتونة، وجامع أولاد الإمام، وجامع القرويّين بفاس[1].

هذا، وقد تعدّدت المدارس في بلاد المغرب، فكانت المدرسة الشّمّاعيّة في بني حفص[2]، وفي بني زيّان كانت مدرسة ابني الإمام[3]، ومدرسة الصّفارين عند بني مرين[4].

المنافسة بين سلاطين المغرب الإسلامي في تشجيع العلم تواصلت بعقد المجالس العلميّة التي تدار فيها المناقشات بين الفقهاء والعلماء والأدباء، وتأسيس المدارس، مما يجعلنا نعتقد أن بلاد المغرب كانت كلها على تلك الشّاكلة، مدنا علميّة.

الحقّ، أن المجالس العلميّة تقليد موروث من زمن الموحّدين، ويبقى أنّ سلاطين بلاد المغرب بدوله الثّلاث، انفتحوا على مختلف العلوم الدّينيّة والتّاريخيّة، ويبدو أن عمليّة تحرير العقل من قيود الإرث الموحّديّ، كانت الرّهان الذي عوّل عليه الحكّام في سبيل إقامة نهضة علميّة، من خلال استقطاب الأدباء والمؤرّخين وغيرهم، فقد اختُصّ ابن مرزوق بتدريس صحيح البخاريّ عند السّلطان المرينيّ، وجالس السّلطان الزّيّانيّ أبو العبّاس احمد العاقل، الشّيخ الحسن بن مخلوف الشّهير بأبركان لقراءة صحيح مسلم.

هذا، وقد دأب الملوك على تدارس التّاريخ، فكانت كتب السّيرة، ككتاب الشّفا، التي تدرّس أيّام المولد النّبويّ، وقد رافقت الاحتفال تواصل بين العلماء، وشكّلت إسهاما حضاريّا في إعادة بعث تدارس سنّته صلى الله عليه وسلم.

بقي أن نشير إلى رافد آخر أسهم في ازدهار الحياة الثّقافيّة وهو الإجازة العلميّة التي هي شّهادة الكفاءة العلميّة[5] بمفهومنا الحاضر، وقد حرص العلماء على الإكثار من الإجازات العلميّة خلال زياراتهم للمدن في رحلاتهم[6].

وبموجب الإجازة يمكن للطّالب أن يتهيّأ للتّدريس[7]، ذلك أنّه على إلمام بالمواضيع التي يدرّسها[8]، وبفضل الإجازة يستطيع الطّالب وصل أسانيد العلوم العقليّة والنّقليّة التي تلقّفها[9]، وبذلك ينأى عن التّجريح الذي قد يطال معارفه[10].

---

(1) عبد العزيز لعرج: المساجد الزيانية بتلمسان عمارتها وخصائصها، ج01، ضمن حوليات جامعة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، العدد 06، 1992م، ص105.

(2) سمّيت كذالك لقربها من سوق الشماعين. ابن الشماع: المصدر السابق، ص 56. الزركشي: المصدر السابق، ص 71.

(3) رشيد بورويبة: الحياة الفنية في عهد الزيانيين والمرينيين، تعريب: محمد بلفراد، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، دت، ص 498.

(4) الجزنائي علي: المصدر السابق، ص 81 ،111.

(5) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س2، ج02، ص 39.

(6) هاني سلامة حسن سلامة: طرق التعليم والإجازات العلمية في المغرب (540هـ-668هـ/1145م-1269م)، ضمن المجلة العلمية الليبية العالمية، جامعة بن غازي، ليبيا، العدد 05، 2016، ص 12.

(7) ابن مريم: البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد بن ابي شنب، دط، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 20.

(8) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، دط، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1973 ، ص 245 .

(9) زينب رزيوي: العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (07هـ-09هـ/ 13م-15م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجيلالي اليابس، بلعباس، الجزائر، 2016، ص 139.

(10) ابن مريم: المصدر السابق، ص 20.

ثانيا: خصائص الكتابة التّاريخيّة في الغرب الإسلاميّ

إن تحديد خصائص وسمات أي حركة تدوين تاريخيّ، منوطة بجهد يقف على الإرث الفكريّ والمعرفيّ وقوفا يستقصي مراحل نشأتها تطوّرها، من خلال إحصاء مصادر التّأليف خلال تلك الفترة، في إطار ما اصطلح عليه بالاسطوريوغرافيا، التي أثبتت هي الأخرى جدواها في استجلاء سير حركة الكتابة التّاريخيّة وخصائصها.

ومن خلال تتبّع حركة الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، تراءى للذّهن أنّ عواملا معيّنة كانت وراء اتّجاهاتها وموضوعاتها تلك العوامل أيضا كانت -بتأثيرها- جاعلة منها متّسمة بخصائص قد تستقلّ بها دون غيرها من الكتابات التّاريخيّة في البلاد الأخرى.

إضافة إلى العوامل، فإنّ التّطوّر الحاصل في كتابة التّاريخ هناك، قد أفرز تنوّعا في التّدوين موضوعا ومنهجا، أدّى به إلى الخروج من دائرة التّواريخ القطريّة، إلى دائرة أرحب أوسع استقت مادّتها من الرّحلة، ومن علاقة التّأثير والتّأثر بين أقطار المغرب، وبين غيره من بلاد الأندلس والمشرق.

الحقول المعرفيّة التّاريخيّة التي انبثقت عن تطوّر حركة التّدوين، كانت بمثابة السّمة الغالبة على الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، فقد كانت استمرارية حقول التّأليف التّاريخيّ موروثة منذ إرهاصاته الأولى ومتفتّحة على تلك الموجودة في المشرق.

التّنوّع ذاك أيضا، منح الكتابة التّاريخيّة خصوصيّة منهجيّة -وإن لم تستقلّ بلاد المغرب بها- إلا أنّها كانت طابعة لها بطابع الثّراء المنهجيّ الذي نافس بلاد المشرق والأندلس، وشاكلها في استحضار جلّ مناهج التّدوين التّاريخيّ حال التّأريخ.

غير أنّ ما يمكن ملاحظته هناك، هو أنّ التّأثّر بالظروف السّياسيّة كان السّمة الغالبة على الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب، فالكتابة السّلطانيّة أضحت سمة مشتركة بين مؤرّخي دول المغرب، والأدلجة التّاريخيّة غلبت على التّآليف، ومن وراءها كانت غاية التّأريخ، محكومة بسطوة السّلطان.

وسأحاول هنا لملة الخصائص التي أرها قد طبعت الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال مراحل تطوّرها بين القرنين المدروسين، وسيكون استقصائي للمميّزات تلك بمقاربة تقوم على ثلاث محاور، وهي الموضوعاتيّة (الاتّجاه والموضوع) والخصائص المنهجيّة، ثمّ خصائص غائيّة كحضور الأيديولوجيا في كتابة التّاريخ.

01- الخصائص الموضوعاتيّة (ثراء حقول التأليف التّاريخيّ)

التّنوّع في حقول التّأليف التّاريخيّ في بلاد المغرب الإسلاميّ فرضته المناحي الحيواتيّة التي تصبغ معيشة الإنسان، والتّاريخ هو سجل تلك الحياة، بكل جوانبها السّياسيّة والعسكريّة، والاقتصاديّة، والدّينيّة.

ولذلك، فقد كان تدوين دقائق تلك الحياة، جزءا من اهتمام مؤرّخي القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، حيث بسطُ الصّراعات التي نشبت بين دول المغرب، وبيان أنماط المعيشة وأحوال العباد، أو التركيز على نظم الحكم وتقلّبات السّياسة.

هذا، وقد كانت عوائد ذلك التّنوع في الكتابات التّاريخيّة إيجابية على الباحثين في مجال التّاريخ في بلاد المغرب الإسلاميّ، خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، فقد سمح لهم بطرْق مختلف المواضيع التي لها علاقة بتاريخ المنطقة،

والكتابة بعمق في جزئيّات دقيقة كالنّقد، والمسغبّات، والطّواعين، وآخرها تتبّع مسار الكتابة التّاريخيّة، في إطار ما يسمّى بالاسطوريوغرافيا.

– غزارة التّأليف في التّراجم والسّير

من خلال معالجتي للكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، بدا لي جليّا نزوع مؤرّخي الفترة تلك إلى الاهتمام بكتابة التّراجم والمناقب والسّير، ذلك الاهتمام بلغ حدّ التّخمة التّأليفيّة والثّراء الموضوعيّ.

وخلال استقصائي لتآليف التّراجم والمناقب ومعها السّير، وجدت أنّ أغلبها لمشايخ من مدن المغرب، موزّعة على أقطاره الثّلاث، الأمر الذي يعكس ازدهار حركة التّعليم في تلك المدن، ووجدت أنّ التّأريخ على التّراجم كان تقليدا غلب الحياة العلميّة هناك.

والتّصانيف تلك، فرضتها الحاجة الماسّة إلى العناية بالأعلام والمشايخ، وقد أخذت تتوسّع لتستغرق رجال السّياسة في بلاد المغرب خلال القرنين المدروسين، وفي أحضان هذا الفنّ ازدهرت كتابات البرامج والفهارس أيضا، واحتلّت في مجال التّاريخ أهميّة كبرى، من حيث القيمة والمرجعيّة البحثيّة.

هذا، وقد شكّلت حكايات الصّالحين، وكرامات الأولياء مواضيع لتلك الكتب وأحد روافد فنّ التّراجم لدى الكتّاب المغاربة، فنتج عن ذلك ترف تأليفيّ في التراجم، تتفاوت درجته من حيث القيمة والأهمية.

وأمّا النّزوع نحو كتابة سيرة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد كان خلال القرن التّاسع بصورة واضحة، وهو القرن الذي غلب عليه التّصوّف، ومن ثمّة جاءت الحاجة إلى التّذكير بسيرته صلى الله عليه وسلم، وبسيرة الخلفاء من بعده، وبيانها للنّاس، كجزء من التّعريف بخصالهم وزهدهم.

تسعى السّيرة إلى إعادة بعث أخلاق النّبيّ صلى الله عليه وسلم والصّحابة في نفوس الأحياء من جديد، وبالتالي تخليدها في ذكراهم، وبالمقابل فهي مقاربة تقارن بين سلوك الرّعيل الأول من الأمّة في حياتهم، وسكونهم، وبين ما عليه السّاكنة خلال تلك الفترة من حياة المغرب الإسلاميّ.

هذا، وتنبغي الإشارة إلى أنّ التّأليف في السّير قد امتدّ إلى من حسنت خلاله فقد ألّف بعض الكتّاب في سيرة بعض الحكّام والأعلام، ممّن شهدت له آثاره بالأخلاق، ويجمعها في زمن معيّن، ثمّ يرتّبها على الطّبقات، أو على حروف المعجم، أو سنون الوفاة.

اهتمام القبائل البربريّة بالأنساب مردّه إلى محاولة إبراز مفاخر الأجداد، وقد عرف التّأليف على الأنساب شدّة زاد من غلواءها الجوّ السّياسيّ المشحون، كما أن البحث عن المكانة الاجتماعيّة دفع آخرين لإلحاق أصولها بالنّسبة الشّريفة[1].

ويبدو أنّ التّوجّه نحو التّأليف في فنّ التّراجم والسّير، مردّه عموما إلى غلبة حياة التّصوف والزّهد على القرنين، خصوصا القرن التّاسع حيث فتن السّياسة، وما تلا ذلك من اعوجاج في سلوك النّاس الذين استدرجتم حياة التّرف، التي

[1] **سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س 1، ج02، ص369-370.**

أجبرت عددا من المؤرّخين إلى اختيار حياة العزلة، هروبا من ذلك الاستدراج، هذا بالإضافة إلى وقع تأثير الشّيخ في نفسيّة التّلميذ، الأمر الذي سيحمل التّلميذ على تتبّع سيرة ومآثر شيخه.

– تعاظم أدب الرّحلة والجغرافيا

تجارب العرب مع الرّحلة يمتدّ إلى عصر ما قبل الإسلام، ويكفي أن نشير هنا إلى رحلة الشّتاء والصّيف المعروفة، وعند المسلمين، فإنّها مواكبة لبعثة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، ولنا أن نتذكّر هنا رحلة الإسراء والمعراج، والهجرتين نحو الحبشة، ونحو المدينة المنوّرة، وغير ذلك كثير أيّام النّبيّ صلى الله عليه وسلم وصحبه من بعده، والقرون التي تلت، ومنها في العصر العباسيّ ومنها رحلة سليمان الترجمان سنة 227 هـ[1]، ورحلة ابن وهب القُرشي سنة 257 هـ.[2]

هذا بالنّسبة للمشرق، أمّا بالنّسبة للغرب الإسلاميّ، فقد امتدّت لفترة قريبة من تلك التي في المشرق، وقد ذكر ابن خيّر الإشبيليّ، والمقرّيّ، أسماء عدد كبير من الرّحالة المغاربة الين وردوا مكّة والمدينة، ولعلّ أبرزهم ابن جبير في رحلته "تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار".

ما ألّفه المغاربة في أدب الرّحلة، يضاهي ما أُلّف في التّراجم والمناقب، ويبدو أنّ ما تمّ إحصاؤه في هذا الإطار ينبأ عن ذلك، فقد أحصى الدكتور سعد الله في المغرب الأوسط وحده أكثر من أربع وعشرين رحلة (24 رحلة)[3]، وأحصت عواطف يوسف نواب في أطروحة للدكتوراه عددا من الرّحّالة المغاربة أيضا[4].

ولبيان غزارة التّأليف في أدب الرّحلة، يجدر بنا الوقوف على أسباب تأليفها، حتّى نستطيع الوقوف على نزوع الكتّاب إلى التّرحال، وإقبالهم على تدون رحلاتهم بعد ذلك.

من العوامل التي حملت المؤرّخين المغاربة على الرّحلة أداء فريضة الحج، التي من خلالها يعمد الكاتب ابتداء إلى توصيف الطريق بحرا وبرا، وكلّ المدن التي استوقفته، والقوافل التي رأى، ثمّ ذكر ما اشتملت عليه الأماكن المقدّسة من الآثار والمشاهد.

وقد شكّلت رغبة المغاربة بالسّياحة واستكشاف البلاد حافزا من حوافز التّرحال ولم وقد مثّل هذا الاتّجاه ابن بطّوطة الذي جاب الشّرق والسّودان، الذي دوّن غرائبه وأسفاره في كتاب، وذلك في القرن الثّامن الهجريّ.

ومن أسباب الرحلة –أيضا– البعثات الدبلوماسيّة، أو السّفارات التي يبعث بها الملوك إلى البلاد الأخرى، أو مرافقة الكتّاب للسّلاطين في أسفارهم، والرحلات التي أُلّفت في هذا الصّدد قليلة، وضمن إطار العلاقة بالملوك، نشير إلى أنّ من الرّحالة من أجبرته الظّروف على ترك الأوطان، فكان خروجه قهرا وقسرا.

ومن الرّحّالة من تغرّب طلبا للعلم ولقاء المشايخ، فكان بعد إيابه قد أُجيز، فيؤلف رحلة يستقصي فيها شيوخه، ويسند إجازاته التي حصّلها، وكثيرا ما كانت الرّحلة العلميّة موازية لشعيرة الحجّ، حيث فرصة التّواصل العلميّ.

---

[1] ابن خرداذبه أبو القاسم عبيد الله: المسالك والممالك ، دط، دار صادر، ليدن، لبنان، 1889، ص 163.

[2] ابن الطقطقا محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبوع، دط، دار صادر، بيروت، دت، ص 250 . 251.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، س 1، ج2، ص321-422.

[4] عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والاندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين –دراسة تحليلية مقارنة–، مذكرة ماجستير، جامعة ام القرى، كلية الشريعة، مكة، السعودية، 1996، ص 86-132.

هذه العوامل وغيرها، هي التي – في تقديري- وفّرت التّأليف في أدب الرّحلة، وأثرت خزائن المكتبات بها، وقد لا يكون من الغلوّ الجزم بأنّ غزارة التّأليف فيها مردّه عموما إلى أداء مناسك الحجّ، ومنه الإجازات العلميّة.

– الاهتمام بالتّاريخ المحليّ

ويبدو اهتمام الباحثين المغاربة بالتاريخ المحلي واضحاً، وإذا ألقينا نظرة على ماضي المنطقة وتجارب مؤرّخيها في هذا الميدان، سنخرج بنتيجة مؤدّاها أنّ التّاريخ المنوغرافيّ لبلاد المغرب قد سبق القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، ويكفي أن نشير هنا إلى ما كتبه محمد بن زيادة الله الأغلبيّ في "تاريخ بني الأغلب"، وما كتبه ابن الصّغير في "أخبار الأئمّة الرّستميّين"، وقريبا جدّا من الفترة، ما كتبه البيذق في "أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحّدين".

أمّا التّأريخ المحليّ –سواء كان للدّول أو المدن– في الفترة المدروسة، أو ما يسمّى التّاريخ السّياسيّ فقد فرضه زخم الأحداث التي وقعت إذّاك، فالقرن الثّامن الهجريّ في جوهره نتاج القرن السّابع، هذا الأخير الذي سيشهد انقسام بلاد المغرب إلى كيانات ثلاث يحكمها التّنازع نحو النّفوذ على الأرض، أو على الأقلّ الحفاظ على الحدود المكتسبة، ومنه فإنّ النزوع نحو التّأصيل التاريخيّ للدّولة، أضحى من وسائل الشّرعيّة التّاريخيّة ومنه الجغرافية.

ليس التأصيل للدّولة غاية كتابة التّاريخ المحليّ وحده، ذلك أنّ تدوين تاريخ المدن مرآة لمجريات الأحداث السياسية والثقافية والعسكرية، وقد تأتّت أهمية هذا النّوع من الكتابة التّاريخيّة أيضا من خلال رصد شتى الجوانب الحيواتيّة في تلك الفترة، وبيان موقعيّة الدّولة في خضمّ الصّراع الذي عرفته المنطقة.

نقطة أخرى رجّحت غزارة التّأليف في التّاريخ المحليّ، وهي متعلّقة بارتباط المؤرّخ بدولته، وهو ما يُعبَّر عنه حاليّا بـ "الهوية"، فقد كان كلّ مؤرّخ يفرد تاريخا خاصّا للقطر الواحد الذي ينتمي إليه، ليعبّر بذلك عن مدى حنينه لمسقط رأسه تارة، وعن ارتباطه بوطنه "الجديد" الذي احتضنه بعد التّوسّع أو بعد هجرة المؤرّخ إليه هجرة طوعيّة أو قسريّة تارة أخرى، وتلك التّوجّهات عكستها كتابات ابن الخطيب –المرينيّ– عن غرناطة، وابن الشّمّاع –الأندلسيّ– عن الدّولة الحفصيّة موطنه الجديد.

أخيرا، تنبغي الإشارة إلى أنّ الاهتمام بالتّاريخ المحليّ له ما يبرره، فقد كان –حينا– نتاج تفاعل بين المؤرّخ والسّلطان، تفاعل مردّه إلى الخوف من بطش الحاكم[1]، أو سعي لكسب ودّه، إنّه "تاريخ السّلطة"، وربّما لم تنج إلّا قلّة قليلة من تلك الجدليّة التي رهنت كتابة التّاريخ المحليّ في بلاد المغرب، وقد كان في أحايين كثيرة، نابع من شعور المؤرّخ إلى الحاجة لكتابة تواريخ مفصّلة لعدد من الأقاليم والمدن، كجزء من الاعتزاز بالوطن، ورغبته في تخليد مآثره من الاندثار، تكملة للأعمال التي قام بها مؤرخو التاريخ العامّ.

– ظاهرة التّذييل

عرفت ظاهرة التّذييل في بلاد المغرب ذيوعا وانتشارا، تجاوز حدود المكان والزّمان، فمبدأ فنّ الصّلة كانت في الأندلس على يد ابن الفرضي (ت403هـ/1013م) الذي ألّف كتابا في فقهاء وقضاة الأندلس، هذا الكتاب الذي سيعرف ذيولا امتدت في الجغرافيا والتّاريخ، الظّاهرة تلك، ستنتقل إلى بلاد المغرب ببعد هوياتيّ يصله بالأندلس.

---

[1] **سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، س 2، ج02، ص 322.**

إتّجاه التّذييل ذاك، سيسهم في وحدة فكريّة وسّعت من دائرة التّرجمة لرجال الأندلس إلى التّرجمة لرجال المغرب، ويبدو أن هجرة الأندلسيّين إلى بلاد المغرب كان له الدّور الرّئيس في محاولة بناء ذاكرة جماعيّة للمنطقة.

الذّيول والصّلات بدأت -في بلاد المغرب- مع ابن عبد الملك المرّاكشيّ في "الذّيل والتّكملة"، الذي وصل بكتابه "صلة" ابن بشكوال (ت 578هـ/1183م) [1]، ثمّ عرف تطوّرا واهتماما مع ابن الخطيب في كتابيه "أوصاف النّاس في التّواريخ والصّلات"، و"عوائد الصّلة" ذيل "صلة" ابن بشكوال.

02- الخصائص المنهجيّة (التّمثّلات المنهجيّة)

ابتدأت حركة التأليف التّاريخيّ عند المسلمين-مشرقا ومغربا- بسيطة تعتمد السّرد والقصص عبارة عن حكايات لأيّام العرب، بطولات رجال المعارك، ثم تطوّرت عمليّة منظّمة، ووصلت درجة النّضج في الحقب المتأخّرة، حيث استحالت حركة علميّة ممنهجة، بأسس ومبادئ منظّمة منطقيّة.

ولا شك أن أهمّ نقلة في الكتابة التّاريخيّة اعتماد المناهج التي على أساسها يتمّ نسج التّآليف التّاريخيّة، وأهمّيّة ذلك -هنا- قد تبدو هامشيّة بالنّظر للمحتوى الذي يقدّمه المؤَلّف، لكنّ ذلك الحكم ذو منقصة، ذلك أنّ أهميّة المنهج تتجلّى في عمليّة تنظيم الأفكار وعرضها بخطوات عمليّة واضحة، يتمكّن القارئ من خلال استجلاء المحتوى بطريقة سلسة.

ولعلّ أهمّ ملاحظة جديرة بالاهتمام، والتي تطرح إشكالات عميقة، هي تلك المتعلّقة بالمنهج الخلدونيّ، أهمّ خاصّية لمناهج التّدوين التّاريخيّ في بلاد المغرب خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، ذلك أنّ عبد الرحمن ابن خلدون قد قعّد لمنهج علميّ في كتابة التّاريخ، مدرسة ابن خلدون التي تقوم على فلسفة التّاريخ التي تُعنى بالوقوف على تفسير وتعليل التّاريخ، من خلال تتبّع الأسباب والعلل التي تسيّر الاجتماع الإنسانيّ.

المنهج الخلدونيّ -باختصار- الذي أراد أن يجعل من التّاريخ علما تحكمه القوانين، مثلما تحكم الطّبيعة قوانين، فخطوات مثل الملاحظة، والإشكال، والفرضيّة والتّجربة، وأخيرا القانون العلميّ، قد حاول ابن خلدون أن يُخضع لها التّاريخ ليرتقي به إلى العلميّة، وقد وضع تلك الأسس في إطار مسمّى فلسفة التّاريخ -كما أشرت-.

يبدو أنّه يحقّ لنا أن نتساءل، عن سبب القطيعة مع المنهج الخلدوني؟ القطيعة تلك التي بدأها ابن خلدون نفسه مع منهجه، فلم يلتزم بها في تاريخه! يحقّ لنا أن نتساءل عن بلادة التّاريخ التي أصابت من جاء بعد ابن خلدون؟ لماذا لم تجد مدرسة ابن خلدون قبولا واحتضانا في بلاد المغرب، بينما تمثّلها المقريزيّ، وابن تغرّي في بلاد المشرق؟

إنّ الإجابة عن أسباب القطيعة مع المنهج الخلدونيّ، كفيلة باستجلاء الكثير من الغموض الذي خالط نكسة التّاريخ في بلاد المغرب، الوصل مع ذلك المنهج، كان من الممكن أن يرقى بالكتابة إلى مصاف المدرسة التّاريخيّة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أهمّ خاصيّة لمناهج التّأريخ في بلاد المغرب، هي تلك الطّفرة التي حدثت مع ابن خلدون، غير أنّه أمكنني لملمة بعض الخصائص التي ميّزت التّأليف التّاريخيّ خلال القرنين المذكورين.

---

[1] **محمد ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج01، تح: احسان عباس وآخرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2012، ص202.**

ويمكن لمس تطوّر منهج الكتابة التّاريخيّة لدى المغاربة من نواحي عدّة النّواحي التي قد تمنحه خصوصيّة معيّنة، أوقد تجعله مشاكلا للمناهج التي سبقته وسأقتصر على جزئيتين اثنتين اتطلّع من خلالهما إلى إدراك الخصائص التي طبعت التدوين التّاريخيّ في المنطقة خلال تلك الفترة، هي تمثّلات مناهج التّأريخ، والتّمثّلات المصدريّة عند المؤرّخين المغاربة.

أ- (الخصائص المنهجيّة) تمثّلات مناهج التّدوين التّاريخيّ

لعلّ أول خاصّيّة يمكن الوقوف عليها عند بحث مناهج الكتابة التّاريخيّة لدى المغاربة، هي أنّها استمرار لمن سبقهم فيها، فلم تكن لهم بدعا منهجيّة إلّا النّادر، وقد استغرقوا المناهج كلّها، عدا منهج الطّبقات كما سيأتي.

- المنهج الحولي- الحدثيّ

أرّخ مغاربة القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين على المنهج الحوليّ (على السّنين) وعلى المنهج الحدثيّ الموضوعاتيّ (حسب الأحداث والمواضيع)، وما هو جدير بالملاحظة هنا، هو المزاوجة بين المنهجين، فكان المنهج حوليّ - الحدثيّ.

المنهج الحوليّ -الحدثيّ يتمّ بطريقة يعنوِن خلالها المؤرّخ الحادثة التي يريد ذكرها، وعند الاسترسال في بيانها، يؤرّخ بالسّنين لأحداثها ووقائعها تواليا، وأفضل من مثّل هذا الاتّجاه المنهجيّ، ابن عذاري المرّاكشيّ[1].

من الذين تمثّلوا هذا المنهج -أيضا- الزّركشّيّ في تاريخه، وقد رتّب فصوله على المنهج الحدثي الحوليّ، وذلك كونه من كتّاب الدّولة[2]،، فهو يذكر الحدث أو الموضوع عنوانا للفصل، ثمّ يسترسل في بسط الحوادث على السّنين.

المنهج الموضوعاتيّ، تبنّاه الملّاليّ في "مواهبه"، وابن الأحمر الغرناطي في "روضته"، وابن السّكّاك المكناسيّ في "نصح ملوك الإسلام بالتّعريف بما وجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام"، حيث يقتصرون على موضوع واحد يبسطونه، وعند الإحاطة به، ينتقلون إلى موضوع آخر.

- المنهج الوصفي والإحصائي

هذا المنهج، هو عادة من مقتضيات البحث في العلوم الاجتماعيّة، حيث العيّنات والاستبيانات، لكن التّاريخ قد يستدعيه عند وصف المدن، والطّرق، والقوافل، وعند الوقوف على طرائق المعاش لدى المجتمعات، هذا فضلا على إحصاء مشايخ الطّالب، أو جوامع المدينة الواحدة، وعدّة الجيوش وغيرها.

كلّ تلك المسوّغات، تقتضي المنهج الوصفيّ الإحصائيّ، وهو منهج يستدعيه أدب الرّحلة، وفنّ التّراجم والمناقب، والجدول التّالي تدليل -لا إحصاء- على انتهاج مؤرّخي المغاربة لمنهج الإحصاء والوصف، منفصلين ومجتمعين حسب الضّرورة.

---

[1] **ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص5. عبد الله بن محمد علي: كتاب البيان المغرب لابن عذاري ومنهجه التاريخي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، السعودية، 1419هـ.ص 277.**

[2] **الزركشي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص و.**

المؤلّف	الكتاب	المنهج
مجهول	زهر البستان	الوصف
ابن الشّمّاع	الأدلّة النّورانيّة	الإحصاء
ابن الأحمر	بيوتات فاس	الوصف والإحصاء
محمد السّبتيّ	إختصار الأخبار	الوصف والإحصاء
القلصاديّ	تمهيد الطالب	الوصف
منصور الزّواويّ	رحلة منصور الزّواويّ	الوصف
النّميريّ	فيض العباب	الوصف
ابن الخطيب	معيار الاختيار	الوصف والاحصاء
المقرّيّ	رحلة المتبتّل	الوصف

تلكم بعض المؤلّفات التي استدعت منهج الإحصاء والوصف، وهي لا توحي بالكمّ التّأليفيّ، لكنّها تدلّل على أنّ المغاربة استدعَو ذلك المنهج حال التّأليف.

- المنهج الطّبقيّ

منهج الطّبقات قوامه ترتيب المترجَم لهم على مدد زمنيّة تتراوح عادة بين خمسين ومائة سنة، ذلك أنّ المؤرّخ يعمد إلى تاريخ الوفيات، ثمّ يحصي وفيات خمسين سنة الأولى ويرتّبهم تباعا حسب تواريخ الوفاة، وعند الانتهاء، يعمد إلى الخمسين سنة التي تليها، وهكذا وقد يعتمد ترتيب الأجيال، فيحصي الطبقة الأولى التي تتكون من علماء الفترة نفسها، ثم يحصي تلاميذهم، ويواصل مع الجيل الثّاني وهكذا، فتكون كلّ طبقة من جيل واحد من العلماء.

التّأليف على الطّبقات كان صنعة مؤرّخي المغاربة خلال القرون الأولى، فقد كتب أبو العرب على الطّبقات كتاب "علماء إفريقيّة"، وواصل من بعده الدّباغ كذلك، وكتب المالكيّ رياضه على الطّبقات أيضا، ثمّ الدّرجينيّ صاحب "طبقات المشايخ" الإباضيّة.

وما يلاحظ على هذا المنهج، أنّ المغاربة خلال القرنين الثّامن والتّاسع لم يتمثّلوا منهج الطّبقات، عدا ما كتبه البرّاديّ صاحب كتاب "الجواهر المنتقات" تقويما لـ "طبقات المشايخ"، عدا ذلك لم نلمس كثير اهتمام من المغاربة على التّأريخ على الطّبقات، ويبدو أنّ سبب العزوف هو تعسّر العلم بتاريخ وفاة المترجَم له[1]، الذي يفضي إلى الإخلال بتتبّع الوفيات على الطّبقات، وتسهيل وصول القارئ للتّرجمة التي الذي يريد[2].

[1] **محمد بن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، ج01، ص208.**

[2] **ابن عبد المنعم: المصدر السابق، ص 01.**

- *المنهج المعجميّ*

منهج التّرتيب على حروف المعجم هو المعتمد غالبا عند أصحاب التّراجم والوفيات، وهو منهج سهل يسلك صاحبه مسلك ترتيب أحرف الهجاء، سواكانت على التّرتيب المغربيّ، أو على الترتيب المشرقيّ[1].

عزوف مؤرّخي القرنين المذكورين عن منهج الطّبقات -كما أسلفت- حملهم على النّزوع نحو منهج التّرتيب المعجميّ، فقد سلك محمد بن عبد الملك المرّاكشيّ في ذيله على الصّلة، منهجا يقوم على الترتيب على أحرف المعجم المشرقيّ لصحة اعتباره[2].

كما التزم ابن عبد المنعم بمنهج التّراجم على الأحرف وكتب به كتابه "الرّوض المعطار"، فرتّب موادّه على حروف المعجم، ومثله ابن الخطيب في إحاطته، رتّب مادّته "..على الحروف المبوّبة .."[3].

- *المنهج السّرديّ*

الحديث عن المنهج السّرديّ القصصيّ الاسترداديّ، يقودنا إلى جدليّة التّاريخ والأدب، وعلاقتهما ببعضهما، وعن المعرفة السّرديّة هل هي تاريخ؟ وليس ذلك موضوعي غير أنّ الإلماح إلى ذلك من باب الخروج من تلك الجدليّة.

يبدو أنّ جلّ المؤرّخين متفقين على أن السّرديّة في التّاريخ جزء من التّاريخ فرواية الأخبار، وسرد الأحداث كما هي، تشكّل مادّة خامّا للمشتغلين على التّاريخ، حيث يخضعون مرويّات السّابقين إلى النقد والتّقويم، ثمّ إلى التّحليل والتّعليل، الذي هو كنه التّاريخ.

المنهج ذلك، كان الغالب على التّآليف التّاريخيّة عند المسلمين عموما، والمغاربة خصوصا، ولنا أن نذكر أنّ كلّ دولة من دول المغرب الإسلاميّ قد شهدت كتّابا للتّاريخ على المنهج السّرديّ، لما يمتاز به من توصيف واسترسال في تعقّب الوقائع، ويكفي أن نذكر هنا أن ابن الصّغير كتب "أخبار الأئمّة الرّستميّين"، ومحمد بن محمد اليماني كاتب "سيرة الحاجب جعفر والمهديّ" في العهد الفاطميّ، إلى غير ذلك من كتّاب السّير.

في بلاد المغرب، وخلال الفترة التي أدرسها، تجلّى هذا النّوع ممن المناهج التّدوين التّاريخيّ، وأسلوب التّأريخ عند من انتحله قريبة من الأدب، وعلى سبيل التّدليل، فقد نظم ابن الخطيب شعرا في السّيرة النّبويّة، والدّول التي تعاقبت العالم الإسلاميّ[4]، والأمر نفسه ينطبق على كتابيه "أعمال الأعلام" و" معيار الاختيار"، ذا الميول الأدبيّة، حيث الاسترسال في الشّعر والنّثر.

---

[1] محمد بن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، ج01، ص211. والترتيب المشرقيّ هو (ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن و هـ ي)

[2] نفسه، ج01، ص212.

[3] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في اخبار غرناطة، ج01، مطبوع، ط1، شركة الطبع العربية، المغرب، 1901، ص10.

[4] أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، دط، المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، تونس، 1316هـ/1898م، ص 5- 12.

نشير هنا أخيرا، إلى أنّ تدوين الرّحلة أشدّ ارتباطا بالسّرد، فقد نظم أبو حمّو موسى الثّاني رحلته شعرا، وأملى ابن بطّوطة سفره على ابن جزيّ من ذاكرته، وبذلك نجد أنّ غزارة المادّة التّاريخيّة في كتب الرّحلة أعظم من سواها، لتوفر عنصر السّرد والاسترداد.

– الاستقلال المنهجيّ (البدعة المنهجيّة)

من المؤرّخين المغاربة من ابتدع منهجا سار عليه في تراجمه، ولعلّ من هؤلاء نذكر عليّ بن محمد الخزاعيّ (ت 789هـ/1387م)، الذي كتب "تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة"[1]، ورتّبه ترتيبا بديعا على الحرف والصّناعات ورجالها، على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم، ثمّ يترجم لمن تولّى تلك الحرفة.

– عدم التّقيّد بمنهج معيّن

من المؤرّخين في بلاد المغرب من لم يلتزم بمنهج معيّن في تدوينه، ويمكن أن أشير هنا إلى ابن رشيد السّبتيّ في رحلته، فقد جمع ما تيسّر له من مشاهد، وأسماء الشّيوخ دون مراعاة للتّسلسل الزّمنيّ، لا في ترتيب الأحداث ولا في عرضه لشيوخه[2]، ولم يستقلّ الغبريني – أيضا– بمنهج معيّن في تراجمه لعلماء بجاية، فقد استطرد في ذكر علماء المائة السّابعة دون ترتيب زمانيّ ولا معجميّ، ومثلهما ابن الطّوّاح عند بسط تراجمه في "سبك المقال".

بـ – التّمثّلات المصدريّة (تنوّع المصادر)

يقينا، لا تكتمل كتابة التّاريخ إلّا بشواهد مصدريّة تشدّ البحث التّاريخيّ، إذ لا بدّ للمؤرّخ أن يعضد تأليفه التّاريخيّ بسندات يتمكّن من خلالها القارئ استجلاء سيرورة المعرفة التّاريخيّة، انطلاقا من تبصّر جذورها الأولى، ومسارها، ومنه يحصل اليقين المعرفيّ، بعد النّقد الذي ينصّب على النّتاج المعرفيّ لهذا المؤرّخ أو ذاك.

تلك الرّابطة العلائقيّة بين الحدث والتّأريخ للحدث، شكّلت مرتكز علم التّاريخ عند المسلمين، ذلك أنّ تقصّي الأخبار حملتهم على وصل الخبر بمنبعه توثيقا له، فكان التّاريخ جزءا من علم الحديث، حيث الاعتناء بالسّند والمتن.

العناية بمصدر الخبر، بقي يشغل الحيّز الأكبر في الكتابة التّاريخيّة الإسلاميّة مشرقا ومغربا، فلا تكاد ترى تاريخا يخلو من ذكر المصادر التي اعتمدها صاحبه حال التّأريخ لحادثة، أو رواية لخبر، حتّى أضحى الاستشهاد بالمادّة المصدريّة هو التّاريخ.

ولذلك، فإنّ تنوّع المصادر التّاريخيّة للرّواية الواحدة له ما يبرّره، وليس اعتباطا أن تكون للخبر الواحد مآخذ عدّة، فكان الثّراء المصدريّ جوهر اليقين المعرفيّ، وأوثق الأخبار ما كان صاحبها معاينا لها، وتتقلّص دائرة الوثوق بالبعد عن الحدث.

---

[1] **علي بن محمد الخزاعي: تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة، تح: احسان عباس، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1985، ص 23-32.**

[2] **محمد بن عمر ابن رشيد: رحلة ابن رشيد السبتي، درا: احمد حدادي، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003، ص 238.**

استشكال التّمثّل المصدريّ لمؤرّخي القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين في بلاد المغرب، هو ما سأعالجه في هذا المبحث، ذلك أنّي سأحاول استجلاء الخصائص المصدريّة عند أولئك المؤرّخين، من خلال الوقوف على المصادر التي استعانوها حال التّدوين التّاريخيّ عبر أربع مفصليّات، شكّلت -في نظري- أهمّ روافد الكتابة التّاريخيّة هناك، وميّزت التّأليف التّاريخيّ في بلاد المغرب، وقد رأيت أنّ خاصيّة الثّراء المصدريّ متجلّية في تنوع المآخذ، وقد حصرتها أربع مفصليّات ميّزت الكتابة التّاريخيّة المغربيّة هي:

- القرآن الكريم والحديث النّبويّ

الإستشهاد بالقرآن والحديث النّبويّ غزير عند مؤرّخي المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، وقد ترى ذلك مبثوثا في مصادر الفترة، خاصّة كتب التّراجم والمناقب، للضّرورة التي يقتضيها التّأليف الذي يستدعي آيات القرآن، وأحاديث الرّسول ρ ويمكن أن نشير هنا إلى صاحب "المقصد الشّريف"[1]، وما كتبه الخزاعيّ في تخريج دلالاته"[2].

كتب الرّحلة هي الأخرى حفلت بالنّقل عن كتاب الله سبحانه في مواطن عدّة، واستحضرت أحاديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر صاحب "الرّوض المعطار" آيات قرآنيّة، وأحاديث نبويّة[3]، على سبيل الاستشهاد أو التّدليل، ومثله النّميريّ[4]، وابن الخطيب في "أعمال الأعلام"[5].

وكتب التّاريخ العامّ التي أرّخت للسّيرة النّبويّة اعتمدت بدورها القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة، وهي دربة دأب عليها كتّاب السّير، فالثّعالبيّ في كتابه "الأنوار في آيات النّبيّ المختار"، وقد امتدّت مصادره إلى الرّهبان، والقساوسة، والتّوراة، والانجيل، عند حديثه عن فضائل النّبيّ صلى الله عليه وسلم[6].

اعتماد القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف كمصدران من مصادر التّأريخ في بلاد المغرب لم يكن حكرا على بلاد المغرب الإسلاميّ، بل هو ظاهرة استغرقت العالم الإسلاميّ كلّه، فهما مرجعيّة مؤرّخي المنطقة، وأكثر من ذلك هو الذي قعّد لعلم التّاريخ عندهم.

- المشافهة والسّماع والمعاينة

ارتبطت المشافهة ارتباطا وثيقا بالتّاريخ، ذلك أنّها شكّلت مرحلة مهمّة من مراحل التّاريخ الإنساني عموما، والتّاريخ الإسلاميّ خصوصا، حيث غدت القناة الوحيدة للتّواصل، ووسيلة الحفاظ على الذّاكرة الجماعيّة، ونقل المعرفة من جيل إلى جيل.

---

(1) عبد الحق البادسي: المصدر السابق، ص 18-19.

(2) الخزاعي: المصدر السابق، ص 25-40.

(3) عبد الله بن محمد التيجاني، المصدر السابق، ص 07، 14.

(4) النميري: المصدر السابق، ص 90 .

(5) ابن الخطيب لسان الدين: اعمال الاعلام، ج01، ص 52، 55-58

(6) عبد الله بن محمد التيجاني، المصدر السابق، ص 07، 14.

وترتبط المشافهة ضرورة بالسّماع، إذ العلاقة بينهما علاقة تلازميّة، يستدعي أحدهما حضور الآخر، فالرّاوي مصدر التّاريخ، والسّامع ناقل له، والمتلازمة تلك، ضمنت صمود الحدث التّاريخيّ عبر العصور، وديمومة الخبر عبر الأجيال.

المشافهة كانت معتمد مؤرّخين عدّة، كالبلاذريّ، والطّبريّ، وابن خلدون وغيرهم وقد ظلّت كذالك إلى وقت متأخّر، المؤرّخون أولئك، قيّدوا الرّواية بالسّند، والثّقة، والصّدق وغيرها من المؤشّرات المرجّحة للرّاوي، وأضاف ابن خلدون استقصاء الأسباب والعلل حال التّأريخ..

ومهما يكن من أمر، فإنّ المشافهة كانت مرحلة التّأسيس التّاريخيّ عند المغاربة وهو أمر طبيعيّ، بحكم الظّروف التي طبعت الحياة الفكريّة والثّقافيّة إذّاك، فالرّحلة -مثلا- كرافد من روافد المعرفة، تستلزم المشيَخة، والمناظرة تقتضي المشافهة وهكذا.

بالنّسبة للقرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين في بلاد المغرب الإسلاميّ، فإنّ المشافهة والسّماع والمعاينة، قد طبعت الكتابة التّاريخيّة فيهما، وقد حفلت المصادر التّاريخيّة بأدلة الأخذ بالسّماع عن المشيَخة وغيرها، فابن عذاري قد أخذ عن شيوخه الأخبار الوقتيّة بتحقيق[1]، ومثله ابن عبد الملك الذي أُجيز من شيوخه الخمسين[2]، وحدّث عنهم قراءة، ونقل عنهم سماعا عند لقاءه بهم، ومخالطته وترجمته لهم فيما بعد[3].

المصادر السّماعيّة تأكّدت مع الغبرينيّ الذي ترجم للمتصوّفة، وكرّر مرارا أنّه "سمع" من فلان، و"حدّثني من أثق به"، ويورد مؤرّخون كثر في مصادرهم ما يدلّ قطعا على اعتمادهم المشافهة في نقل الخبر، وذلك من خلال إحالة الرّواية لصاحبها بالقول "قال" و"يقال"، و"قالت العلماء"[4].

ومن المؤرّخين من عاين الأحداث، فالغبرينيّ عند حديثه عن مرض شيخ من أشياخه يقول "دخلت عليه في المرض الذي مات فيه"[5]، وقد كان صاحب "زهر البستان" شاهدا على احتفالات المولد النّبويّ في بلاط أبي حمّو موسى الثّاني[6].

- ***التّجربة الشّخصيّة***

من أوثق مصادر الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، التّجارب الشّخصيّة، ذلك أنّها صورة حيّة عن الحدث التّاريخيّ، وليس التّاريخ إلّا فعل الإنسان في الزّمان والمكان، وليست قيمة المصدر إلّا من قربه من الواقعة التّاريخيّة.

وتجارب مؤرّخي بلاد المغرب الإسلامي في توثيق تجاربهم الشّخصيّة، وما كانوا فاعلين فيه ممتدّة في الزّمن، ويكفي هنا أن نشير إلى مذكرات الأمير عبد الله بن بلكين -ثالث ملوك الدّولة الصّنهاجيّة بالأندلس وآخرهم- المسمّاة بـ

---

(1) **ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص 03.**

(2) **ابن عبد الملك: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج01، ص 14.**

(3) **نفسه، ج01، ص 84،102 .**

(4) **انظر مثلا: ابن الخطيب: الإحاطة، ج01، ص11-19. السّبتيّ: المصدر السابق، ص 47. الثّعالبيّ: الرحلة، ص107.**

(5) **الغبريني: المصدر السابق، ص 61.**

(6) **مجهول: زهر البستان، ص 22.**

"التّبيان"[1]، وكتاب "أخبار المهدي ابن تومرت" للبيذق.

فنّ كتابة التّجارب الشّخصيّة أو ما يعبّر عنه عادة بالمذكّرات، استمرّ مع مؤرّخين من بعد القرن الخامس والسّادس الهجريّين، غير أنّ هذا الفنّ تجسّد في الرّحلة التي كان أصحابها فاعلين فيها كما التّجارب الشّخصيّة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ اعتماد مؤرّخي المغرب الإسلاميّ على تجاربهم الشّخصيّة، كان له الحظ الأوفر في تدوين تاريخ المنطقة، وهي خاصيّة تضاف إلى سمات الكتابة التّاريخيّة-التي لاحظتها- هناك، خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين.

تجسّدت التّجربة الشّخصيّة في منصب المؤرّخ، فابن عبد الملك صاحب "الذّيل والتّكملة" -مثلا- اشتغل في الكتابة وفي خطة قضاء الجماعة بمراكش[2]، الأمر الذي مكّنه من تدوين أحداث تلك الفترة كفاعل فيها، ومثله المجهول الذي كتب "زهر البستان"، فقد عمل في البلاط المريني ككاتب من كتبته، وقد نقل لنا غالب شعر أبي حمو موسى الثّاني، وذكر أسماء الزّوّار والسّفراء، ومكّننا من العقود التي كُتبت إذّاك[3]، وكان الغبرينيّ قاضيّا ببجاية[4]، وعلى اتصال بالمسؤولين ورجال الدّولة، ويناقش الحكّام في المسائل الهامّة[5]، وقد دوّن جزءا من ذلك في تراجمه.

بعيدا عن تجارب الحكم والإدارة، نلاحظ ابن الخطيب لسان الدين الذي عايش المحن، قد اعتمد تجربته في غربته[6]، وقد قال شعرا يتوقّع فيه موته في سجنه[7]، ونقل لنا تفاصيل وفاة حليلته التي رثاها هي أيضا[8].

وأفضل من تفرّد بتدوين تجربته الشّخصيّة، هو السّلطان أبو حمو موسى الثّاني فقد تمثّل فعله السّياسيّ تأليفا، فكتب "واسطة السّلوك"، كتنظير لفنّ القيادة، ورؤية لطريقة حكم، مصدرها الأوّل الممارسة الفعليّة.

هذا، وتجدر الإشارة إلى إنّ اعتماد التّجارب الشّخصيّة مصدرا للتّأريخ في بلاد المغرب الإسلاميّ خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، لم يتوقّف عند حدود السّياسة والإدارة، بل تعدّاها إلى فنّ الرّحلة، حيث اعتمد الرّحالة ممارساتهم في تدوينها، فابن بطوطة -مثلا- صاحب أفضل وأطول رحلة، دوّن ما كان عايشه انطلاقا من تجاربه، ونقل لنا صورا حيّة عن وقائع وأحداث كان فيها فاعلا، فكانت تجاربه مصادرا لتاريخه[9].

---

[1] عبد الله بن بلكين: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تح: ليفي بروفنسال، دط، دار المعارف المصرية، مصر، دت، مقدمة المحقق، ص 08.

[2] ابن عبد الملك: المصدر السابق، ج01، ص84،91.

[3] مجهول: زهر البستان، مقدمة المحقّق، ص 07.

[4] التّباهي: المصدر السابق، ص 132.

[5] الغبريني: مصدر السابق، مقدمة المحقق، ص 10.

[6] لسان الدين بن الخطيب: نفاضة الجراب، مقدمة المحقق، ج03، ص 11.

[7] لسان الدين بن الخطيب: اعمال الاعلام، مقدمة المحقق، ج01، ص13.

[8] نفسه، ج01، ص 16.

[9] محمد بن عبد الله: المصدر السابق، ج01، ص 140،174.

- المؤلّفات المصدريّة

فضلا عن مصادر المؤرّخين المغاربة خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين سالفة الذّكر، فإنّهم اعتمدوا كتب من سبقهم حال التّأريخ للحدث، وقد نقل لنا -بعضهم- أسماء الكتب التي اعتمدوها مصدرا لتواريخهم، الأمر الذي يحيلنا إلى فكرة الأمانة العلميّة والموضوعية في النّقل.

كتب ابن عذاري مؤلّفه الضّخم "البيان المغرب" اعتمادا على ما جمعه من الكتب الجليلة، ومن كلّ تعليق وجده، ممّا يجعله صاحب أمانة في النّقل، ومنهج قوامه ذكر مصادره كتابا ومؤلِّفا، وقد بلغت 27 مصدرا، منهم على سبيل التّدليل: الطبريّ صاحب "تاريخ الرّسل"، و كتاب الرقيق "تاريخ إفريقيّة"، و مسالك البكريّ، وابن حيان مؤرّخ الأندلس[1].

وذكر ابن الخطيب -أيضا- مصادره في مقدمة إحاطته، فقد اعتمد "المقتبس" لابن حيّان، والبيان المغرب" لابن عذاري المراكشي، وكان تاريخ ابن الصيرفي المسمّى "الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية"[2]، معتمده الرّئيس عند التّأريخ للمرينيّين.

وسار على نهج ابن الخطيب من جاء بعده، فابن عبد الملك ذكر مصادر ذيله وتكملته[3]، ومثله الغبريني الذي اعتمد مصادر في تراجمه كفهرسة محمد بن عبد الحقّ التّلمسانيّ[4]، وقد أفاد صاحب "الحلل الموشيّة" من مصادر عدّة يستشهد بها، كـ "الأنوار الجليّة" للصّيرفيّ، ونقل عن ابن صاحب الصّلاة، والبيذق[5]، تفاصيل معارك عبد المؤمن بن عليّ وأعماله، و يستشهد التّيجانيّ بمصادره[6] هو الآخر في رحلته.

ما سبق، لم يكن غرضه إحصاء مصادر مؤرّخي المغرب الإسلاميّ بين القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، وإنّما هو عرض ينهد إلى التّدليل على تعدّد مآخذ أولئك حال التّأريخ، وكانت العمدة على القرآن، والسّنّة، والسّماع وحتى الكتب المصدريّة، كلّ ذلك خاصيّة ميّزت الكتابة التّاريخيّة في المنطقة والفترة نفسها.

---

[1] **ابن عذاري: المصدر السابق، ج01، ص02-03.**

[2] **ابن الخطيب: الإحاطة، ج01، ص 05-05.**

[3] **ابن عبد الملك: المصدر السابق، ج01، ص202-207.**

[4] **الغبريني: المصدر السابق، ص 29.**

[5] **مجهول: الحلل الموشية، ص 93، 116،**

[6] **عبد الله بن محمد التيجاني، المصدر السابق، ص 07، 14.**

الفصل الرابع: ابن ابي زرع الفاسيّ (حي سنة 726هـ/1326م)

أولا: ترجمة المؤلِّف

ثانيا: دراسة تآليفه

الفصل الرابع: ابن أبي زرع المرينيّ الفاسيّ (حي سنة 726هـ/1326م)

أوّلا: ترجمة المؤلِّف

01- مولده ووفاته

ملاحظة أولى حول ابن أبي زرع، هي أنّ الغموض اكتنف جانبا كبيرا من حياته، ذلك أنّ كتب التّراجم التي عاصرته أغفلت شخصه، فلا هو ضمن كتابي ابن القاضي "جذوة الاقتباس"، ولا ضمن "درّة الجحال"، وما عُثر عليه مشتّتا في المصادر، لم يكن إلّا نتفا من أخباره تداولها المؤرّخون اجترارا، وذلك الذي تكرّر كان اسمه، ولقبه، ونقولات عنه، غير ذلك يُعدّ مجهولا، الأمر الذي حملني على استجلاء شخصيّة ابن أبي زرع، من خلال الكتابات المبثوثة في الكتب ومقارنتها، والحكم عليها أحيانا بما ترجَّح من قرائن، عساي أميط بعض الحجب عنه.

وما أورده المتأخّرون عن ابن أبي زرع كان مقتضبا، فالزّركليّ قد أورد أنّه من أهل فاس، وأنّه عاش زمن السّلطان أبي سعيد عثمان المرينيّ[1]، وهي ترجمة لا تعدو كونها إشارة على استحياء، مثلها مثل الذي أورده محمّد حجي في موسوعته التي حوت تراجم مستقاة من مصادر متعدّدة نعتته بالمؤرّخ والكاتب[2]، استنادا إلى لقط الفرائد، ووفيات الونشريسيّ، وكلّها اقتباسات شحيحة تدلّل على أنّ مؤرّخنا رجل مغمور اختُلف في كثير من تفاصيل حياته، ومردّ ذلك إلى إغفال مصادر التّراجم التي عاصرته -كما أشرت- وتلك معضلة لا تقلّ عن معضلة القلّة التي لا تغني من معرفة، يضاف إليها ما أورده ابن زرّوق في شرحه على نظم المباحث الأصلية لابن البنّا، حيث ألمح إلى أنّه كان من العامّة كابن أبي زرعة[3] -هكذا سمّاه- والمقصود بالعامّة حسب عبد الله كنّون هو انتفاء الشّهرة، مع عدم انتفاء العلم[4]، ذلك أن بعض عامّة أهل فاس كانوا علماء وفقهاء متفوّقين على غيرهم من عامّة البلدان، مع عدم شهرتهم وتصدّرهم للافتاء، وهو ما يفسّر إغفال المصادر عن ترجمته.

ولا أعلم شيئا عن ولادته، فالمصادر التي عاصرته، أو كانت قريبة منه، لم تشر إلى ذلك، والغموض نفسه انسحب على المراجع التي جاءت بعده، وكل ما أفدت عن مولده، أنّه من رجال القرن الثّامن الهجريّ، وقد ذكر ابن أبي زرع وصول هديّة المستنصر ملك إفريقيّة إلى السّلطان يعقوب سنة 667هـ/1269م[5]، الأمر الذي يوحي بأنّه كان في القصر شاهدا على وصولها، فعلى افتراض أنّه خدم دخل البلاط المرينيّ تلك السّنة، فإنّ مولده قد يكون بين 637هـ/1240م و640هـ/1243م، على فرضيّة أنّ له من العمر إذّاك ثلاثين سنة أو سبعا وعشرين سنة.

---

(1) الزركلي: المرجع السابق، ج04، ص306.

(2) الونشريسي احمد بن يحي: وفيات الونشريسي، ج02، منشورة ضمن موسوعة أعلام المغرب، محمد حجي: ، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1996، ص633. احمد بن القاضي: الفوائد من لفاضة حقق الفوائد، منشورة ضمن موسوعة أعلام المغرب لحمد حجي، ج02، ،ط01، دار الغرب الاسلامي، 1996م، ص 634.

(3) أبو العباس احمد بن زروق: شرح المباحث الاصلية على جملة الطريقة الصوفية، تح: محمد عبدالقادر نصار، عبد الله جمال حمدنا الله، ط1، دار الاحسان، مصر، 2014، ص57.

(4) عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والادب والسياسة، ج01، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2010، ص481.

(5) ابن ابي زرع: الانيس المطرب، ص 403.

ذاك، وقد اتّفقت كتب التّراجم على أنّ اسمه علي[1]، والاختلاف قد وقع في اسم والده، فقد ذكر حاجي خليفة وعمر فروخ أن والده محمد[2]، وسمّاه ابن الأحمر وابن القاضي والزّركليّ "أحمد"[3] بينما ذكر الجزنائيّ وجورجي زيدان أنّ والده عبد الله[4]، فيكون بذلك اسمه كاملا علي بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسيّ.

واختلفت كتب التّراجم في كنيته أيضا، فكنّاه الجزنائيّ[5] والونشريسيّ في الوفيات وابن القاضي في لقط الفرائد بأبي عبد الله[6]، ثمّ عاد ابن القاضي في الجذوة وكنّاه أبا الحسن[7]، ووافقه عمر فرّوخ وغلّبه[8]، ومحقق الأنيس ورجّحه اعتمادا على رواية للجزنائيّ[9] التي تحقّقت أنّها لم ترد كذلك، وبأنّ الجزنائيّ كنّاه بأبي عبد الله[10]، وأورد الكنى كلّها الكتّانيّ في سلوة الأنفاس وكنّاه بأبي العباس أيضا[11]، ولئن كان الرّأي الأوّل أقرب، من جهة أنّ الجزنائيّ أقرب عصرا لابن أبي زرع، فإنّ ذلك لا يمنع من ترجيح باقي الكنى، كونها نسبة له من ولده وقد يكون من ولده الحسن وعبد الله، عدا كنية أبا العباس فإن عبد الله كنون قد نفاها عنه وقرّر أنّها لغيره أو لقريب له[12]، وأقرّه على تكنيته بأبي الحسن[13].

كما اختلف المؤرّخون أيضا في سِنّ وفاته، فقد قال صاحب بيوتات فاس أنّه توفّي في بضعة عشر وسبعمائة[14]، وهو تاريخ متقدم لا يستقيم، كون ابن أبي زرع قد ألّف "الأنيس" وأتمّه سنة 726هـ/1326م، وأشار بعضهم إلى سنة 726هـ/1326م أو بعدها بقليل[15]، ومنهم من جعل سنة وفاته في 741هـ/1340م[16]، ويبدو أنّ الأكيد أنّه توفّي بعد 726هـ/1326م، بقرينة أنّ كتابه "الأنيس المطرب" قد وصل بأحداثه إلى سنة 726هـ/1326م،

---

(1) حاجي خليفة: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، ج01، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دت، ص 199. عمر فروخ: تاريخ الادب العربي، ج06، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1983، ص406.

(2) حاجي خليفة: المرجع السابق، ج01، ص199. عمر فروخ: المرجع السابق، ج06، ص406.

(3) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص 63. المكناسي احمد بن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، دط، دار المنصور للطباعة والنشر، المغرب، 1973، ص 61. الزركلي: المرجع السابق، ج04، ص 306.

(4) الجزنائي: المصدر السابق، ص 24. جورجي حبيب زيدان: تاريخ اللغة العربية، ج03، تع: شوقي ضيف، دط، دار الهلال، مصر، دت، ص 222.

(5) الجزنائي علي: المصدر السابق، ص 80.

(6) محمد حجي: المرجع السابق، ج02، ص 634،633.

(7) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ص 342.

(8) عمر فروخ: المرجع السابق، ج06، ص 406.

(9) ابن ابي زرع: الانيس المطرب، مقدمة المحقق، ص 05.

(10) الجزنائي علي: المصدر السابق، ص 80.

(11) الكتاني محمد بن جعفر بن ادريس: سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، د د ن، ص 631.

(12) عبد الله كنون: المرجع السابق، ص 479.

(13) نفسه، ص 480.

(14) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص 64.

(15) عمر فروخ: المرجع السابق، ج06، ص 406. جورجي زيدان: المرجع السابق، ج03، ص 233.

(16) ابن القاضي: المصدر السابق، ج02، ص 634. الونشريسي: المصدر السابق، ج 02، ص633. عبد الله كنون: المرجع السابق، ج01، ص 486.

وأنّ "القرطاس" ليس آخر ما كُتب بل هي "الذّخيرة"، وذلك لا يمنع من كونه قد توفيّ سنة 741هـ/1340م، التي تؤيّدها قرينة بعض المؤرّخين من أنّ بعض نسخ "القرطاس" امتدّت أحداثها إلى سنة 732هـ/1332م ؟![1]، وأنّه نقل في "الذّخيرة" عن "القرطاس" كما سيأتي بيانه عند الحديث عن "الذّخيرة".

02- نشأته

نشأ ابن أبي زرع في أسرة فاسيّة أدركت أواخر العهد الموحّديّ، وفترة طويلة من العهد المرينيّ، تنتهي إلى أبي زرع الوارد اسمه في الحديث النبويّ الشّريف الذي روته السّيّدة عائشة عن الزّوج البارّ أبي زرع[2]، وهي أسرة ذات علم ودين، أوقفت أملاكها في فاس على الفقراء والمساكين[3].

وإذا كانت المصادر قد أغفلت جلّ ما تعلّق بحياة ابن أبي زرع، فإنها قد أمدّتنا بإشارات نستجلي من خلالها بعض ملامح شخصيّة ابن أبي زرع، ونقف على صفاته وخصاله، فقد نعته ابن زرّوق بأنه من "عجائب فاس"، و"أنّه من العدول"، وقد كان ثقة من الذين "يعتمد عليهم في الأخبار"[4].

وذكر الحلبيّ في الدرّ النفيس أنّ ابن أبي زرع "عمدة أهل المغرب"، وأنّه كان ماهرا بالعلم[5]، ونعته المتأخّرون بالمؤرخ[6] الذي استوعب موضوعات شتّى، دلّت على ذلك أوصاف المصادر له ولأجداده بالشّيخ الكبير، الإمام الخطيب، البليغ الواعظ الورع الزاهد، الولي الصّالح، العلامة المدرس المفتي[7]، وهي أوصاف صريحة تكشف مكانة الرّجل، ومدى حرص سلفه على تنشأته نشأة حسنة.

تولى الإمامة والخطبة بجامع القرويين بطلب من الفقهاء والعامّة[8]، وهي الوظيفة التي توارثتها أسرته، والتي تدلّ على علمه، وإلّا فلا يمكن أن يتبوّأ تلك المكانة، إضافة إلى ملحقات تلك الوظيفة كالافتاء، والتّدريس وغيرها.

وكان يحترف التّوثيق بفاس، الأمر الذي يدلّ على عدله ونزاهته بين النّاس، كون المهنة تلك تقتضي الأمانة، وهي المهنة التي تحتاج سعة اطّلاع، وذوقا أدبيّا، وبلاغة وأكثر من ذلك ثقافة شاملة تمكّنه من أداء تلك المهمّة باقتدار.

اتّصف ابن أبي زرع بصفات استخلصها المترجمون له من شواهد متفرّقة في تآليفه، عزّزت أخلاقه، وساهمت في بناء شخصيّته التي بدت واضحة في كتبه، فقد كان محبّا لآل البيت، معظّما للمشايخ والعلماء، وقد أصبغ عليهم من مظاهر الإعجاب والتّقدير ما حفلت به كتبه.

---

(1) عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري: المرجع السابق، ص 84.

(2) عبد القادر زمامة: في تحليل مصادر تاريخنا، ضمن مجلة المناهل، ج07، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، المغرب، العدد 18، 1980، ص 285.

(3) نفسه، ج07، ص 286.

(4) أبو العباس احمد بن زروق: المصدر السابق، ص 57.

(5) الحلبي أبو العباس احمد بن عبد الحي: الدر النفيس والنور الانيس في مناقب الامام ادريس بن ادريس رضي الله عنهما، ج01، تح: محمد بوخنيفي، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971، ص 124.

(6) الزركلي: المرجع السابق، ص 306. محمد حجي: المرجع السابق، ج02، ص 634،633.

(7) ابن ابي زرع: الانيس، ص 76. الجزنائي: المصدر السابق، ص 60. ابن الأحمر: المصدر السابق، ص 63.

(8) الجزنائي: المصدر السابق، ص 60. ابن الأحمر: المصدر السابق، ص 63.

فهو يذكر مثلا بناء الإمام إدريس الصغر فاس سنة 191هـ/807م، تلك المدينة التي غمرتها بركة آل البيت بعد استقرارهم فيها[1]، وتراه أيضا يتتبّع أخبار الصّالحين والعلماء، ويسجّل باهتمام فضائلهم ومناقبهم ووفياتهم[2].

انتقل ابن أبي زرع إلى البلاط المرينيّ، وذكرت المصادر أنّه عاصر السّلطان أبا سعيد عثمان المرينيّ[3]، وقد شارك معه في معارك عدّة يصفها في قرطاسه وصفا دقيقا، ويقف على حيثياتها، غير أنّ المتتبّع لكتابه "الأنيس" يحتمل أنّ ابن أبي زرع قد عاصر السّلاطين من عهد يعقوب بن عبد الحقّ، إلى السّلطان أبا سعيد عثمان، ويبدو أنّه اشتغل بمهنة الكتابة التي كان يتقنها، ولا أعلم على وجه اليقين السّنة التي دخل فيها البلاط، غير أنّي أرجّح أنّها سنة 667هـ/1269م، حيث كان شاهدا على وصول هديّة إلى السّلطان يعقوب كما أشرت سابقا.

إذن، نشأ ابن أبي زرع نشأة متنوّعة المشارب، فإلى جانب الخطابة والتّوثيق، هو المجاهد المؤرّخ، تلك الرّوافد التّربويّة والثّقافيّة مجتمعة، هي التي طبعت حياة ابن أبي زرع وصقلت شخصيّته، وجعلت منه ابن بيئته وعصره ثقافة، وسياسة.

03- شيوخه

لم تذكر كتب التّراجم لابن أبي زرع شيوخا، غير أنّ تصريحه في كتابه "الأنيس" يدلّ على أنّ له روّاة وشيوخا روى عنهم[4]، وإن كان لم يعيّنهم بالاسم، ويبدو أنه قد أخذ العلم عن أجداده، فهم أسرة اشتهرت بالعلم والإمامة[5]، وبذلك فإنّ والده قد يكون أوّل شيوخه، وهو منتهى ما وصلته إليه في ذكر شيوخه، عدا ذلك، فالمترجمون متوقّفون، وحتّى ابن أبي زرع يسكت عن روّاته، ويكتفي بالقول أنّ مرويّاته عن "أشياخ التّاريخ والحفّاظ .. والرّوّاة الثّقات الأنجاب"[6].

04- آثاره العلميّة

لم يكن ابن ابي زرع صاحب غزارة تأليفيّة، غير أن له من التّآليف ما جعلت المترجمين له يصفونه بالمؤرّخ كما أسلفنا، فقد وصفوه كذلك لكتابيه "الأنيس" و"الذّخيرة"، ولم يوصف بالمؤرّخ لكثرة تآليفه التّاريخيّة، على غرار ابن حيّان، والرّقيق، اللّذان وصفهما ابن خلدون بوصف "المؤرّخ" لكتابيهما، لا لكثرة تآليفهما.

وقد ذكر المترجمون لابن أبي زرع مؤلفات مثّلت الحصيلة الثّقافيّة له، وهي مقتصرة على التّاريخ المحلّيّ على وجه الخصوص وهي:

أ: أزهار البستان في أخبار الزّمان، وذكر الموجود ممّا وقع في الوجود: وهو كتاب مفقود، ذكره ابن أبي زرع لنفسه في كتابه "الأنيس المطرب"[7].

---

(1) ابن ابي زرع: الانيس، ص 30– 46.

(2) ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 23.

(3) حاجي خليفة: المرجع السابق، ج01، ص 199. الزركلي: المرجع السابق، ج04، ص 306.

(4) ابن ابي زرع: الانيس، ص 14.

(5) نفسه، ص 76.

(6) نفسه، ص 14.

(7) نفسه، ص 19، 131.

بـ: الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس: وهو من عنوانه تأريخ للمغرب عموما، ومدينة فاس خصوصا، تحدّث فيه عن تأسيس فاس وملوكها، إلى غاية 726هـ.

جـ- الذّخيرة السّنيّة في تاريخ الدّولة المرينيّة: وهو تأريخ محلّيّ للدّولة المرينيّة التي عاصر ثلاثا من ملوكها، وتتبّعها من تأسيسها، إلى غاية أبي سعيد عثمان المرينيّ، الذي عاصره أغلب حياته.

ثانيا: دراسة تآليفه

01- أزهار البستان في أخبار الزمان، وذكر الموجود ممّا وقع في الوجود:

هذا الكتاب مفقود، وهو أوّل تأليف لابن أبي زرع -دون شكّ في العنوان أو النّسبة- دلّ على ذلك إحالته عليه في "القرطاس" في موطنين اثنين، ووصفه بـ "كتابنا الكبير"[1]، وهو كتاب -على ما يبدو - في تاريخ المدن بالمغرب، دلّت على ذلك إشارة من ابن أبي زرع حال كلامه عن مدينة طنجة حيث قال:"ولم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها (طنجة)، وقد ذكرنا تاريخها ..في كتابنا المسمى بأزهار البستان"[2] وهي إشارة تُثبت الكتاب لصاحبه، وبجزء من محتواه، أقول جزءا كونه كتابا كبيرا كما وصفه صاحبه.

ويبدو أيضا أن الكتاب لا يختلف عن "القرطاس" و"الذّخيرة" في المحتوى والمنهج، وما يجعلني أرجّح ذلك، أنّ ابن أبي زرع قد أشار -إضافة إلى التّأريخ للمدن- أنّ في الكتاب أخبارا عن برغواطة، وملوكهم، ونحلتهم، "مستوفاة" في "أزهار البستان في أخبار الزّمان.."[3]، وهي الأخبار التي ذكرها اختصارا في "القرطاس"، وأحال عليها لـ "أزهار البستان" لمن أراد الاستزادة، الأمر الذي يوحي أنّ "أزهار البستان" أغزر مادّة من "القرطاس".

02- الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس:

أ- تحقيق في العنوان ونسبة الكتاب:

تأوّل بعض المستشرقين أنّ كلمة القرطاس الواردة في العنوان محرّفة عن كلمة الفرطاس، وهي كنية لزيري بن عطيّة الذي كان فرطاسا أي عريض الأنف، وقد ابتنى منتزها من شجر الزّيتون في فاس، عرف بكنيته فيما بعد، ويبدو أنّ التّأوّل لم يكن صحيحا، ذلك أنّ مؤلِّفه صرّح به فقال: "وسمّيته الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب ومدينة فاس"[4]، وأنّ المصادر التي عاصرت المؤلِّف أو كانت قريبة منه ذكرته بـ" الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس"، وتفرّد حاجّي خليفة بتسميته "الأنيس المطرب وروض القرطاس .."[5]، وصار يعرف اختصارا بـ "الأنيس"[6]، و"القرطاس"[7].

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 19، 131.

(2) نفسه، ص 19.

(3) ابن ابي زرع: الانيس المطرب ، ص 131.

(4) ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 14.

(5) حاجي خليفة: المرجع السابق، ج01، ص 199.

(6) الجزنائي علي: المصدر السابق، ص 24-27-45-65-66-68. الحلبي: المرجع السابق، ص 124

(7) نفسه، ص 124. عبد الله كنون: المرجع السابق، ص 479.

وقد امتدّ الخلاف إلى مؤلِّفه، ومردّ ذلك إلى ما أورده صاحب بيوتات فاس وصاحب مشاهير فاس في القديم، من نسبة الكتاب إلى صالح بن عبد الحليم، ويبدو أنّ صاحبانا قد وقعا في لبسٍ، ذلك أنّ الأنيس كتابان، صغير وكبير، والصّغير من تأليف صالح بن عبد الحليم، أمّا الكبير فهو لابن أبي زرع[1]، وهو الذي اطّلعا عليه وتوهّما أنّه هو الأنيس الصّغير، ومن ثمّ نسباه إلى صالح بن عبد الحليم[2]، وامتدّ ذلك الوهم إلى الكتّانيّ 1927 صاحب سلوة الأنفاس، الذي قدّم إشارة على أنّ الكتابان "يتّفقان في الإخبار بالمسائل"[3]، وهي إشارة حملتني على الاعتقاد أنّ "الأنيس" الذي اطّلع عليه من ذكرنا قبل هو نفسه "الأنيس" الموجود، وهو لابن أبي زرع، على أنّ ابن سودة المرّيّ رأى أنّ "الأنيس" الموجود هو لصالح بن عبد الحليم، لوجود أحداث تصل إلى سنة 732هـ، بينما رأى أنّ كتاب "الأنيس" الذي هو لابن أبي زرع فهو في حكم المفقود[4]، غير أنّ مطالعتي للكتاب الموجود، لم أقف على أحداث تصل إلى تلك السّنة، وقد انتهى صاحبه به إلى أحداث 726هـ/1326م[5].

يبقى القول أنّ جلّ التّراجم والتّواريخ التي تعرضت لابن ابي زرع نسبت له كتاب "الأنيس" أو "تاريخ فاس" أو "القرطاس"، وممّن ذكر ذلك الجزنائيّ في "زهره"[6]، ابن الخطيب في الإحاطة[7]، وابن الأحمر في بيوتات فاس[8]، ومن المتأخرين ابن القاضي[9]، وحاجّي خليفة[10]، والمنّونيّ[11]، عبد الله كنون[12]، ... وغيرهم.

بـ – محتوى الكتاب

كتاب "الأنيس" تاريخ محلّيّ يستقصي دول المغرب الأقصى ولا يكاد يخرج عن جغرافيّته إلّا في النّزر اليسير، ابتدأه صاحبه من خبر تأسيس فاس على يد إدريس الأوّل وما كان من دولته، وصولا إلى الدّولة المرينيّة في ربعها الأوّل من القرن الثّامن الهجريّ.

يقدّم ابن أبي زرع لكتابه بمقدمة كلاسيكيّة هي دأب مؤرّخي ذلك العصر، حيث الثّناء على أمراء الدّولة التي عاصرها عموما، وعلى الأمير الحاكم خصوصا، يذكر فيها سبب تأليفه للكتاب، وموضوعه، ومنهجه فيه، ثم يذكر عنوان مؤلَّفه أخيرا.

---

(1) ابن الأحمر الغرناطي: بيوتات فاس، ص63. الكتاني: المرجع السابق، ص 631.

(2) عبد الله كنون: المرجع السابق، ص 478.

(3) الكتاني: المرجع السابق، ص 631.

(4) عبد السلام بن عبد القادر: المرجع السابق، ص 84.

(5) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 414.

(6) الجزنائي علي: المصدر السابق، ص 24.

(7) ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة، ج01، ص 06.

(8) ابن الأحمر: المصدر السابق، ص63.

(9) ابن القاضي: المصدر السابق، ج02، ص 634.

(10) حاجي خليفة: المرجع السابق، ج01، ص 199.

(11) محمد المنوني: المرجع السابق، ص 89.

(12) عبد الله كنون: المرجع السابق، ص 483.

افتتح ابن أبي زرع كتابه بالحديث عن دولة الأدارسة الحسنيّين، ولنا أن نتساءل عن سبب إغفاله ذكر الفتح الأوّل لبلاد المغرب الأقصى؟ ويبدو أنّ السّبب راجع إلى اختصاص التّأليف على مدينة فاس من جهة، وتعظيم ابن أبي زرع لآل البيت من جهة أخرى، ولذلك فقد آثر الابتداء بدولتهم تبرّكا بهم، وتعظيما لهم، وهو السّمة الغالبة على المرينيّين عموما راع ورعيّة في تعظيم آل البيت الذين اكتسبوا تلك المكانة من نسبهم الشّريف.

استطرد ابن ابي زرع في بيان دخول الإمام إدريس بلاد المغرب فارّا من بطش العبّاسيّين له ولآله، واستقصى حيثيات الفترة تلك بدءا من الدّعوة لمحمّد النّفس الزّكيّة، وانتهاء بموقعة فخّ الشّهيرة سنة 169هـ/786م، التي شكّلت محطّة مهمّة في تاريخ آل البيت الأدارسة، حيث انتقال ملكهم إلى بلاد المغرب مع الإمام إدريس الأكبر –كما أسلفنا–.

يقيّد المؤلّف في أنيسه وصول الإمام إدريس إلى المغرب الأقصى سنة 170هـ/787م ومبايعته إماما سنة 172هـ/789م، بعد تنازل إسحاق بن محمد الأوربي عن ملك مدينة وليلي له، ثم يستطرد في بسط الأحداث التي تلت ذلك، من غزواته ضد البربر النّصارى واليهوديّين، إلى غاية مدينة تلمسان، اختياره لموقع فاس، والشّروع في بناءها من سنة 191هـ/807م[1]، إلى أن استقرّ بها سنة 197هـ/813م[2]، وعن سبب تسميتها كذالك[3]، ويسترسل في وصفها وصفا يقف من خلاله على تفاصيل دقيقة.

يذكر ابن أبي زرع خبر دولة الأمير محمد بن إدريس الثّاني، وما جرى من تقسيم ملك أبيه بين إخوته، وما حدث من فتن بعد ذلك[4]، ويصف بعد ذلك جامع القرويّين وصفا دقيقا، يعدّ فيه أحجار الآجر، والقرمود، والنوافذ، والأبواب، وغيرها[5]، ثمّ استطرد في بيان خطباء جامع القرويّين إلىّ أيّام الدّولة المرينيّة[6].

ذكر ابن أبي زرع بعد ذلك دولة زناتة المغراويّين الزّيريّين الذين حكموا الأندلس والمغرب الأقصى سنة 377هـ/987م، وما كان من صراع الزّيريّين على تملك بلاد المغرب، ثمّ خُلُوّ الجوّ للزّيريّين ولّاة على فاس للمنصور ابن أبي عامر[7].

ينتقل ابن أبي زرع بعد ذلك إلى الحديث عن المرابطين ودولتهم، بعد أن ذكر نسبهم الحميريّ[8]، ثمّ استرسل يسوق أخبار دولة المرابطين، ابتداء من يحي بن إبراهيم شيخ الملثمين وكبيرهم، مرورا بانتقال أمر الدّولة إلى الفرع التّاشفينيّ بقيادة يوسف بن تاشفين الذي أسّس مراكش سنة 454هـ/1062م[9]، وأرجع تبعيّة الأندلس لبلاد المغرب وملك

---

(1) ابن ابي زرع: الانيس، ص 30. الجزنائي: المصدر السابق، ص 30–46.

(2) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 50.

(3) نفسه، ص 45.

(4) نفسه، ص 51–52.

(5) نفسه، 54–71.

(6) نفسه، ص 71–78.

(7) نفسه، ص 108.

(8) نفسه، ص 119.

(9) نفسه، ص 138.

المرابطين في الزّلّاقة سنة 479هـ/1086م[1]، وتسمّى "أمير المسلمين" كأوّل من تلقّب من ملوك المغرب بذلك[2] سنة 479هـ/1086م[3]، غير أنّ صاحب الحلل الموشيّة أورد أنّ ذلك كان سنة 468هـ/1076م[4].

واصل ابن ابي زرع أخباره عن دولة المرابطين، وسرد دولهم، وصولا إلى انهيارها وضعفها، ثمّ سقوطها نهائيّا سنة 541هـ/1146م[5]، وقيام دولة الموحّدين المومنيّة، وقد ذكر ابن أبي زرع نسب ابن تومرت وأوصله إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالب، غير أنّه علّق بكون النّسابة قد ألحقوه بقبيلة مصمودة البربريّة، ولم يُبد رأيه في ذلك مكتفيا بالقول "والله أعلم بذلك"، وأورد خبر سفره إلى المشرق ولقاءه أبا حامد الغزاليّ[6]، ثم عودته إلى إفريقيّة وتلقُّبه بالمهديّ المنتظر[7]، واجتماع النّاس حول دعوته وفي مقدّمتهم أصحابه العشرة الذين بايعوه بالإمامة سنة 515هـ/1121م[8].

استطرد ابن أبي زرع في بسط أحداث التّوسّع الموحّديّ في البلاد المغربية حيث إلحاق الحمّاديّين بالدّولة الموحّديّة سنة 547هـ/1152م[9]، ثمّ دخلوا الأندلس سنة 539هـ/1144م[10]، وفتحوا معظم مدنها، إلى غاية إلحاقها بهم أيضا سنة 551هـ/1156م[11]، ثمّ دخول المهديّة قاعدة النّورمان وفتحها سنة 553هـ/1158م[12]، واستمرت دولة الموحّدين إلى غاية انهزامها في حصن العقاب سنة 515هـ/1121م، وتدهورها، وضعفها، ومن ثمّ سقوطها، وأفولها على يد المرينيّن الذين دخلوا مرّاكش سنة 668هـ/1270م[13].

بالنّسبة للمرينيّن، فإنّ ابن أبي زرع حكى عنهم باسترسال، فقد عاش في كنفهم وتتبّع أخبار دولتهم من سنة 610هـ/1213م، إلى غاية قيام دولتهم سنة 668هـ/1270م، فذكر نسبهم "العربي الصّريح"، وسبب تحول لسانهم العربيّ الصحيح[14].

يتعقّب ابن أبي زرع حكّام الدّولة المرينيّة حسب تداولهم على الحكم، ويختتم الكتاب باختصار الأخبار التي كانت ببلاد المغرب من سنة 656هـ/1161م، إلى سنة 726هـ/1326م التي أنهى بها "أنيسه"[15].

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 147.
(2) نفسه ، ص 137.
(3) نفسه ، ص 149.
(4) مجهول: الحلل الموشية، ص 28–29.
(5) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 172.
(6) نفسه ، ص 172.
(7) نفسه ، ص 173.
(8) نفسه ، ص 189.
(9) نفسه، ص 172.
(10) نفسه، ص 189.
(11) نفسه ، ص 195–196..
(12) نفسه ، ص 197.
(13) نفسه ، ص 277.
(14) نفسه، ص 278– 282..
(15) نفسه، ص 414..

جـ – التّمثّلات المنهجيّة في كتاب "الأنيس المطرب"

لا شكّ أنّ التّدوين التّاريخيّ عمليّة تقتضي البحث والاستقصاء، ويكاد يكون ذلك هو روح التّأريخ، ممّا يدلّل على أنّ إعادة بناء الواقعة التّاريخيّة تستدعي مناهج متعدّدة، حال الوصف، أو المقارنة، أو التّحليل، أو غيرها من العمليّات التي يقتضيها العمل التّأريخيّ.

إضافة إلى ذلك الاعتداد بالمصادر التي تُسند المؤرّخ حال التّأصيل للواقعة التّاريخيّة، ويبقى عليه إعادة بسط تلك النّقولات، والإحالة عليها، تعميما للفائدة، وإقرارا لمبدأ الأمانة العلميّة، ومن ثمّ فإنّ التّاريخ استحضار للماضي على الشّاكلة التي يفترض أنّه قد كان عليها، وهو الذي يقتضي الإلمام بحيثيات الموضوع، وبيان ما أُلّف حوله، وفي الأخير بسط ما تمّ الوصول إليه، اعتمادا على التّحليل والمقارنة كما أشرت.

- **الغاية من تأليف القرطاس**

لم يكن ابن أبي زرع بدعا من المؤرّخين الذين كتبوا تواريخ سلطانيّة فالإيديولوجيا التي طبعت حركة التّأريخ في تلك الفترات، لم تكن ظرفيّة اقتصرت على فترة معيّنة من التّاريخ، بل كانت السّمة الغالبة على جلّ تواريخ الدّول التي قامت في بلاد المغرب كجزء من البحث عن الشّرعيّة في كلّ لحظة حتّى في التّاريخ، ولم تنْج إلّا القلّة القليلة من المؤرّخين الذين تحرّروا من عقد السّلطان.

وقد صرّح صاحب القرطاس في مقدّمته عن سبب تأليف الكتاب فيقول:"وإنّي لما رأيت من مكارم دولته السّعيدة...أردت خدمة جمالها.. بتأليف كتاب جامع للطيف الأخبار.."[1]، ويتجلّى من خلال ذلك أنّ هدف التّأليف هو إتحاف "أمير المسلمين أبو سعيد عثمان"[2]، وتلك نحلة مؤرّخي الدّول التي تعاقب حكم البلاد الإسلاميّة مشرقا ومغربا.

غير أنّي –وللأمانة– سأذكر أنّ من أولئك المؤرّخين من استجابوا للسّلطان أمرا ولم يستجيبوا فكرا، –ومنهم مؤرّخنا– فكتبوا له التّاريخ، ومجّدوا الدّولة، لكنهم بسطوا أخبار دول عادت الدّولة التي عاصروها، ولم يمنعهم ذلك من انتقاصها، على الرّغم من أنّ مقتضيات الأيديولوجيا تستوجب النّيل من الخصوم.

ما أريد الإلماح إليه هنا، أنّ صاحب القرطاس –على ما يبدو– قد كان متحرّرا من سلطان السّياسة فكرا، وقد بدا ذلك واضحا في وصفه لحكّام الدّول التي سبقت المرينيّين بالأمراء والسّلاطين، وبجّلهم ومدحهم، على الرّغم من الخلاف العقديّ والسّياسّي معهم[3]،غير أنّ ذلك لا يخرجه من دائرة التّآليف السّلطانيّة –كما سبق وأشرت–.

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 13.

(2) نفسه ، ص 12.

(3) انظر خبره عن ابن تومرت في الانيس المطرب، ص 181–182.

• مصادر قرطاس ابن أبي زرع

أرخ ابن أبي زرع بالتّفصيل لمدينة فاس خصوصا، ولبلاد المغرب الأقصى بحدوده المعروفة عموما، غطّى من خلال ذلك فترة امتدّت لخمسة قرون وربع تقريبا، وهي فترة تحتاج لمآخذ متعدّدة، تُمكّنه من الإلمام بها، ولذلك فقد استقى معارفه عن تلك المدد–الطّويلة– ممّا انتقى "جواهره من كتب التّاريخ المعتمد على صحّتها.."[1].

ويسند المؤلِّف تاريخه –أيضا– بما رواه عن "أشياخ التّاريخ، والحُفّاظ، والكتّاب، وقيّدته عن الرّوّاة"، غير أنّه لم يلتزم بما جرت عليه عادة المؤرّخين من نسبة الكلام لأهله، وردّ القول لأصحابه، فهو لا يذكر أسماءهم ولا ينسب إليهم كلامهم في أحايين كثيرة "خيفة الإكثار والامتداد"[2].

وعليه، فإنّ ابن أبي زرع متنوّع المشارب، يستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة، وتراه يستقصى جملة أخباره عن تاريخ المغرب –أيضا– من كتب التّاريخ التي سيوردها في كتابه، إضافة إلى الحفّاظ، والرّوّاة الثّقات الذين تلقّى عنهم مشافهة أو سماعا.

✓ القرآن الكريم

كان اعتماد ابن أبي زرع القرآن الكريم مصدرا لتاريخه في إطار التّدليل على بعض المحطّات التاريخيّة، ولم يكن اعتماده عليه اعتمادا في التّأريخ للأحداث التّاريخيّة كما هو شأن الطّبريّ، وابن الأثير، وغيرهما.

وقد استدلّ صاحبنا في "قرطاسه" على مشروعيّة شورى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي لأتباعه في كيفيّة لقاء العدوّ في غزوة الأراك ضدّ الرّوم، فكانت تلك الشّورى اتّباعا لأمر الله، واستنانا بسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم[3]، لقوله تعالى:"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"*، وقوله لنبيّه صلى الله عليه وسلم:"وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ"**، عدا ذلك، فلم يكن لابن أبي زرع كثير استناد إلى القرآن الكريم في التّأريخ للمنطقة، وما ورد من آيات، كان في إطار نقله لخُطب الأئمّة[4]، أو وُصوفِه[5]، أو اقتباساته[6].

✓ الحديث الشّريف

لم يخرج ابن ابي زرع في إيراده للحديث النّبويّ عمّا كان اعتاده من استحضار لآيِ القرآن، فقد كان يستدلّ بالحديث في معرض وصفه، أو استشهاده لا غير، ومن ذلك بيانه لفضيلة مدينة فاس، حيث أورد حديثا عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فيه:"تكون بالمغرب مدينة أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة،..."[7]، ومن ذلك –أيضا– إيراده

---

(1) ابن أبي زرع: الانيس، ص 14.

(2) نفسه، ص 14.

(3) نفسه، ص 223.

* الشورى، الآية 38.

** آل عمران: الآية 159.

(4) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 57، 64،

(5) نفسه، ص 132، 174.

(6) نفسه، ص 114.

(7) نفسه، ص 45. الحديث لا أساس له ولم أعثر له على أثر في كتب الحديث.

واقع انتداب الإمام عبد الله بن موسى لشيخه أبو محمد القضاعي لاستخلافه على خطابة منبر القرويّين، ولبيان أحقّيّة القضاعيّ لذلك، استدلّ عبد الله بحديث:"مولاك من علمك آية من كتاب الله تعالى"[1].

✓ التّجربة والمعاينة

التاريخ عند ابن خلدون هو "خبر عن الاجتماع الإنسانيّ"[2]، فهو بذلك ينصبّ على الواقع المجتمعيّ مشاهدة ومعاينة، بتسجيل وتدوين جزئيّات ذلك الواقع لذلك اعتُدّت التّجارب الشّخصيّة، والمشاهدات العينيّة، من الخبر التّاريخيّ، مع الأخذ في الحسبان ما قد يعتري ذلك من عوائق إبستيمولوجيّة تحول دون الحقيقة، الأمر الذي يحيلنا إلى الشّكّ المنهجيّ الذي أقرّه ابن خلدون، ودافع عنه.

ومع ذلك، فإنّ المعاينة معطى يستوجب التّعاملُ معه جملة من العمليّات التي تصل به إلى مرتبة العلميّة، من خلال تمحيصه لمعرفة صحته من خطأه[3]، وإذا استوفينا ذلك أو قرّبنا منه، فإنّ المشاهدة تغدو مادّة مهمّة لكتابة التّاريخ، حيث التّفاصيل والدّقائق التي عايشها المدوّن، والتي تنقل واقعا معاشا، وذلك يعلو الإخبار مرتبة، "فليس الخبر كالمعاينة" كما يقال.

يعتمد ابن أبي زرع مشاهداته الشّخصيّة حال التّأريخ لمدينة فاس، وبالتّالي فهو يُعطي صورة دقيقة للواقع الذي يصفه، تمكّن القارئ من تكوين فكرة حول الموضوع، بناء على سرديّة ابن أبي زرع لتفاصيل ما لاحظه.

يصف مؤرّخنا مدينة فاس وصفا دقيقا، فيورد خبر شوارعها، ومنتجاتها بالقول:"..وقد شاهدت الزّرع ... في.. آفريل، وحُصد في آخر مايه.."[4]، ويصف بعد ذلك جامع القرويّين وصفا دقيقا، يعدّ فيه أحجار الآجر، والقرمود، والنوافذ، والأبواب، وغيرها[5]

وصف ابن أبي زرع بلاط أبي سعيد عثمان المرينيّ، فعدّد خدمه، وأطباءه وخبر بيعته[6]، وذلك من خلال مشاهداته الشّخصيّة، وقد وقف على وصف المجاعة التي حدثت سنة 724هـ[7]، وعلى الغلاء الذي شهدته السّلع والأسواق[8].

✓ التّآليف التّاريخيّة

بلغت مصادر ابن أبي زرع 18 مصدرا، عدا ما أحال إليه من كتبه هو ممثّلة في "أزهار البستان"، و"الذّخيرة السّنيّة"، ليكون مجموع ما ذُكر من مصادر في "الأنيس" 20 مصدرا، وقد انتهج صاحبنا حال الاعتماد عليها منهجا من ثلاث طرائق:

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 74.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 38.

(3) ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ص 40.

(4) ابن ابي زرع: الانيس، 44.

(5) نفسه، 54-71.

(6) نفسه ، ص120، 245، 280،300.

(7) نفسه ، ص 401.

(8) نفسه ، ص 302.

* **يذكر الكتاب والكاتب**: ومن ذلك:

قوله عند وصف مدينة فاس أيّام المرابطين:"نقلت ذلك من تقييد علي بن عمر الأوسي"، وإيراده لخطبة الإمام إدريس τ عن ابن غالب في "تاريخه"[1].

استشهاده بشعر عبد العزيز الملزوزي في رجزه "نظم السلوك، في الأنبياء والملوك"[2].

نقله لخبر هزيمة ابن أبي العافية أمام القائد ميسور عن ابن البان في كتابه المفقود "جلاء الأذهان"[3].

وعند تأصيله للّمتونيّين المرابطين اعتمد كتاب "الإكليل في الدولة الحميريّة" لمحمد بن الحسن الهمداني[4].

وهكذا طريقته في نقل أخباره من الكتب وكتّابها، وتوظيفها حسب مواضيعها وقد أحصيت بعض تلك المؤلفات –لا على سبيل الحصر– وهي كالتّالي:

– "المقباس" للمحاسبي[5]، "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة[6]، تفسير ابن خشّاب[7] "ميزان العلم" لابن رشيق[8]، "البرهانيّة" لعثمان السّلاجيّ[9]، "المقباس" للورّاق عبد الملك بن محمود[10]..

* **يذكر الكاتب دون ذكر الكتاب**: ومن أمثلة ذلك:

نقله لأخبار الأدارسة، وأخذ بيعة للإمام إدريس الثّانيّ من قبل مولاه راشد، وتاريخ وسبب وفاته، وله من العمر 11 سنة، عن البكري[11] صاحب "المغرب في أخبار إفريقيّة والمغرب"، وعن البرنسيّ[12] صاحب "المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس"، وهو كتاب مفقود.

وعن أخبار لمتونة وسيرهم في بلاد المغرب والسّودان، اعتمد على الكاتب ابن جنون[13]، وهو صاحب "تاريخ مدينة فاس".

واعتمد النّقل بكثرة عن ابن مطروح صاحب "التاريخ" أخبار الدّولة الموحّديّة، فذكر أنّ ابن تومرت دعيّ نسب، وأنّه يُعرف بابن تومرت الهرغيّ، ونقل عنه أيضا خبر وسبب وفاة يوسف بن عبد المؤمن بن علي[14].

---

(1) **ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 49.**

(2) **نفسه ، ص 395–397..**

(3) **نفسه، ص 87.**

(4) **نفسه، ص 119.**

(5) **نفسه، ص 24.**

(6) **نفسه، ص 184.**

(7) **نفسه، ص 180.**

(8) **نفسه، ص 258.**

(9) **نفسه، ص 266.**

(10) **نفسه، ص 24.**

(11) **نفسه، ص 24،28.**

(12) **نفسه، ص 24،50،188.**

(13) **نفسه، ص 55،166.**

(14) **نفسه، ص 172،215.**

أولئك كتّاب ومؤرّخون نقل ابن أبي زرع عنهم، وذكرهم دون أن يذكر عناوين مؤلّفاتهم، وقد ذكرت بعضهم للاستدلال لا للحصر.

* **يذكر الكتاب دون الكاتب**: ومن أمثلة ذلك:

ما نقله ابن أبي زرع عن كتاب "الاستبصار في عجائب الامصار"، في سبب تسمية فاس، وأنّه اشتقاق من تكرار كلمة الفأس تلك الأداة التي كان سيّدنا إدريس يستعملها حال البناء،[1] ولم يذكر مؤلّفه وهو مجهول.

ونقله عن كتاب "التّشوف إلى معرفة رجال التّصوّف" خبر وفاة أبي جبل سنة 503هـ، وذكر كرامة له وهي رؤية الخضر عليه السلام[2]، وصاحب الكتاب هو ابن الزّيّات يعقوب بن يحي التّادليّ.

✓ **المشافهة والسّماع**

من مصادر ابن أبي زرع التّوثيق الشّفويّ، والخبر على السّماع، وعلى الرّغم من الإشكالات المعرفيّة والمنهجيّة التي تعترض التّأريخ الشّفويّ، إلّا أنّ غياب الوثيقة يُحيل على الرّواية الشّفويّة.

وقد نقل مؤرّخنا تشافها خبر دخول بني مرين الأوّل لبلاد المغرب، واصطدامهم بأمير الموحّدين يوسف المنتصر، وتلك أوّل مواجهة بينهم، انتصر فيها المرينيّون بقوله:"حدثني من أثق به من أهل التّاريخ"[3].

كما نقل خبر قدوم عبد الله بن الودّون، وأخوه الفقيه يوسف، مع فقهاء وشرفاء رباط الفتح سنة 683هـ/1284م على الأمير يعقوب بن عبد الحق المرينيّ، يريدون الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد، بقوله:"أخبرني الفقيه عبد الله الودّون"[4].

هذا، واعتمد ابن أبي زرع خبر السّماع، أو الرّواية على السّماع، وذلك من شاكلة "قال، قيل، يقال.."، فقد ذكر روايات سبب تسمية "فاس" كذالك، حيث عُثر على فأس فسُمّيت نسبة لذلك الفأس، وحكاية مرور الرجل الألثغ الذي يسمّى فارس، وعند سؤاله عن اسمه قال "فاس"، وكان اسمه "فارس"، ورواية المدينة ساف القديمة التي بُنيت عليها مدينة فاس، وعند التّسمية قُلبت فاس[5].

وفي بناء جامع القرويين وجامع الأندلس، حيث أورد سماعا عن جماعة من سكّانها أنّ من بنى الأول فاطمة الفهريّة سنة 245هـ، وبنى الثّاني أختها مريم[6].

وما أورده في قرينة استخلاف ابن تومرت لابن علي على لدّولة النّاشئة، حيث استدعاه –حال احتضاره– وأعطاه كتاب "الجفر" لأبي حامد الغزالي[7].

---

[1] **ابن ابي زرع: الانيس ، ص 45.**

[2] **نفسه، ص 170.**

[3] **نفسه، ص 283.**

[4] **نفسه، ص 287.**

[5] **نفسه، ص 45.**

[6] **نفسه ، ص 30.**

[7] **نفسه، ص 179–180.**

وانفرد ابن أبي زرع بنقل خبر النّزاع الذي قام بين أهل العشرة وطمعهم في الخلافة بعد المهديّ-بقوله قيل- ثمّ اجتمع رأيهم على مبايعة ابن علي لأنّه غريبا بينهم[1].

- **منهج ابن أبي زرع في الأنيس المطرب**

استغرقت الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب خلال القرنين 8-9هـ أغلب مناهج الكتابة التّاريخيّة المعتمدة في التّأريخ، ومؤرّخنا ابن ابي زرع -في كتابه القرطاس- لم يخرج عن مناهج التّدوين السّائدة إذّاك، وقد اعتمد المنهج الحدثيّ-الحوليّ في كتابة تاريخ فاس، وهو منهج يقوم على ترتيب الكتاب موضوعاتيّا -حسب الموضوع الواحد- وحوليّا - ببيان الأحداث التي جرت خلال ذلك الحدث مرتّبة على السّنين.

يؤرّخ ابن أبي زرع للدّولة التي حكمت بلاد المغرب كرونولوجيّا، ثم يستطرد في بسط حكّامها واحدا واحدا، ويستقصي نسب كل منهم، وأعماله، ونبذا من سيرته وغزواته، ويعمد إلى ذكر الوقائع والأحداث مرتّبة على السّنين، مغطّيا بذلك فترة حكم الأمير، وما حدث خلالها، ثمّ ينتقل بطريقة سهلة سلسة من حاكم لآخر، انتقالا يشعر المتلقّي من خلاله باسترسال واتّساق يمنع عن الذّهن الشّرود والانقطاع الذي ينتابه عند مطالعة مثل تلك المواضيع المتشعّبة، ويُنبأ عن مدى تحكّم ابن أبي زرع في ترتيب الكتاب وموضوعاته.

ما يميّز منهج ابن أبي زرع، هو الخلاصة التي يقيّد بها ما تناوله خلال بسطه للدّولة التي استغرق أحداثها وسلاطينها، ذلك أنّه يذيّل كل دولة بخبر عن "الأحداث التي كانت بالمغرب" في أيام تلك الدّولة إلى انقضائها، ويقوم بترتيب تلك الأحداث مختصرة على السّنين.

يترجم ابن أبي زرع للأمراء والسّلاطين تراجم تعكس اهتمامه البالغ بكلّ التّفاصيل، من نسب الأمير، إلى أوصافه، وأخلاقه، وعلمه، بل إنّه يستقصي كتّابه وحجّابه، ووزراءه، وأطبّاءه، بمقاربة إحصائيّة تلمّ بأسمائهم[2].

وينسحب الأمر على وصف مدن المغرب، حيث يستقصي شوارعها، وحدائقها، وبيوتها، وصفا دقيقا يقف من خلاله على خبر شوارعها، ومنتجاتها[3]، ويعدّ فيه أحجار الآجر، والقرمود، والنوافذ، والأبواب[4]، والأسعار والأسواق[5]، ويمتدّ الوصف إلى التّطرّق إلى النّوائب والمسغبّات[6]، وإلى نوع الهدايا المقدمة للسّلاطين.

يبدي ابن أبي زرع رأيه في الحكّام والفقهاء، ليس على مستوى المرينيّين والأدارسة فقط، وإنّما يمتدّ مدحه إلى المرابطين والموحّدين، وقد بدا ذلك واضحا في تلقيبه لهم بعبارات التّبجيل، مثل مولانا، معلي الإسلام، الإمام العدل القائم بالحقّ، الفقيه الصّالح الزاهد، العالم المشاور..، إلى غير ذلك من الأوصاف التي توحي بتقديره وتوقيره لهم.

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 184.

(2) نفسه ، ص 395-397..

(3) نفسه، 44.

(4) نفسه، 54-71.

(5) نفسه، ص 302.

(6) نفسه، ص 401.

كما أنّه يبدي رأيه من بعض الأمراء امتعاضا من سلوكاته وعقائده، ومثال ذلك كلامه عن ابن تومرت لما خطب في أتباعه، وبيّن لهم أنّه المهديّ، فكان ابن أبي زرع يعبّر عن ذلك بقوله:"فاستهواهم بكيده..ولسانه ومكره"[1]، "ومهّد الملك لغيره بالخدع"[2]، وكلّها عبارات توحي بمدى استهجان المؤلِّف لنحلة ابن تومرت.

هذا، ويكتفي ابن أبي زرع ببسط الوقائع الميثولوجيّة دون تعليق، فيورد مثلا طريقة دفن رجل افتدى عبد المؤمن بنفسه، فاركبه عبد المؤمن ناقة، وتركها تمشي حتى بركت، ودفنه هناك وبنى عليه جامعا[3]، ومن ذلك –أيضا– قوله أنّ أحد عيون الماء جرت دما إلى اللّيل، ثمّ عادت كما كانت[4].

- **قيمة الكتاب**

الكتاب قطعة تاريخيّة شاهدة على فترة من التّاريخ المرينيّ وفاعلة فيه، وقد امتدّ أفقيّا في الزّمن، وعموديّا في الجغرافيا، ليغطّي فترة تربو عن الخمسة قرون، استقصى من خلالها أحوال الدّول التي حكمت المغرب الإسلاميّ عموما، والأقصى خصوصا، وبذلك يكون قد شكّل مرجعا للباحث في تاريخ المنطقة بكلّ تفاصيلها.

والكتاب سجلّ تاريخيّ حفظ لنا روايات تاريخيّة مهمّة عن بلاد المغرب، ونقل عن مؤرّخين عاصروا وقائعه، فدوّنها وضمن لها البقاء، وتلك مزيّة أخرى تضاف إلى الكتاب، على اعتبار أنّ التّاريخ سجلّ الماضي.

وقد جاءت معلوماته دقيقة وواضحة، وخصوصاً عند وصفه لبعض سلاطين الدّول التي تعاقبت حكم المنطقة، وصفا جعل ابن أبي زرع يقف على جزئيات المعمار وبلاط السّلطان، كما في وصف جامع القرويّين، وخبر بناءه[5]، ذلك أنّ وصفه له لا يوجد في غيره من مصادر عصره، ومن مزاياه –أيضا– تخصيص جزء كبير لوصف مدينة فاس مستغرقًا التّاريخ والجغرافيا، متلقّفًا كلّ ما وقعت عليه عينه، ناقلا بذلك صورة كاملة عن الواقع المعاش، وأحوال السّوق والأسعار، وتفاصيل السّياسة والحرب، الأمر الذي يعكس الحسّ التّاريخيّ والجغرافيّ عند ابن أبي زرع، من خلال وقوفه على أسباب نشوء وازدهار المدن في بلاد المغرب، وعوامل انحطاطها وأفولها.

قيمة الكتاب تأتّت من تفرّده بذكر أوّل من خطب على محراب القرويّين بعد تجديده أيام قدوم الموحّدين، وهو الفقيه مهدي بن عيسى[6]، وتتبّع خطباءه واحدا واحدا، وقد أفادنا بذكر أوّل من كتب الحمد لله وحده، وهو الأمير الموحّديّ يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ[7]، وبسرد تفاصيل التّخلي عن تعاليم المهدي من قبل المأمون إدريس بن يعقوب المنصور الموحّديّ وما ترتّب عن ذلك[8]، إضافة إلى معلومات أخرى لم أذكرها خشية الإطالة، والمناسبة للتّدليل لا الحصر.

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 177.

(2) نفسه، ص 181.

(3) نفسه، ص 200.

(4) نفسه، ص 412..

(5) نفسه، ص 30.

(6) نفسه، ص 62،71.

(7) نفسه، ص 217.

(8) نفسه، ص 251.

هذا، وكما تجاوز ابن أبي زرع التّاريخ، فقد تجاوز الجغرافيا أيضا، فلم يكن تدوينه هاهنا قطريّا يتوقّف عند الجغرافيا المغربيّة فحسب، بل تعدّى ذلك إلى التّأريخ للمشرق[1] والأندلس[2]، من خلال سرد الأحدث التي طبعت تلك البلاد، حيث يذكر السيل العظيم بإشبيليّة سنة 564هـ/1169م، والزلازل التي هزّت المشرق، ونتائجها هناك، سنة 568هـ/1173م[3].

وصف ابن أبي زرع الحملة التي تعرضت لها الدّولة الحفصيّة في تونس، وهي الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في سنة 668هـ/1270م، التي أخفقت، بسبب الوباء الذي حلّ بها، وعصف بحياة الملك[4].

قدّم ابن أبي زرع أيضا صورة –مقتضبة– عن أحداث المشرق، حيث أورد خبر فتح الملك المنصور صاحب ديار مصر مدينة طرابلس الشّام[5]، كما ذكر أخبار فتح مدينة عكا سنة 691 هـ/ 1292 م[6].

والواقع، أن ما ورد من أخبار مشرقيّة في "الأنيس" تمثّل حالة عرضيّة تقاطعت مع أحداث المغرب، كحالة الغلاء الواقعة سنة 260 هـ/ 873م، والتي استغرقت بلاد المغرب والأندلس وإفريقية ومصر وبلاد الحجاز[7].

أخيرا، تبقى الإشارة إلى أنّ أنيس ابن ابي زرع تاريخ لا يُعدَم الباحث فيه فائدة سواء ما تعلّق بالتّاريخ، ما تعلّق بالجغرافيا، هذا فضلا عن كونه شهادة –في بعض أحداثه– عن واقع عايشه صاحبه، ووثّق أحداثه أفقيّا وعموديا، الأمر الذي جعله معتمد من يأتي بعده من مؤرّخين للمنطقة –كما سيأتي بيانه–.

- **النّقولات عنه**

ابتدأ التّأريخ المحليّ لمدينة فاس مع ابن أبي زرع، وبذلك فإنّه من السّبّاقين إلى ذلك الفنّ، ولاغرو أنّه مُعتمد من جاء بعده من المؤرّخين لفاس، وقد بدا ذلك جليّا في كتابات الجزنائيّ في "جنى زهر الآس"، فقد أكثر النّقل عنه خصوصا ما تعلّق بفتوحات سيّدنا إدريس في بلاد المغرب[8]، وعند تعرّضه لاختطاط مدينة فاس وسبب تسميتها بذلك الاسم[9]، واعتمده أيضا حال توصيف المدينة وشوارعها ومساجدها[10].

---

(1) مزاحم علاوي الشاهري، سالم محمود عيسى: المؤرخ ابن ابي زرع ومنهجه في كتاب الانيس المطرب، مجلة التاريخ العربي، العدد 34، 2005، ص 143–145.

(2) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 313.

(3) نفسه، ص 266.

(4) نفسه، ص 403–404. الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج02، ص 105.

(5) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 407–408.

(6) نفسه، ص 408.

(7) نفسه، ص 96–97.

(8) الجزنائي علي: جنى زهر الآس، ص 27

(9) نفسه، ص 24.

(10) نفسه، ص 44–45، 66–67.

وهذا ابن الأحمر يطالعنا في بيوتات فاس عن سبب تسمية باب الشريعة –في فاس– بباب المحروق، وصوّب اعتقاد النّاس –انطلاقا من كتاب الأنيس– في أنّ ذلك بسبب حرق ابن الخطيب هناك، وأقرّ أنّ ذلك كان بسبب قتل العبيديّ الذي غزا فاس وإحراقه هناك[1].

أمّا ابن الخطيب الذي أثبت في الإحاطة أصناف التّأليف في التّاريخ، وذكر الصّنف الذي ينحل أصحابه فيه نحلة القطريّة الضّيّقة، أو التي دوّن أصحابها من خلالها تواريخ محلّيّة لبلدانهم، وذكر في جملة من ذكر ابن ابي زرع صاحب تاريخ فاس[2]، ولا غرو، فذلك دليل على أنّه قد اطّلع عليه ونقل منه، وإن كان لا يذكر ذلك حال النّقل.

وابن خلدون في تاريخه، حيث استند عليه عند تأريخه لصنهاجة المغرب أصل المرابطين وما كان من أمرهم هناك، وعند استرساله في الإخبار عن لدولة يوسف بن تاشفين اللّمتونيّ بالمغرب والأندلس[3]، رغم أنّ ابن خلدون لا يصرّح بمصادره إلّا نادرا.

عموم القول أنّ الأنيس كان معتمَد المؤرّخين بعد ابن ابي زرع، وسواء كانت فترة المؤرّخ قريبة من صاحب الأنيس أو بعيدة عنه، فإنّ الباحث في تاريخ فاس لا يستَغني عن ابن أبي زرع، والأمر يتعدّى ذلك إلى التّأريخ لتلك الفترة خارج مدينة فاس.

03– الذخيرة السّنيّة في مآثر الدّولة المرينيّة

أ– تحقيق في العنوان ونسبة الكتاب:

لا تجد بين الباحثين جدلا في عنوان الكتاب، ومردّ ذلك أنّ مؤلِّفه صرّح به في مقدّمته الكتاب فقال:" ..وسمّيته (الذّخيرة السّنيّة في تاريخ الدّولة المرينيّة العبد الحقّيّة)[4] وبناء عليه استوثق العنوان عند الدّارسين.

والذي استشكل عندهم إنّما هو مؤلِّف الكتاب، فقد نسبه البعض لمؤلِّف مجهول لم يذكر اسمه[5]، ورجّح آخرون أنّه لابن أبي زرع[6]، في حين جزم باحث في مقال له نشر بمجلة دعوة الحقّ بمقارنة بسيطة أجرها بين "القرطاس" و"الذّخيرة"[7]، وبدراسة قام بها عبد الله كنون واهتدى –دون كثير جهد– إلى أنّ مؤلِّف "الذّخيرة" هو نفسه مؤلِّف "القرطاس"، وهو ابن أبي زرع الفاسيّ، وقد دلّلا على ذلك بشواهد توحي –دونما شكّ– بنسبة الكتاب لابن أبي زرع، وأقوى تلك الأدلّة –حسب عبد الله كنون– المقارنة بين "عبارات "القرطاس" و"الذّخيرة" حيث كتب ابن أبي زرع عن نسب بني مرين في "القرطاس":"نقلت من تقييد الفقيه أبي علي المليانى بخطّ يده"، وكتب في "الذّخيرة": "ذكر الفقيه

---

(1) ابن الأحمر: المصدر السابق، ص63.

(2) ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة، ج01، ص 06.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج06، ص 246،242،241.

(4) ابن ابي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشر: دار المنصور، ط1، دار المنصور، الرباط، المغرب، 1920، ص 08.

(5) مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشر: محمد بن شنب، ط1، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1920، ص 08. محمد المنوني: مرجع سابق، ص 70.

(6) الزركلي: مرجع سابق، ج04، ص 306.

(7) الذخيرة السنية قسم مطول من روض القرطاس ، بحث منشور ضمن مجلة دعوة الحق ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد 141، المغرب، دت. موقع المجلة على النت http://habous.gov.ma/daouat-alhaq اطلع عليه يوم 25 من سبتمبر 2018، على 18:00 سا

..أبو علي المليلي رحمه الله في نسبهم.. ونقلته من تقييد بخطه"، وهي مقارنة توحي بأنّ المؤلِّف واحد على أنّ ما أورد عبد الله كنون من أدلّة تصل حدّ اليقين أنّ الكتاب لابن أبي زرع.

والحقّ، أنّ المطالع لـ"الذّخيرة" و"القرطاس" يلحظ بجلاء تامّ أنّ المؤلِّف واحد، ذلك أنّ ابن قوام منهج أبي زرع في "القرطاس" التّأريخ على الموضوعات والسّنون أو المنهج الحدثيّ -الحوليّ، وهو نفسه الذي اعتمده في "الذّخيرة"، فضلا عن أسلوب الكتابين الواحد والذي قوامه التّحلّة لبني مرين، والوقوف على تفاصيل دقيقة توحي بأنّ المؤلِّف من الفاعلين في الأحداث -كما في القرطاس- وذلك لا يكون إلّا ابن أبي زرع.

هذا، وقد وجدت تطابقا حرفيا في مقدّمة الكتابين، تطابقا يرجّح -برأيي- فرضيّة أنّ الكتابين لمؤلِّف واحد، والبيان التّالي:

- يقول في مقدّمة "الذّخيرة":"وإنّي لما رأيت الخلافة ... تنظم نظم الجمان، وسور فضائلها تتلألأ بكلّ لسان...أردت خدمة جمالها، والتّقرّب إلى كمالها، والتّفيّأ بظلالها، والورد من عذب زلالها، بتأليف كتاب.."[1].

- ويقول في مقدّمة "القرطاس":" وإنّي لما رأيت مكارم دولته ... تنظم نظم الجمان، وسور فضائلها تتلألأ بكلّ لسان...أردت خدمة جمالها، والتّقرّب إلى كمالها، والتّفيّأ بظلالها، والورد من عذب زلالها، بتأليف كتاب.."[2].

التّطابق ذاك، لا يمكن أن يكون من مؤلِّفين منفصلين نقل أحدهما عن الآخر كما لا يمكن أن يكون صدفة، إلّا أن يكون من مؤلِّف واحد، إذا أضيفت له باقي القرائن التي سآتي على ذكرها في المتن -إن شاء الله-.

بقي أن نشير إلى أنّ "الذخيرة" هي آخر مؤلّفات ابن أبي زرع -كما ذكر عبد الله كنون- وليس "القرطاس"، دلّ ذلك أنّ ابن أبي زرع يقول عند الإحالة على نفسه في "الذّخيرة":"قال صاحب التّاريخ عفا الله عنه"، وهو يقصد نفسه لأنّه هو صاحب "القرطاس" الذي يسمّى أيضا "تاريخ فاس"، وعند الإحالة على نفسه في "القرطاس" يقول: "قال المؤلّف للكتاب عفا الله"، الأمر الذي يدلّ على أنّ الذّخيرة كُتبت بعد "القرطاس".

ملاحظة أخيرة تتعلّق بـ "الذّخيرة"، وهي أنّها تاريخ جامع لدولة بني مرين، لكنها تتوقّف عند سنة 679هـ/1280م، الأمر الذي يُستشكل لدى الباحث أمرَدُّ ذلك إلى ضياع الجزء المتعلّق بالفترة من تلك السّنة إلى سنة 726هـ/1326م؟ أم أنّه تاريخ كامل ينتهي عند سنة 679هـ/1280م فعلا؟ ويبدو أنّ الرأي الأوّل راجح، توحي بذلك عبارة "هذا ما وُجد من هذا الكتاب" الموجودة في نهاية "الذّخيرة"، وإهداء الكتاب الذي كان للأمير أبي سعيد عثمان بن يعقوب.

بـ - محتوى الكتاب

أورد ابن أبي زرع محتوى "الذّخيرة" في مقدّمتها، موضّحا أنها محصّلة عشرة أبواب، كلّ باب مخصّص لأمير من أمراء الدّولة المرينيّة، ليغطّي بذلك مرحلة تاريخيّة مهمّة من مراحلها، تستغرق أيّام المؤسّس عبد الحق بن محيو، إلى أيّام أبي سعيد عثمان بن يعقوب، وهي الفترة التي يُفترض أن تمتدّ من سنة 610هـ/1213م إلى غاية 726هـ/1326م، غير أنّ التّأريخ في "الذّخيرة" انتهى عند سنة 679هـ/1280م، وذلك إشكال أشرت إليه سابقا، أمردُّ ذلك إلى اكتفاء ابن

---

(1) **ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 11.**

(2) **ابن ابي زرع: الانيس، ص 13.**

أبي زرع بتلك المرحلة؟ أم إلى ضياع الجزء الباقي من سنة 679هـ/1280 إلى سنة 726هـ/1326م؟ والرّاجح هو ضياع الجزء ذاك، دلّت على ذلك عبارة "هذا ما وُجد من هذا الكتاب"، وهي تصريح أنّ جزءًا من ذلك التّأريخ ضائع، يعضد ذلك أيضا ما أورده ابن أبي زرع نفسه في مقدّمة "الذّخيرة" حين ساق محتوى كتابه، ووصل به إلى فترة أبي سعيد عثمان بن يعقوب أي سنة 726هـ/1326م.

ومهما يكن من أمر، فإنّ كتاب "الذّخيرة" قد غطّى تلك الفترة من تاريخ المرينيّين، يضاف إلى ذلك ما تعلّق بنسبهم وابتداء أمرهم، حيث أطراهم بمقدّمة أطول من تلك التي قدّم بها لنسبهم في كتاب "الأنيس"، وهي قرينة على أنّ "الذّخيرة" قبل "الأنيس"، إذ عادة لمؤلّفين الاختصار إذا تعلّق الأمر بمعلومات مكرّرة –كما في الأنيس–.

خصّص ابن أبي زرع كتابه لبني مرين وأيّامهم دون غيرهم، فقد تتبّع أخبار دولتهم، وما كان من أيّامهم من سنة 610هـ/1213م، مرورا بقيام دولتهم سنة 668هـ/1269م، إلى غاية أيّام يعقوب سنة 679هـ/1280م، فذكر بعضا من خصالهم وشيمهم، فقد اتّصفوا " بالأدب والدّين، وإكرام العلماء وتوقير الصّالحين"، إلى أن وصل إلى بيان نسبهم "العربي الصّريح"، الذي يتّصل ببر بن قيس بن عيلان بن مضر[1].

وعن سبب تحولهم إلى بلاد المغرب يورد قصة مفادها قبائل البربر كانت تعيش بأرض الشّام ومصر، وأنّ بر بن قيس تزوّج ابنة عمّه البهاء بنت دهمان بن عيلان، الأمر الذي جعل أمّه البربريّة المجدوليّة –زوجة قيس– تخاف عليه من عرب الجنوب، فهربت به نحو الشّام أين ستجد عضدا لها في أحواله، وأنجب هناك علوان –الذي مات ولم يعقّب– ومادغيس الذي لُقّب بالأبتر وهو أبو البتر من البربر[2]، تلك النّسبة العربيّة شهد بها حسان بن النعمان مع جمع من البربر سنة ثمانين للهجرة[3].

وأمّا عن لسانهم العربيّ الصحيح[4]، فقد أورد ابن أبي زرع أنّ نسل برّ قد خالطته لكنة "أعجميّة"، فأضحى كلامهم غير مفهوم، غير أنّ أفعالهم لازالت تدلّ على أصلهم العربيّ، وفي ذلك تقول تماضر بنت قيس ترثي أخاها بر[5] (الوافر):

وأزرت ببرّ لكنة "أعجميّة" وما كان برّ في الحجاز بأعجما

كما يورد ابن أبي زرع نسب الوطّاسيّين على أنّهم لمتونيّون من بني عبد المؤمن بن عليّ ويصلهم بوطّاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين[6].

يتعقّب ابن أبي زرع –كما من مقدّمة كتابه– حكّام الدّولة المرينيّة من زمن عبد الحقّ بن محيو جدُّهم الأوّل، مرورا بأولاده الذين تعاقبوا الحكم بعده، وهم أبو معروف محمد، وأخوه أبو يحي، ثم أخوه يعقوب تواليا، ويبقى الحكم بعد ذلك في الفرع اليعقوبيّ ذاك، إلى غاية الأمير أبي سعيد عثمان بن يعقوب.

---

(1) ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 09–12.

(2) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 12.

(3) نفسه ، ص 14.

(4) ابن ابي زرع: الانيس، ص 278– 282..

(5) ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 16.

(6) نفسه، ص 19–20..

وقد بسط ابن أبي زرع في "الذّخيرة" حكّام الدّولة من عبد الحقّ بن محيو، إلى غاية الأمير يعقوب عند سنة 679هـ/1280م[1]، ثمّ ينتهي التّأليف هناك، وبذلك يبقى التّساؤل -كما أشرت سالفا- عن مصير باقي الأبواب؟، ثمّ يسترسل في بسط حجّاب، وكتّاب، ووزراء، وقضاة كلّ أمير أرّخ له.

يقدّم ابن أبي زرع توصيفا دقيقا للأوضاع التي سادت دولة الموحدين بعد معركة حصن العقاب سنة 609هـ/ 1212م، والتي كانت نقطة انعطاف في تاريخهم، كان من نتائجها تفتّت دولتهم وانحدارها، حيث تولى أحداث السّنّ شؤون الدّولة، واحتجبوا عن الرّعيّة[2]، فساد الظّلم والشنآن، وآلت دولتهم إلى الضّعف والهوان.

في ظلّ تلك الظّروف، ظهر بنو مرين على مسرح الأحداث، ذلك أنّهم نزحوا إلى بلاد المغرب بعد خلافهم مع بني عبد الواد، بلاد المغرب التي امتدّت إليها آثار معركة العقاب، حيث عجز الموحّدين عن حماية من تبقّى من أهلها، فاستقرّوا بها سنة 610هـ/1213م، والتقوا بجيش الموحّدين في معركة المشعلة سنة 613هـ/1216م التي أعلنت سطوة بني مرين، وظهورهم أمرهم[3]، وكانت القاصمة التي أضيفت لنكسة حصن العقاب.

أشار ابن ابي زرع إلى نقطة مهمّة، متعلّقة بعلاقة بني مرين بسلطان الموحّدين حيث لا سلطان لهم عليهم[4]، وهو ما يعكس مستوى الضعف الذي وصل إليه الموحّدون، وقد استطاع ابن ابي زرع بسط العلاقات

السّياسيّة المرينيّة الموحّديّة خصوصا، والمغاربية عموما[5]، خلال تلك الفترة.

في "الذّخيرة" إلماع للنّظم الإدارية التي رسمت بُلط المرينيّين، من خلال إحصاء وزراء وحجّاب وكتاب وقضاة وعمّال كلّ أمير من أمراء الدّولة المرينيّة، إحصاء ينمّ عن تقاليد حكم وإدارة كانت تطبع الحياة السّياسيّة إذّاك.

وذخيرة ابن ابي زرع -أيضا- سجلّ يتجاوز التّأريخ للأحداث فحسب، بل إنّها توثيق لوفيات العقد الأوّل للمائة السابعة، ولملمة لعلماء وفقهاء المرحلة، كأبي ذرّ الجيّانيّ، وعلي بن محمد البلنسيّ، وابن خروف وغيرهم[6]، أولئك العلماء الذين قدموا من الأندلس، وأسهموا في إثراء الحياة الثّقافيّة المغربية، وإرساء أسس النّهضة الفكريّة في الدّولة المرينيّة، وتلك إشارة إلى العلاقات الثّقافيّة التي ربطت العدوتين الأندلسيّة والمغربيّة المرينيّة.

يشذّ ابن أبي زرع في "الذّخيرة" عن قاعدة التّأريخ المحليّ القطريّ، ويتوسّع إلى التّأريخ لأحداث أقطار البلاد الإسلاميّة، حيث يذكر استيلاء التّتار على بخارى من بلاد خراسان، وبلاد العراق، ودخول الإفرنج مصر سنة 616هـ/1219م[7].

---

(1) ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 07، 188.

(2) نفسه، ص 21،22.

(3) نفسه، ص 25- 28.

(4) نفسه ، ص22.

(5) نفسه ، ص 69، 82.

(6) نفسه، ص 38-49.

(7) نفسه ، ص 55-58.

هذا إضافة إلى التّأريخ للمجاعات والمسغبّات التي كانت ببلاد المغرب والأندلس والكوارث الطبيعيّة التي حلّت بالمنطقة كالزّلازل والفيضانات والخسف، وما كان من الهرج الذي استشرى بفعل الحروب والقتل[1].

نقطة أخرى في كتاب "الذّخيرة" متعلّقة بابن أبي زرع نفسه، وهي إتقانه للفلسفة وعلم الكلام، ومدى انتشار ذلك العلم في بلاد المغرب، دلّ على ذلك مناقشته لفكرة ابن الخطيب الرّازيّ (ت 605هـ/1208م) حول طبيعة النّفس في كتابه "المعالم"[2].

بقي أن أشير إلى تلك الرّسالة المطوّلة، التي بعث بها الفقيه أبو القاسم العزفي إلى قبائل المغرب سنة 663هـ/1265م، يستنفرهم فيها لنجدة الأندلس من سطوة الرّوم[3]، وهي رسالة لها بُعد دينيّ فحواه الحضّ على الجهاد، وبُعد آخر اجتماعيّ يُعبّر عن علاقة العلماء بالعامّة والخاصّة، ومكانتهم الاجتماعيّة والسّياسيّة، مكانة حملت الأمراء على استشارة الفقهاء، وحملت السّاكنة على تلبية النّداء.

بناء على الذي سبق، فالذّخيرة تأليف موقوف على الدّولة المرينيّة، وهو تاريخ يمزج بين المونوغرافيا والتّاريخ السّلالاتيّ، ولا يتعدّى القطريّة إلّا في النّادر، الذي يستحضر فيه ابن أبي زرع امتداده الحضاريّ العربي الإسلاميّ، من خلال التّأريخ لبعض الأحداث المشرقيّة.

جـ – التّمثّلات المنهجيّة في كتاب "الذّخيرة السّنيّة"

- **الغاية من تأليف الذّخيرة**

كتب ابن أبي زرع "الذّخيرة" تاريخا سلطانيّا لأبي سعيد عثمان بن يعقوب سلطان بني مرين، أراد من خلاله "خدمة جلالها ... بتأليف كتاب أورّخ فيه أيام الدّولة المرينيّة.." [4]، وواضح أنّ هدف التّأليف لم يكن بغرض المعرفة التّاريخيّة، بالقدر الذي يهدف فيه إلى التّقرّب من السّلطان، وتلك سمة العصور إذّاك –كما أسلفت–.

- **مصادر ذخيرة ابن أبي زرع**

✓ **القرآن الكريم**

اعتماد ابن ابي زرع على القرآن كان استشهادا أو اقتباسا، فمن ذلك:

– استحضاره لرابطة القرابة بين العرب الفاتحين وأهل المغرب، واستشهاده بقوله تعالى: "واتقوا الله الذي تسّاءلون به والارحام"[5]، لتأكيد عروبة البربر.

– استشهاده بقوله تعالى: "وتلك لأيّام نداولها بين النّاس"**، عند التّدليل على حتميّة زوال ملك الموحّدين، وأن الدّول تقوم وتزول[6].

---

[1] **ابن ابي زرع: المصدر السابق ، ص 53، 54، 77.**

[2] **نفسه، ص 48.**

[3] **نفسه، ص 113–124.**

[4] **ابن ابي زرع: الذخيرة ، ص 11.**

[5] **نفسه، ص 14. سورة النساء، الاية 01.**

[6] **ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 22. سورة آل عمران، الآية 140.**

– اقتباس آية "فأصبحوا ظهرين"[1]، وآية "ليقضي الله أمرا كان مفعولا "[2]، عند حديثه عن التّمكين للمرينيّن على الموحّدين.

– إسترجاعه عند وفاة الأمراء والعلماء، ومنهم الفقيه علي بن حسن الصّدينيّ من أهل فاس بقوله:" إنا لله وإنا إليه راجعون"[3].

✓ **الحديث الشّريف**

– إيراده لحديث "اتقوا الله وصلوا الارحام"، وحديث "اتقوا الله وصِلوا أرحامكم واحفظوا أنسابكم"[4].

✓ **التّجربة والمعاينة**

من مصادر ابن أبي زرع في "الذّخيرة" ما عاينه وشاهده، فقد صرّح في مقدّمة كتابه بذلك، فكان سرده لبعض أحداث وتواريخ بني مرين "معتمدا على ما شاهده وقيّده"[5] وتلك مزيّة نالها ابن أبي زرع من خدمة في بلاط أبي سعيد عثمان، وما كان من ملاحظاته وحضوره لبعض ما يتعلّق بشؤون الحكم، وما يدور في القصر.

ومن أمثلة ذلك الرسائل التي ضمّنها ذخيرته، ومنها تلك التي بعث بها الفقيه أبو القاسم العزفي إلى قبائل المغرب سنة 663هـ، يستنفرهم فيها لنجدة الأندلس من سطوة الرّوم[6]، وتلك التي بعث بها بن الأحمر إلى الأمير يعقوب بن عبد الحق يستنصره فيها على النصارى سنة 673هـ، ويبدو أنّ ابن أبي زرع قد اطّلع عليها شخصيّا، قرينة ذلك إيرادها مطوّلة وحرفيّا، يُستبعد حفظها[7].

✓ **التّآليف التّاريخيّة**

استقى ابن ابي زرع معلوماته من مصادر عديدة، وقد حصرت استعماله لتلك المصادر على ثلاث طرائق –كما في القرطاس– وهي:

* **يذكر الكتاب والكاتب:** ومثال ذلك:

– ما نقله عن نسبهم عن ابن حنون في "تاريخه لمدينة فاس"[8].

– ذكره لأرجوزة الملزوزي "نظم السلوك في ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك"[1]، وذلك عند الكلام عن سبب عجمتهم.

---

(1) **ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 23. سورة الصف، الآية 14.**

(2) **ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 25. الآية تكرّرت في القرآن أكثر من مرّة.**

(3) **ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 59. وردت أكثر من مرة في القرآن الكريم.**

(4) **نفسه، ص 14. الحديث رواه ابن ابي زرع بالمعنى، رواه جابر بن عبد الله مرة، وعائشة ام المؤمنين، ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد، الهيثمي نور الدين علي بن ابي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج08، تح: محمد عبد القادر عطا، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، ص190. والالباني في ضعيف الترغيب، محمد ناصر الدين الالباني: ضعيف الترغيب والترهيب، ج02، ط01، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، 2000م، ص 150.**

(5) **ابن ابي زرع: الذخيرة، ص 11.**

(6) **نفسه، ص 113–124.**

(7) **نفسه، ص 159–161.**

(8) **نفسه، ص 10.**

– إيراده لأبيات من شعر جمال الدين عثمان بن عمر بن ابي بكر المالكي (ابن الحاجب) من كتابه "المقصد الجليل في علم خليل"، وهذه الأبيات أنشدها العالم المتصوّف أبو مدين الجنياري[2].

*** يذكر الكاتب دون ذكر الكتاب:**

– نقله لنسب بني مرين عن الفقيه أبا علي المليانى من تقييد له بخطّ يده، دون أن يذكر عنوان التّقييد[3].

– قوله: "قال إبراهيم الرازي"، عند التّأصيل لنسب قبيلة زناتة[4].

– حكايته عن طريقة إسلام قبيلة زناتة، حيث استشهد بأبيات الطرماح بن ساعدة القيسي[5] لتوصيف تلك الواقعة، دون ذكر مصدر الأبيات.

*** يذكر الكتاب دون الكاتب**

– عند حديثه عن سيرة يعقوب بن عبد الحق، في قصيدة من نظم "صاحب الارجوزة"[6] –دون ذكره– وهو عبد العزيز الملزوزي.

ويبدو أنّ ابن أبي زرع ينهج ذاك المنهج، إقرارا منه للاختصار الذي أشار إليه في مقدّمة "الذّخيرة"، وهو اجتناب ذكر الكتاب أو الكاتب، إذا كان قد تطرّق له في أحد كتبه، أو في سياق كتابه الذي يؤلّفه.

✓ المشافهة والسّماع

أورد ابن أبي زرع في "الذخيرة" ما يدلّ على أنّه قد نقل في تاريخه وقائع استقاها من مصادرها مشافهة وسماعا، وقد أشار إلى ذلك في مقدّمة كتابه بقوله:"..وما رويته عمن أثق به من الاشياخ والثّقات من أهل العلم بالتاريخ وأيّام الناس والمعرفة بالانساب"[7]، وقد التزم بذلك من خلال إحالته على مصادره الشّفاهية بصيغ توحي بذلك منها:

– روايته مشافهة عن الفقيه أبو العباس ابن الجبر، في خبر دخول بني مرين بلاد المغرب، مشيرا إلى ذلك بقوله:" اخبرني من أثق به من أهل العلم بالتاريخ ... "[8].

– نقله لبعض من سيرة ابي محمد عبد الحق، على لسان الشيخ القاضي المبارك عبد الله بن الودون، الذي كان قد لقي يعقوب بن عبد الحقّ عند جوازه للجهاد بالأندلس، فتدارس مع القوم سيرة عبد الحقّ، ونقلها لابن أبي زرع كما سمعها من يعقوب بن عبد الحقّ[9].

---

(1) **نفسه، ص 16.**

(2) **ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص81.**

(3) **نفسه، ص 09.**

(4) **نفسه، ص 10.**

(5) **نفسه، ص 14.**

(6) **نفسه، ص 101.**

(7) **نفسه، ص 11.**

(8) **نفسه، ص 25،26.**

(9) **نفسه، ص 29.**

– توصيفه لواقعة هزيمة يغمراسن سنة 670هـ/1272م أمام يعقوب الذي غزا تلمسان[1] ناقلا ذلك عن بعض الأدباء الذين وصفوها، وقد سمع ابن أبي زرع بعض القوم يتداولون أخبار تلك الحرب فنقلها.

عموم القول أنّ ابن أبي زرع متعدّد المآخذ في "الذّخيرة"، غير أنّه ينهج منهج القرطاس في اعتمادها، فتراه يذكر المصدر تارة، ويغفل عنه تارة أخرى، وهي ملاحظة تنسحب على جلّ تواريخ المغرب الوسيط.

- **منهج ابن أبي زرع في الذّخيرة**

منهج ابن أبي زرع في "الذّخيرة" هو نفسه الذي اعتمده في "القرطاس"، وهو المنهج الحدثيّ الحوليّ، وذلك من خلال تقصّي أحوال الدّولة المرينيّة والوقائع التي سادت الفترة تلك، مع الالتزام بالتّرتيب الكرونولوجي لحكامها.

هذا، ويضمّن صاحبنا مواضيعه وحوليّاته وفيات أعلام الحول من فقهاء وشيوخ وفي محاولة منه لتغطية السنة محل التّأريخ، يعرّج على ذكر أبرز الأحداث التي ميّزت الفترة، فتجده يؤرّخ للحروب، وبناء المدن، ويتعدّى ذلك إلى أحوال السوق والعملة وغيرها، فظهر الكتاب في صورة جامعة لأخبار الدّولة في مختلف الميادين، كما أقرّه عنوان المؤلَّف.

يتتبّع ابن أبي زرع في "الذّخيرة" حكّام الدّولة المرينيّة مرتّبين ترتيبا على سنوات حكمهم لها، حيث قسّم تاريخيه إلى عشرة أبواب، وصل بها إلى الباب السادس، ملتزما بوضع عنوان للباب، وغالبا ما يكون العنوان اسم حاكم من حكّام الدّولة، وخلا تتبّع سيرته وأحوال بلاطه، يعمد إلى ترتيب الوقائع التي حدثت خلال فترة حكمه ترتيبا على السّنون، سنة سنة، حتى يوافي وفاة الحاكم المترجم له.

خلال التّرجمة للحاكم، ينزع ابن أبي زرع إلى وصف الأمير، وذكر وزراءه وقضاته، ويستقصي نسبه ومآثره، مستخدما ألفاظ التبجيل والتّجلّة لهم، والدعاء لهم عند استذكار حادثة تستوجب ذلك.

وفي خضمّ ذلك، يورد صاحبنا تراجم لأعلام المنطقة خلال الفترة التي يعالجها فيترجم للمشائخ والفقهاء، ويحصي أعمالهم وتواليفهم، ويعمد أحيانا إلى ذكر تفاصيل ومحتوى بعض تلك التّآليف، الأمر الذي ينِم على سعة اطّلاعه.

يبدي صاحب الذّخيرة رأيه في الدّول وحكّامها امتعاضا وقبولا، ومثال ذلك كلامه عن أفول مُلك الموحّدين قائلا "..وكانوا ..أولي حزم ودين"[2]، وعند امتعاضه من تصرفاتهم يقول عن خليفة الناصر أمير الموحّدين:"وكان صبيا ..اعتكف في قصره على اللّهو واللّعب..وأسلم الملك لأعمامه .. فأضاعوا الأمور ...وأبعدوا العلماء.. فبدا الفساد في ملكهم.." [3]، وكلّها عبارات توحي بمدى نكران المؤلِّف لحال الموحّدين.

ينهج ابن أبي زرع منهج الجمع بين الخبر التاريخي، والاستدلال الأدبي، ويظهر ذلك في مواطن ومناسبات عديدة تكاد تستغرق الكتاب كلّه، ويمكن الاستشهاد على ذلك بجمعه لخصال بني مرين، وسير أمراءها، وإردافها بأبيات شعرية

---

(1) **ابن ابي زرع: الذخيرة ، ص 148.**

(2) **نفسه، ص 22.**

(3) **نفسه، ص 22.**

-وقصائد أحيانا- توضّح نحلته لمدحهم[1]، وأثناء تأريخه لحال الأندلس، يورد مرثيّة أبي البقاء الرنديّ صالح بن شريف[2]: (الطّويل)

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان **** فلا يغترّ بطيب العيش إنسان

وعلى الشّاكلة تلك، يواصل بسط أخبار مدلّلا عليها بأبيات وأحيانا قصائد بأكملها، حسب سياق الخبر.

أخيرا، تبقى السّمة الغالبة على تآليف ابن أبي زرع عموما، تتكرّر مرّة أخرى في كتاب "الذّخيرة"، وهي تلك "اللازمة" التي يُذيّل بها الحقبة التّاريخيّة التي تناولها، والتي تعدّ محصّلة مختصرة جامعة للأخبار التي تبدو مهمّة، حيث يوردها مرتّبة كرونولوجيّا على السّنين، يختتم بها كلّ باب من الأبواب التي تسنّى له بسطها.

د- قيمة الكتاب

على الرّغم من أنّ "الذّخيرة" لم تعرف رواجا كالذي عرفه "القرطاس"، إلّا أنّها على قدر كبير من القيمة التّاريخيّة، ولا يُعدم المطالع لها فائدة ثقافيّة تأتّت من غزارة المادّة التي حواها الكتاب، بدءا من تغطيته لفترة الحكّام الأوائل للدّولة المرينيّة، مرورا بالوقائع التي شهدتها المنطقة، وصولا إلى التّراجم والوفيات، والتّأريخ للمدن التي أتى على ذكرها خلال ذلك.

في الكتاب أيضا سبق معرفيّ في ذكر فقهاء اللّغة في بلاد المغرب الإسلاميّ كأبي ذرّ مصعب بن مسعود الفاسيّ وفاة، أعلم أهلها بكتاب سبويه[3]، والفقيه محمد بن ابي زرع أوّل من خطب بجامع البيضاء[4]، ويحفل الكتاب أيضا بالتّأريخ للمارستانات التي أُعدّت للغرباء والمجانين، وتسخير أطباء لتفقد أحوالهم في عهد يعقوب، وهو إشارة للباحثين في تاريخ المصحّات العقليّة في بلاد المغرب الإسلاميّ[5].

قيمة الكتاب تأتّت من تخطّيه الجغرافيا المغربيّة، ذلك أنّ مؤلّفه ضمّنه أخبار المشرق، ومن ذلك سرده لوقائع دخول الإفرنج مصر الأيوبيّة، وما كان من تملّك شجرة الدّرّ بعد وفاة أيوب بن محمد الكامل من سنة 648هـ/1250م إلى سنة 649هـ1251م، وما جرى من جدل بعد ذلك بين العلماء حول ولاية المرأة، الأمر الذي حملها على التّنازل طواعية واختيار عز الدّين الصّالحيّ المملوك، الذي أعتقه ورثة أيّوب، وتزوّج شجرة الدّرّ[6]، الأمر الذي يدلّ على الرّابطة الحضاريّة التي تجلّت في كتابات المغاربة ومنهم ابن ابي زرع في الذّخيرة.

استغرق كتاب الذّخيرة الكوارث الطّبيعية التي حدثت إذّاك، ومن ذلك نار اليمن سنة 652هـ/1254م، والتي ظنّها النّاس علامة القيامة[7]، كما أشار إلى الواقع التّجاريّ في بلاد المغرب، من خلال بسطه لأحوال السّوق وأسعار

---

(1) نفسه، ص 10،09-92.

(2) نفسه، ص 127.

(3) ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 44-45.

(4) نفسه، ص 162.

(5) نفسه، ص 100.

(6) نفسه، ص 85-87.

(7) نفسه، ص 88.

المنتوجات، والمكاييل المستعملة فيها، وممّا أورده أنّ سعر القمح ستّة دراهم للصّحفة الواحدة (60 مدا) سنة 657هـ/1259م[1]، وهي السّنة التي ستعرف رخاء يمتّد إلى سنة 658هـ/1260م[2].

ولم يغفل الكتاب أيضا أحوال السياسة وشؤون الحكم والإدارة، ذلك أنّه سجلّ حافل بالمراسلات التي كانت بين ابن الأحمر والأمير يعقوب، وما حدث من استنجاد الأوّل بالأخير بهدف صدّ عدوان النّصارى على غرناطة سنة 672هـ/1274م، وهي رسالة طويلة نقلها ابن أبي زرع[3]، تفيد الباحثين في العلاقات السّياسيّة بين العدوتين، ويستجلي منها باحث العلاقات الحضاريّة ما كان من وشائج دينيّة، ووعي حضاريّ، حمل يعقوب على نصرة ابن الأحمر.

تلك إذن قيم معرفيّة يستقيها الباحثون من مختلف التّخصّصات من كتاب الذّخيرة، إضافة إلى إشارات أخرى فيه لم آت على ذكرها خشية الإطناب، ومن قراءة الذّخيرة تتشكّل لدى الدّارس صور واضحة المعالم عن ذلك الواقع، وتتّسع فيه دائرة الإدراك والثّقافة لمختلف ميادين الحياة المعاشة وقتذاك.

هـ- النقولات عنه

على الرغم من قيمة كتاب "الذخيرة"، وغناه معرفيّا عن "القرطاس"، إلّا أنّ المؤرّخين أغفلوا عنه، ولم أجد من نقل عنه، ويبدو أنّ شهرة "القرطاس" غطّت عنه، الأمر الذي حمل من جاء بعده على الاكتفاء به دون "الذخيرة".

ملاحظة أخيرة أشار إليها عبد الله كنّون، مفادها أنّ بالمكتبة الوطنية بمدريد مخطوطة من خمسة عشر ورقة عنوانها "ذكر الياقوتة الجليّة، في الذّرّيّة السّعيديّة المرينيّة المباركة العبد الحقّيّة (كذا) أطالها (كذا) الله تعالى وخلّدها، وأعلى كلمتها وأيّدها"، تحوي تراجم لحكّام الدولة المرينيّة كما في "الذخيرة"، وهو الأمر الذي حمل عبد الله كنون على الاعتقاد بأنّها من تأليف "متطفّل" على "الذخيرة" لم يذكر مصادره[4].

---

(1) **نفسه، ص 97.**

(2) **نفسه، ص 104.**

(3) **ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص 159-163.**

(4) **عبد الله كنون: المرجع السابق، ص 502- 504.**

الفصل الخامس: يحي بن خلدون (ت 780هـ/1378م)

أوّلا: ترجمة المؤلِّف

ثانيا" دراسة مؤلّفاته

الفصل الخامس: يحي بن خلدون (ت 780هـ/1378م)

أوّلا: ترجمة المؤلِّف

01- مولده ووفاته

أوردت مصادر التّراجم أنّه يحي بن محمد بن محمد بن محمد ..بن خالد -المعروف بخلدون-[1] الدّاخل إلى الأندلس من المشرق، وكنّته بأبي زكرياء[2]، وهي الكنية التي تناقلتها المراجع بعد ذلك[3]، وقد ترجم أخوه عبد الرحمن بن خلدون لنسبه، فوصلهم بحضر موت من عرب اليمن بالمشرق[4].

أصل بيت بني خلدون من اشبيليّة[5]، وهم أهل رياسة سلطانيّة ونباهة علميّة، ولم يزالوا كذالك إلى أن تفكّكت الأندلس طوائفا، وعادت لحكم الموحّدين، ثمّ خلفائهم الحفصيّون من بعدهم، ولما ثار عليهم بنو هود، وبنو الأحمر، هاجر بنو خلدون إلى سبتة، وقصد جدّهم الحسن بن محمد ديار الحفصيّين سنة647هـ، ودخل في خدمتهم، واستقر بنو خلدون هناك[6].

وفي بلاد الحفصيّين (تونس)، وُلد أبو زكرياء يحي بن خلدون سنة 733هـ/1133م، أو سنة 734هـ[7]، والرّاجح عندي، على اعتبار أنّه يصغر أخاه عبد الرحمن بحوالي السّنتين[8]، وبها نشأ وترعرع، غير أنّ وفاته كانت بتلمسان على يد أبي تاشفين بن أبي حمّو موسى الثاني سنة 780هـ[9].

02- نشأته

لم تسعفن كتب التّراجم بأخبار يحي بن خلدون كثيرا، ذلك أن غلبة شهرة أخيه عبد الرحمن عليه، حملت المصادر على الاهتمام بأخيه دونه، ويبدو أنّ نشأة يحي بن خلدون لم تكن تختلف عن نشأة أخيه عبد الرحمن أيّام الصّبا، مقارنة بفارق السّنّ بينهما.

---

(1) ابن حزم: جمهرة انساب العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، دط، دار المعارف، مصر، 1962، ص 460. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج7، ص 503. السخاوي شمس الدين: الضوء اللّامع لاهل القرن التاسع، ج04، دط، دار الجيل، لبنان، دت، ص 145.

(2) المقري: نفح الطيب، ج6، ص 396، 510، 515، 133/7. المقري شهاب الدين: ازهار الرياض في أخبار عياض، ج1، تح: مصطفى السقا وآخرون، دط، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، المغرب، د ت، ص 238.

(3) مخلوف: المرجع السابق، ج01، ص 328. الزركلي: المرجع السابق، ج08، ص 166. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج04، ص 115.

(4) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص 503.

(5) ابن حزم: المصدر السابق، ص 460.

(6) ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج07، ص 508. الزركلي: المرجع السابق، ج08، ص166. عمر فروخ: المرجع السابق، ج06، ص 540. عمر كحالة: المرجع السابق، ج4، ص 115. ابن خلدون يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج 01، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، مقدمة المحقق، ص 03.

(7) ابن حزم: المصدر السابق، ص 460.

(8) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج01، ص 07.

(9) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، اسماء المؤلفين، وآثار المصنفين، ج01، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1955، ص527. ابن خلدون أبو زكرياء يحي: مقدمة المحقق، ج01، ص 03. الزركلي: المرجع السابق، ج08، ص166. عمر كحالة: المرجع السابق، ج04، ص 115. عمر فروخ: المرجع السابق، ج06، ص540.

والذي استقيته من المصادر عن حياة يحي بن خلدون، أنّه قد نشأ في أسرة رياسة وعلم اشتغل أفرادها بالسّياسة والثّقافة[1]، وبتونس تلقّى العلم على يد علمائها، فحفظ القرآن كعادة أترابه، وتعلّم صناعة العربيّة، وتحصيل شيء من متون العلوم الدّينيّة، شأنه في ذلك شأن أخيه عبد الرحمن[2].

ومن نتاج التّغيّرات السّياسية الحاصلة سنة 748هـ/1347م، التي انتهت بدخول أبي الحسن المرينيّ بلاد الحفصيّن[3]، أن اتّصل يحي بن خلدون بعلماء المرينيّين الذين رافقوا أبا الحسن في حركته ومن أشهرهم الآبليّ، الذي أثّر في يحي وأخيه تأثيرا بليغا، وتلك كانت نقطة التّحوّل في حياة يحي الفكريّة، ذلك أنّه تمكّن من العلوم العقليّة والطبيعيّة والتّاريخ[4].

دامت إقامة المرينيّين في بلاد الحفصيّين اكثر من سنتين 748هـ-750هـ/1347م-1349م[5]، حتى اضطرّ أبو الحسن إلى مغادرة تونس، والعودة إلى فاس، بعد ورود أخبار مفاده استيلاء ابنه أبي عنان على فاس، على إثر أخبار وصلته بمهلك والده بطاعون 749هـ/1448م، فركب أبو الحسن البحر، فغرقت مراكبه وهلك خلق كثير سنة 750هـ/1349م[6]، إلّا أنّ أبا الحسن نجا، وكان قد ترك الحكم قبل لأبي عبد الله الحفصي في بجاية[7].

توجّه أبو الحسن صوب المغرب لاستعادة ملكه من ابنه أبي عنان، لكنّه انهزم في معركة وادي الرّبيع سنة 751هـ/1350م، فلجأ إلى الجنوب، وهلك بمرض ألمّ به سنة752هـ/1351م.

تولّى أبو عنان أمور المرينيّن بعد أبي الحسن، واستولى على تلمسان ملك بني عبد الواد سنة 753هـ/1352م، ثمّ زحف على بجاية، مصطحبا معه عبد الرحمن بن خلدون الذي استدعاه من بسكرة حين تملك تلمسان، ثمّ عاد معه إلى بجاية، وتملّكها، بعد أن أنزل عمّاله بها سنة 754هـ/1353، ثمّ قفل راجعا إلى المغرب ناقلا معه عبد الله الحفصيّ – أسيرا- سنة 755هـ/1354م[8].

هذا، وقد رجّح الدكتور حاجيات أن يكون يحي قد هاجر مع أخيه عبد الرحمن الذي استُدعي إلى بلاط أبي عنان في فاس سنة 755هـ/1354م[9]، ثمّ استعماله في وظيفة الكتابة والعلامة سنة 756هـ/1355م[10]، بقرينة أنّ من علماء فاس من درّس يحي ابن خلدون في تلك الفترة، ومنهم أبو عبد الله الشّريف.

وقد كانت المرحلة المرينيّة من حياة يحي مرحلة تكوين ثقافيّ، ذلك أنّه استفاد من العلاقات الفكريّة التي ربطت عدوة الأندلس بالمغرب، والتي كان من بعض مظاهرها استقرار لسان الدّين بن الخطيب فيها، إضافة إلى علاقات

---

(1) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص 508. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج01، ص 03-06.

(2) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص 510-512.

(3) نفسه، ج07، ص557.

(4) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج01، ص07.

(5) ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ط1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1979، ص 20.

(6) نفسه، ص33.

(7) ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج07، ص558.

(8) نفسه، ج07، ص558. ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون، ص 60.

(9) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 69.

(10) ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج7، ص558. ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون، ص 60.

الأخوين خلدون بعلماء فاس في البلاط المرينيّ، وما كان من احتكاكهم برجال السّياسة والإدارة، وقد كان من نتاج ذلك اشتغال يحي بن خلدون بديوان الإنشاء في بلاط أبي سالم المرينيّ بفاس سنة 761هـ/1360م[1].

انتقل يحي بن خلدون إلى بلاط أبي عبد الله الحفصيّ، وقد كان الأخير أسيرا عند أبي عنان المرينيّ، ذلك أنّ أبا سالم المريني قد أطلق سراحه من تلمسان سنة 760هـ/1359م[2]، وأوفد معه يحي لاستعادة ملكه من ابن عمّه أبا إسحق في بجاية[3]، وتمّ له ذلك سنة 764هـ/1363م، وكان قد استعمل يحي بن خلدون في وظيفة الحجابة[4]، وهي المهمّة التي سكت عنها يحي وأخوه في كتاباتهما لاعتبارات عدّة ذكرها المؤرّخون[5]؟ ممّا جعل اكتناه حيثيات وظيفته في الحجابة أمرا غاية في الصّعوبة.

بالنّسبة لأبي حمّو، فقد أعاد إحياء مجد الزيّانيّين سنة 760هـ/1359م[6]، بعد دخوله تلمسان عائدا إليها بعد غيابه في الصّحراء، وقد خلّد تيهه ذاك في قصيدة "جرت أدمعي"، سنة بعد ذلك، زحف أبو سالم على تلمسان وملّكها سنة 761هـ/1360م، لكنّ أبا حمّو استعاد ملكه سنة 1361/762مه واستمرّ إلى سنة 772هـ/1371م، وفي سنة 764هـ/1363م استنجد أبو عبد الله الحفصيّ به على عمّه أبا العبّاس[7]، وكان من نتاج ذلك مصاهرة أبي حمّو أبا عبد الله بابنة الأخير سنة 766هـ/1365م[8]، واستنجاده به مرّة أخرى، وقد لبّى أبو حمّو النّداء بعد مراوحة، وأعان صهره على عمّه.

لم تدم سطوة أبي عبد الله على بجاية أكثر من عامين، فقد سقطت دولته سنة 767هـ/1366م على يد عمّه أبا العباس أمير قسنطينة[9]، الذي تقبّض على يحي واعتقله بعنّابة[10]، لشكّه في ولائه، واستطاع يحي الفرار واللّحاق ببسكرة، حيث إمارة بني مزني التي آجرت عبد الرحمن أخاه من قبل، ومنها اتّصل به أبو حمّو، طالبا منه استجلاب ولاء قبائل رياح –وهو الذي حدث– فلمّا قدم يحي على أبي حمّو اصطنعه لكتابة إنشائه سنة 769هـ/1368م[11]، والتحق عبد الرحمن بوظيفة الحجابة في البلاط الزّيانيّ[12]، وهي الوظيفة التي مكّنت يحي من الاطّلاع على خبايا البلاط، وسجّل دقائقه، خصوصا ما تعلّق بأعياد المولد التي كان أبا حمّو يوليها العناية الأكبر من اهتمامه.

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج02، ص 72.

(2) نفسه، ج07، ص559،558.

(3) نفسه ، ج07، ص 563.

(4) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص119. عن معنى الحجابة انظر ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج7، ص 559.

(5) لمعرفة المزيد عن العوامل انظر: ابن خلدون يحي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج01، ص 22.

(6) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص 37.

(7) ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج02، ص 560. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص119.

(8) نفسه، ج01، ص 152.

(9) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص 560. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص 170.

(10) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج05، ص 561.

(11) أورد يحي ان أبا حمو طلب منه استئلاف رياح، بينما أورد ابن خلدون ذلك لنفسه، انظر: ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص 193–194. ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص562–563. المقري: نفح الطيب، ج06، ص389، 396، 515.

(12) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص 563.

انتقل يحي بعد ذلك إلى بلاط بني مرين سنة 772هـ/1371م، ويبدو أنّ تقلّبات السّياسة قد انسحبت على أحوال الولاء، ذلك أنّ السّلطان المرينيّ أبو فارس عبد العزيز استولى على تلمسان تلك السّنة، بينما هرب الأمير أبو حمو باتّجاه الصّحراء، ومعه يحي بن خلدون، والمحطّة هذه كانت نقطة انعطاف في مسيرة يحي، حيث غيّر ولاءه للمرينيّين بعد ".. خيالات سوداويّة اعترتني، ونزعات شيطانيّة تجاذبتني.." [1]، وهنا تكتّم يحي عن حيثيات القضيّة مكتفيا بالقول:"..لولا أن أفضح مستورا ... لأبَنتُ ما جرى وقلت كيف كان .." [2]؟ وواضح أنّ في النّص ما يوحي بأنّ يحي قد شعر بالنّدم على تصرفه ذاك.

ومهما يكن من أمر، فإنّ يحيى بن خلدون فارق البلاط الزّيانيّ إلى بلاط السّلطان المرينيّ كاتبا لأبي فارس وولده السعيد بالله من بعده[3]، وهي الوظيفة التي سكت عنها يحي -أيضا- فاستُشْكلت حيثياتها لدى الباحثين.

حملت سنة 774هـ/1373م وقائع جديدة، فقد مات أبو فارس، وخلفه ابنه السعيد[4]، الأمر الذي هزّ عرش المرينيّن بتلمسان، فأبدو الانحياز لأبي حمّو، الذي استطاع أن يعود لملكه بتلمسان تلك السنة[5]، بعد فراقه عنها سنتين كاملتين في الصحراء.

وأمّا يحي بن خلدون، فقد شهد قيام الفتنة بين السّعيد، وعمه أبي العباس بن أبي سالم، حيث استولى الأخير على مقاليد الحكم، الأمر الذي حمل يحي على مغادرة بني مرين إلى دار بني زيان في تلمسان حيث أبا حمّو هناك، وبرغم ذلك، فقد قبل أبو حمّو أوبته، وعفا عنه، وأعاده إلى منصب الخطّة -كما كان- سنة 776هـ/1375م[6].

حملت السّنون التي تلت فتنة داخل البيت الزّيانيّ، حيث قامت منافسة بين أبناء أبي حمو الثاني، أبا زيّان، والمنتصر، وعميرا، من جهة، وأبا تاشفين من جهة أخرى، ويبدو أنّ الأخير قد أغاضه ميل أبيه لأخوته دونه[7]، رغم ما قام به في سبيل التّقعيد للدّولة، فقد أقطع أبو حمّو ابنه أبا زيان حكم وهران، التي كان يريدها أبو تاشفين لنفسه، فطلب ذلك من أبيه، غير أن الأب لم يخضع لطلبه، وأمر كاتبه يحي بالمماطلة في كتابة عهد تولية أبي تاشفين على وهران[8]، الأمر الذي حمل أبا تاشفين على عزل والده، واعتقاله في قصبة وهران[9] سنة 780هـ/1378م.

ارتبطت وفاة يحي بن خلدون بتلك الحوادث ارتباطا وثيقا، ذلك أن أبا تاشفين قد حنق عليه لمماطلته كتابة عهد توليته على وهران -كما أسلفت- فظنّ أبو تاشفين أن يحي بن خلدون له يد في ذلك "فترصّد له ..بعد التّراويح"

---

(1) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص 230.

(2) ابن خلدون يحي: نفس المصدر، ج02، ص230.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن: مصدر سابق، 637/7. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دط، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1978، 64،62/2

(4) ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون، ص 233. ابن خلدون يحي: مصدر سابق، ج02، ص 255.

(5) ابن خلدون عبد الرحمن: مصدر سابق، ص 233. ابن خلدون يحي: مصدر سابق، ج02، ص 258.

(6) ابن خلدون يحي: مصدر سابق، ج02، ص286.. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج07، ص 191.

(7) ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف، ص 242. ابن خلدون يحي: مصدر سابق، ج02، ص286.

(8) ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج07، ص187.

(9) نفسه، ج07، ص192.

وقتله سنة 780هـ/1378م، وأورد عبد الرحمن أنّ لموسى بن يخلف يد في الوشاية بأخيه لدى أبي تاشفين، موهما إيّاه أنّ يحي موال لأبي زيان أخاه[1].

03- شيوخه:

ترجم يحي بن خلدون لثلة من علماء تلمسان في كتابه "البغية"، وقد أردف بعض من ترجم لهم -وقد كانوا ثلاثة- بقوله "شيخنا"، الأمر الذي يدلّ قطعا على أنّه تتلمذ على أيديهم، وهؤلاء الثلاثة أحيصتهم وهم:

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي: قال عنه يحي:".. شيخنا العالم الأعلى.. المعلم الأصغر من بيت نباهة..." [2].

— أبو عبد الله الشريف شيخنا الفقيه العالم الأعرف أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني أحد رجال الكمال علما ودينا..."[3].

- أبو عبد الله الشّريف: "شيخنا الفقيه العالم (الأعرف)..لا يعزب عن علمه فنّ عقليّ ولا نقليّ.."[4].

— أبو علي الزواوي: " شيخنا العلامة المفتي أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي ذو العلم والدين والحذق بالفتيا مع الخط الحسن والنظم الرائق والكتابة النبيلة"[5].

غير أنّ متابعة حياة يحي وأخيه عبد الرحمن، حملتني على الاعتقاد أنّ شيوخه أكثر من ثلاثة، بقرينة أنّ يحي لم يتطرّق إلى العلماء الذين رافقوا أبا الحسن في رحلته لتونس، أولئك الذين ذكرهم أخوه عبد الرّحمن، وأنّه تتلمذ على أيديهم، ولا أستبعد أن يكونوا شيوخ يحي أيضا، ففارق السّنّ بينه وبين عبد الرحمن عامين فقط، فيُحتمل أن يكونوا تلاميذ الاثنين، وذلك الذي أرجّحه، وأولئك العلماء سمّاهم عبد الرحمن في رحلته وهم:

أبو عبد الله محمد بن برّال[6]، وأبو عبد الله محمد بن بحر "..إمام العربية والادب بتونس.."[7]، أبو عبد الله الجيّانيّ، وأبو القاسم محمد القصير[8]، أبو عبد الله محمد السطّيّ شيخ الفتيا ..وإمام مذهب مالك"[9].

04- آثاره العلمية:

على الرّغم ممّا اكتسبه يحي بن خلدون من تكوين علمي وأدبيّ، وما تقلّده من وظائف في البلط، أهّلاه ليكون كاتبا في دول تلك لفترة، وصاحب براعة في الكتابة والتّأليف في سائر فنون الأدب والتّاريخ، لما له من قدرة على قرض الشّعر بأسلوب الرّزين الذّكيّ، وقد كان فاعلا في جلّ أحداث الفترة التي قضاها متنقلا بين دول المغرب الوسيط، ما

---

(1) ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ج07، ص 187. إسماعيل باشا البغدادي: المرجع السابق، ج02، ص 527.

(2) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 157.

(3) نفسه، ج01، ص 158.

(4) نفسه، ج01، ص 158.

(5) يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج01، ص 171.

(6) ابن خلدون عبد الرحمن: التعريف بابن خلدون، مقدمة المحقق، ص 17.

(7) نفسه، مقدمة المحقق، ص 19.

(8) نفسه، مقدمة المحقق، ص 20.

(9) نفسه، مقدمة المحقق، ص 20.

منحه تجربة سياسية هامّة، إلّا أن ما يُعجب له أنّه لم يكن له نتاج تاريخيّ عدا كتابه "بغية الرّواد"، وبعض القصائد الشّعريّة التي ضمّنها كتابه، والرّسائل التي كتبها أثناء أداء مهامّه، ومن المؤسف أن تلك الرسائل في حكم الضّائع[1]، ولولا لطف الله لضاع معها المؤلّف التّاريخيّ ذاك.

ويحقّ لي أن أتساءل عن قفر الجانب التّأليفيّ ليحي، فهل يعقل أن يكون لعبد الرّحمن من التّآليف ما تعجّ به المصادر، بينما لا نجد غير "البغية" لأخيه يحي؟ وعلى ما يبدو، فإنّ اشتغال يحي بن خلدون بديوان الإنشاء شغله عن التّأليف، وملازمته لأبي حمّو طيلة حياته، حيث لم يتفرّغ له كما فعل عبد الرحمن، مضافا إليه عمره فقد مات عن 46 سنة، وهي مدّة لا تكفي – حسب تقديري– لنتاج غزير.

ثانيا: دراسة تآليفه

أ– تحقيق في العنوان ونسبة الكتاب للمؤلِّف:

لم يشكّ أحد من المؤرّخين في نسبة الكتاب ليحي بن خلدون، فهو صاحب الكتاب قطعا، وما وقع من لغط كان في عنوانه، فقد ذكره بعضهم بتحاريف بسيطة لم تقدح فيه، فتجده "بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشامخة الأطواد"[2]، بينما اكتفى بعضهم بذكره على سبيل الاختصار لشهرته فأوردوه "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"[3].

تبقى الإشارة أنّ بعض نسخ المخطوط وجدت معنونة بـ"نجعة الرّوّاد"، أوردها محقق الكتاب الدكتور حاجيات، ولم يستبعد أن يكون يحي قد عنون كتابه ابتداء كذلك، ثمّ عمد إلى تغيير العنوان على الشّاكلة التي هو عليها ابتغاء الفصاحة والجمال[4].

هذا، وقد أزال يحي اللّبس عن العنوان حين صرّح به في مقدمته له فقال: "وأسميته بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد وما حازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد"[5].

بـ – محتوى الكتاب

قد يبدو للقارئ من العنوان أنّ الكتاب تأريخ للدّولة الزّيانيّة من خلال ملوكها، غير أنّ محتوى الكتاب أوسع أفقا، فما أرّخ له يحي يتجاوز الجغرافيا الزّيّانيّة التي لم تتجاوز في أقصى اتّساع لها حدود بجاية، ويستغرق أحداثا من تاريخ الحفصيّين والمرينيّين، الاستغراق ذاك فرضه تقلّب يحي في البلط المغاربيّة، فاستوفى الدّولة الزّيّانيّة إلى غاية سنة 776هـ/1374م، وهي السّنة التي عرفت الدّولة بعدها فتنة ذهب ضحيّتها يحي نفسه.

---

(1) ابن خلدون عبد الرحمن: ، مقدمة المحقق، ص 39.

(2) المقري: نفح الطيب، ج07، ص 133. إسماعيل باشا البغدادي: المصدر السابق، ج02، ص 527. عمر فروخ: المرجع السابق، ج02، ص 226.

(3) مخلوف: المرجع السابق، ج01، ص328. الزركلي: المرجع السابق، ج08، ص 166. سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج02، ص401– 404.

(4) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ج01، ص 43. عبد الحميد حاجيات: يحي بن خلدون وكتابه بغية الرواد، ضمن مجلة عصور الجديدة، وهران، الجزائر، العدد 3–4– عدد خاص، 2011،2012، ص 24.

(5) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص116.

نقطة أخرى على علاقة بالكتاب وهي تاريخ تأليفه، فمحقّقه الدكتور حاجيات استنتج -بعد تمحيص- أنّه أُلّف على مراحل، ابتداء من الحكم الأوّل لأبي حمّو لتمسان، مرورا بفترة حكم أبي فارس وابنه، انتهاء بحكم أبي حمّو ثانيّة، حيث أتمّ يحي تأليفه.

ويبدو أنّ ما تخلّل الفترة من أحداث، لا تسمح -بنظري- بتأليف الكتاب، فتقلّب يحي في البلط، وانشغاله بمدّ السّياسة وجزرها، ينافي التّفرّغ الذي تستوجبه الكتابة، وفي الكتاب أدلّة توحي أنّ التّأليف كان في المرحلة الثّانية من أوبة الحكم في تلمسان لأبي حمّو بعد سنة 776هـ/1374م، وأقواها أنّ يحي ذكر من أحداث سنة 775هـ/1373م ورود قصيدة من ابن الخطيب لأبي حمّو، وقد أورد يحي اسم ابن الخطيب بقوله "المرحوم"[1] ونعلم أن ابن الخطيب توفّي سنة 776هـ/1374م، ممّا يدلّ قطعا أنّ التّأليف كان بعد تلك السّنة.

قرينة أخرى، هي قصد يحي من التّأليف استرضاء أبي حمّو عن ردّته صوب البلاط المريني سنة 772هـ/1370م، وأوبته إلى البلاط الزّيّانيّ ثانية، وهو الذي عبّر عنه يحي بالقول:"راكبا فيه لرضاه الأخطار"[2].

وأخيرا، تلقيب يحي لأبي حمّو بالخليفة في كثير من الأحيان، ويبدو أنّ ذلك قد كان في فترة حكمه الثّانية، حيث أصبح في موقع القوّة، وكانت تأتيه سفارات المرينيّين والأندلس وغيرهم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ كتاب "البغية" -كما جاء في نهاية مقدّمة مؤلّفه- وحدة من ثلاثة أقسام:

القسم الأول منه تأصيل لبني عبد الواد، ورسم لجغرافيّة دولتهم، وتوصيف لعاصمتهم تلمسان، ناقلا ما ذكره الجغرافيون عن طبيعتها ومحاسنها، ويذكر فضل بلاد المغرب في الإسلام انطلاقا من التّدليل بالأحاديث الواردة في ذلك.

التّأصيل لقبيل بني عبد الواد "لا غنى عنه" للباحث في تاريخ دولتهم، وهي المقدّمة التي تلازم كلّ تأريخ محلّيّ، ولذلك كان لزاما على يحي النّزوع نحو تتبع سلسلة نسب بني زيان، حسب مقتضيات محتوى الكتاب.

غير أنّ يحي ابتدأ كتابه بالتأريخ لتلمسان موطن بني زيّان، على غير عادة التّواريخ المحلّيّة، حيث شرح معنى "تلمسان"، وصنّفها ضمن الإقليم الرّابع، وهو أعدل الأقاليم ويبدو أنّ يحي ينزع نحو التماس الرّفعة لبني زيّان ابتداء من موطنهم، وقرينة ذلك الأحاديث التي ساقها، والتي يحاول فيها بيان موقعيّة أهل المغرب والمنطقة عموما في التّاريخ الإسلاميّ[3]، ومبرّره عن ابتداءه بذكر الموطن، أنّ كل حادث يستوجب المكان والزّمان، لذا رأى أن يبتدئ بذكر موطنهم[4].

يرسم يحي مدينة تلمسان، مستقصيا ما ذكره الجغرافيّون عن أوصافها، وما تغنّى به الشّعراء من جمالها، ثمّ ينتقل إلى الترجمة لعلمائها وصلحائها بإسهاب واستطراد، مستغرقا مولدهم، ومنشأهم، حتى غلبت على المتن التّراجم، وبذلك جاوز عدد من ترجم له المئة[5].

---

[1] ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 268.

[2] نفسه، ج01، ص115.

[3] نفسه، ج01، ص 121 وما بعدها.

[4] نفسه، ج01، ص 119.

[5] نفسه، ج01، ص135-171.

بعد الفراغ من الجانب الثّقافيّ من تلمسان، يعمد يحي إلى الحديث عن الجانب السّياسيّ للمغرب الأوسط، وهو المصطلح الذي شاع استعماله إذّاك، وكان البكري (ت 487هـ/1094م) مبتدعه[1]، وقد استعاض به يحي عن تلمسان، للإلماح إلى موطن الزيّانيّين في أقصى اتّساعهم، مبتدءا بتاريخها من لدن الفتح الإسلامي إلى عهد الموحدين، مرورا بعهد الولّاة ثم عهد الدّويلات[2].

أنهى يحي القسم الأوّل من "البغية" بالحديث عن قبيلة بني عبد الواد، وهو نشوز عمّا جرى التّأليف لدى مؤرّخي الفترة، حيث التّعريف والتّأصيل للقبيل الحاكم نسبا، وتلك عادة كتّاب البلاط، ويبدو أنّ يحي أراد كسر التّقليد الذي سار عليه سابقوه وأترابه، وله تعليله الذي ذكرنا سالفا.

وقد حاول يحي خلاله بيان فضل ودور بني عبد الواد، مستعرضا آراء النّسّابة والمؤرّخين حول أصلهم، واصلا إيّاهم بالنّسب الشّريف إلى الأدارسة، إلى عليّ بن أبي طالب τ[3]، وقصّة الشّرف تلك كانت سمة العصر، حيث التماس شرعيّة الحكم في الانتساب إلى آل البيت، وقد اعتمد يحي تسلسل النّسب، كما استدعى حججا عقليّة من الأثر لإثبات النّسب العلويّ لبني عبد الواد، وإبطال دعوى من نفى نسبتهم تلك.

أخيرا استقصى يحي خطّة توطّن بني عبد الواد كور تلمسان، مبتدءا ببسط تجوالهم في الصّحراء، وما تخلّل ذلك من سجالات بينهم وبين الموحّدين، ثم بيّن مسير الحكم إليهم ولّاة عن الموحّدين، وهم ما عبّر عنه بـ "من ولّي غير مستبدٍّ منهم"، أي من بني عبد الواد[4].

أما القسم الثاني، فقد استرسل فيه يحي –إتماما لمبتدأ الدولة الزّيّانيّة– بذكر السّلاطين من بني عبد الواد، وهي مرحلة استقلال الدّولة الزّيّانيّة عن التّبعيّة التي كانوا عليها قبل للموحّدين.

افتتح مؤرّخنا المرحلة الجديدة من تاريخ الزّيّانيّين بذكر دولة الأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان ودول عثمان ابنه، مستقصيا ترجمته وبيعته، ثمّ رجال دولته وبلاطه واسترسل يبسط من جاء بعده تواليا، إلى غاية دولة أبي تاشفين بن أبي حمو الأوّل بن أبي سعيد (ت737هـ/1339م)، أين سقطت الدّولة على يد أبي الحسن المرينيّ إلى غاية 749هـ/1348م، حيث استعادها الأخوين أبو سعيد الثاني، وأبي ثابت، الأخيرين دامت دولتهما إلى سنة 753هـ/1352م حيث أسقطها أبو عنان بن أبي الحسن المرينيّ، وأنهى بذلك الجزء الأول من "البغية"[5].

تبقى ملاحظة جديرة بالإلماح، وهي تجاهل يحي لفترة إلحاق الدّولة بالجغرافيا المرينيّة، مرحلة شهدت انتعاشا استغرق ميادين عدّة، ومردّ ذلك –حسب الدكتور حاجيات– إلى أن يحي استهدف تمجيد التّاريخ الزّيّانيّ من جهة[6]، ومن جهة أخرى، تجنّب استدعاء التّاريخ الذي ندم عليه يحي قبل.

---

[1] حاج عبد القادر يخلف: مصطلح المغرب الأوسط في المصادر الإسلامية الوسيطة، ضمن مجلة عصور الجديدة، ج07، وهران، الجزائر، العدد 26، 2016–2017، ص 147.

[2] ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 201–257.

[3] نفسه، ج01، ص 212–213، 258، ج02، ص15 .

[4] نفسه، ج01، ص 220.

[5] نفسه، ج01، ص251–266.

[6] عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 26.

ويتّضح أخيرا أنّ ابن خلدون سيخصّص الجزء الثّاني من الكتاب كلّه عن السلطان أبي حمّو الثاني، مُحيي الدّولة ومجدّدها، وهو الجزء الذي بسط في سجاياه وسيره الحميدة، ومصير الملك إليه، انتهاء بأواخر سنة 776هـ/1374م، وأوائل سنة 777هـ/1375م في بعض النّسخ.

تتبّع يحي حياة أبي حمّو موسى الثّاني بدءا من حياة أبيه وأسلافه، قبل الإمارة وبعدها، ثمّ بسط حياة أبي حمّو قبل أن يأتمر، ومن ثمّ نزع إلى تفصيل حركته صوب الأمارة، ببيان فضله في إعادة إحياء مجد الدّولة الزّيّانيّة ثانية سنة 760هـ/1359م[1].

وهكذا، يتفرّغ يحي في الباب الثالث والأخير من الجزء الثّاني إلى الحديث عن دولة أبي حمّو، وما كان من أيّامه، وقد بسط ذلك بإسهاب ينهد من خلاله إلى بيان موقعيّة أبي حمو في التّاريخ الزّيّانيّ، فجاء هذا الباب أطول باب، انتهى به إلى سنة 776هـ/1374م، وهي السّنوات التي عرفت بزوغ نجم أبي تاشفين بن أبي حمو الذي سيتقلّد حكم الدّولة وينهي حياة يحي بن خلدون سنة 780هـ/1378م.

وقد ذيّل المحّق الكتاب بملحقين من نسخ أخرى توصل التّأريخ إلى سنة 777هـ/1375م[2]، الملحق الأخير منها يسرد تاريخا من مشرقيّا، ينهد من خلاله يحي إلى المقارنة بين ما كابده أبو حمّو، وبين ما حدث لكسرى أنو شروان الذي تطلّع لحكم البلاد الهنديّة، فكان له ذلك[3].

جـ – التّمثّلات المنهجيّة في كتاب "بغية الروّاد"

أبان يحي في مقدّمة كتابه عن نظرته لمفهوم الدّولة، التي كان متناسقا فيها مع أخيه عبد الرحمن، حيث جعل لها أعمارا كأعمار الانسان، وأوعز إلى أنّ المرتجى من خبر التّاريخ العضة والذّكرى، ويبدو أنّ تمثّل المؤلِّف لنظريته تلك تقتضي الاعتداد بالوصف والتحليل، والتّأريخ، وتلك مناهج يستدعيها البحث والاستقصاء.

زيادة على ذلك استناد المؤرّخ على المآخذ التي تمنع عنه الزّلل والغلط، وحتّى يتسنّى له إعادة بعث الحادثة التّاريخيّة، بناء على الشّواهد التي يستحضرها المؤرّخ، وفي الأخير بسط ما تمّ الخلوص إليه، اعتمادا على المناهج المعتمدة كما أسلفت، ناهدا إلى غاية من تأليفه قد تكون علميّة، وقد تكون غير ذلك.

- **الغاية من تأليف البغية**

إنّ ما سطّر مؤرّخنا في بغيته، كان استجابة عمليّة لتلك النّظرة للتّاريخ، عدا أنّه تجاوز الإخبار والاعتبار، إلى لزوم إجابة الائتمار، فلم تك قصديّة يحي ابن خلدون في عمله "البغية" قصديّة تستهدف المعرفة التّاريخيّة، بل كانت استمرارا لما دأب عليه مؤرّخو الفترة من الاهتمام بالتّأريخ السّلطانيّ، الذي تغيب عنه –في أحايين كثيرة– الموضوعيّة والنّزاهة وتحضر خلاله أدلجة التّاريخ.

---

[1] **ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص30.**

[2] **نفسه، ج02، ص308.**

[3] **نفسه، ج02، ص 311–327.**

وهكذا، كتب يحي تاريخه نزولا عن طلب أبي حمو موسى –بعد تردّد– وبعد أن "..رأيت أن امتثال أمره العزيز علي فرض، وأن طاعته من طاعة الله على بعض.." وبذلك "..انتدبت لإملاء هذا الكتاب اركبا فيه لرضاه الأخطار.."[1]، فأضحى الكتاب تمجيد للسّلطان، ويعيد للأذهان مسألة مؤرّخي البلط التي وسمت الفترة.

- **مصادر البغية:**

أرّخ يحي بن خلدون لدولة الزّيّانيّين خصوصا، ولبلاد المغرب الأوسط موطنهم الأوسع، وتجاوز ذلك إلى استدراك بلاد المغرب الإسلاميّ، من خلال بيان الدّول التي تعاقبت حكمه من لدن الفتح إلى غاية الزّيّانيّين، وقد غطّى خلال ذلك فترة استوفت قرونا طوالا، ركّز فيها اهتمامه على فترة بني زيّان، وتلك فترة تحتاج لمآخذ متعدّدة.

وقد عوّل يحي في تاريخه على فلي الأوراق، التي حوت تاريخ الشّام والعراق، فكان معتمده مطالعاته، وما سمعه من المعمّرين الذين خبروا التّاريخ، وما شاهده خلال خدمته للدّولة من محفوظ ذاكرته[2].

وخلال ذلك كلّه، تراه يستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة، وتراه يستقصى جملة أخباره عن تاريخ المغرب –أيضا– من كتب التّاريخ التي سيوردها في كتابه، إضافة إلى الحفّاظ، والرّوّاة الثّقات الذين تلقّى عنهم مشافهة أو سماعا.

- **القرآن الكريم:**

الملاحظة نفسها تتكرّر عند الاعتماد على القرآن الكريم حال التّأريخ، ذلك أنّ المؤرّخين يعمدون إليه حال الاعتبار والتّذكير، ومنه الإلماع إلى أنّ سنن الله جارية على خلقه، وهي ملاحظة تنسحب على جلّ من اعتمد القرآن عند التّأريخ، وفي أحايين قليلة يعرض الآيات القرآنيّة عن استرساله في بسط الوقائع عرضا، وهذه جملة ممّا وقفت عليه للتّدليل لا الحصر.

– حكايته على لسان أحد الأعراب وقد قابل الحجاج، وبعد حوار، استدلّ الأعرابيّ بقوله تعالى: "رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ"[3] .

– الإلماح إلى فضل الله تعالى في إظهار أبي حمّو على عدوّه سنة 760هـ/1359م اقتباسا من قوله تعالى: "الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" [4] .

– عند بسطه لهزيمة أبي الحسن عند حملته على تونس سنة 749هـ/1348م، واقتباسه الآية "وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" [5]، للتّنويه بأنّ قدر الله جار على العباد.

– ذكر يحي أنّ المنجّمين وأصحب علم الحدثان تبصّروا في أبي حمّو ملك المغرب، فكان يقول عند سماع ذلك: "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"[6].

---

[1] ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 115.

[2] نفسه، ج02، ص 115.

[3] سورة المؤمنون الآية 29. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 208.

[4] سورة الأعراف، الآية 128. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 219. ج02، ص38.

[5] سورة الرعد، الآية 41. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 252.

[6] سورة فصلت، الآية 35. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص19 .

– اقتباسا لوصف واقعة بين ابي حمو وأعداءه، يوم رحلته إلى المشرق سنة 759هـ/1358م، لإخضاع أهله، قوله تعالى:"إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[1].

– اقتباسه تشفّيا في أولاد عريف، الذين غرّبوا نحو بلاد مرين استعانة بهم على ردّ سطوة أبي حمّو على تلمسان سنة 760هـ/1359م، قوله تعالى:"يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ"[2].

- **الحديث الشّريف**

ما كان من اعتماد يحي على القرآن الكريم، سينسحب على الحديث الشّريف أيضا، ذلك أنّ اعتماده عليه كان في إطار التّدليل على أفضليّة المغرب وأهله على سائر الأقاليم، وما كان من نبوءات للرسول صلى الله عليه وسلم عن موقعيّة ذاك الإقليم وساكنته في التّاريخ الإسلاميّ، فاستدلال يحي كان في ذاك السّياق، عدا ما كان استثناء لبيان أحقّيّة أبا حمّو وآله بالملك دون غيره، وكما ترى، فاستدلالاته بالحديث كانت ضمن إطار إثبات الشّرف، وسوق الشّرعية لقبيل بني عبد الواد.

– استشهد بحديث "لا تزال طائفة من أمّتي المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة.."[3]، عند الكلام عن فضائل بلاد المغرب وأهلها.

– ذكره لمعاناة أبي حمو الثاني، وما كان من الابتلاءات التي لاقاها، وقد تمثّل فيه حديث: عن مصعب بن سعيد عن أبيه قال: "قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل...." [4].

– عن سوق الخلافة للأمير أبي حمّو موسى الثّاني ووجوب الخلافة الهاشميّة وكونه يعتقد هاشميّة بني زيّان، أورد قوله صلى الله عليه وسلم:" الخلافة في قريش والأئمة من قريش.." [5].

---

[1] سورة هود، الآية 81. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص24.

[2] سورة التوبة، الآية 32. ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص47 .

[3] ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 121 ، الامام الحافظ أبو الحسن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، مج01، تح: ابو قتيبة نظر محمد الفاريابي، ط1، دار طيبة لنشر والتوزيع، السعودية، 2006، رقم الحديث (1925) ص 926. البزار أبو بكر احمد بن عمرو: البحر الزخار المعروف بمسند البزار، ج04، تح: محفوظ الرحمن زين الله، ط1، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، 1993، رقم الحديث (1222) ص 57. الامام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي: مسند أبي يعلى الموصلي، ج02، تح: حسين سليم أسد، ط2، دار المأمون للتراث، سوريا، 1990، رقم الحديث (783)، ص118. الامام بن الاعرابي أبي سعيد احمد ابن بشر: كتاب المعجم، ج01، تح: عبد المحسن بن إبراهيم بن احمد، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1997، رقم الحديث (298) ص174. أبو العرب: طبقات علماء افريقية، ص 10.

[4] ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص04. الالباني محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط3، المكتب الإسلامي، لبنان، 1988، رقم الحديث (992–993) ص 230–231. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج17، تح: شعيب الارناؤوط، عادل مرشد، ط1، دار الرسالة العالمية، سوريا، 2013، "باب اشد الناس بلاء.."، ص373. الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن: كتاب المسند الجامع، تح: نبيل بن هاشم الغمري، ط1، دار البشائر، لبنان، 2013، ص 2783. الامام احمد بن حنبل: المسند، تح: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1494،2008. الترمذي محمد بن عيسى: سنن الترمذي، وهو الجامع الكبير، مج05، تح: مركز البحوث وتقنية المعلومات، ط1، دار التاصيل، مصر، 2014، ص 15.

[5] ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص09–10.

- **التّجربة والمعاينة**

كتاب "البغية"، نتاج ممارسة لنظام من نظم الإدارة في الدّولة الزّيّانيّة وهي خطّة الإنشاء، والحجابة، وخلاصة تجربة شخصيّة، مبناها الحضور الفعليّ والصناعة، فأغلب ما تمّ تسطيره فيه من أحاث ووقائع، كان يحي صانعا لها، وبذلك غدت التّجربة والمعاينة من مصادر الكتاب، وهي أوثق المصادر لصناعتها للحدث التّاريخيّ، وأوثقها ما لم تخالطها ذاتيّة تنغّص موضوعيتها.

وفي الكتاب ما يوحي بأنّ يحي فاعلا في تاريخ الفترة من بلاد المغرب، وما كان من تاريخ بني زيّان وبني مرين وبني حفص، لمدّة فاقت العقدين من الزّمن، فكان بذلك مؤرّخا للأحداث، واصفا لها وصف الفاعل تارة، ووصف الحاضر تارة أخرى، وهي طرائق شكّلت مصادرا للكتاب، وبخاصّة جزءه الثّاني، الذي أبان فيه عن ما خبره من ممارسة لشؤون الإدارة والحرب.

ومن جملة ما أرّخ له، التحاقه بموكب الأمير أبي عبد الله الحفصيّ، لما أطلق أبو سالم المرينيّ سراحه وصرفه لاستعادة ملكه من ابن عمه أبا إسحاق سنة 764هـ، فكان يحي ممّن حاصر المدينة مع الأمير المذكور، فما كان من أبي عبد الله الحفصيّ إلّا طلب الغوث من أبي حمّو يلتمس كبح طموح عمّه أبي إسحق، وهي الرّحلة التي سطّر فصولها، واصفا ما كان من استقبال أبي حمّو للوفد، وإعجاب يحي بخصاله[1] .

أرّخ يحي –أيضا– لحياته في موطنه تونس، ذاكرا فصولا من معاناته وتقلّبه في أنحاء البلاد، وممّا ذكره قامته في بلاد الزّاب، لما هرب من سجن أبي العباس الموحّد (الحفصيّ) وهناك اتّصل به أبو حمّو الثّاني، طالبا منه استجداء قبائل رياح، للإجهاز على بني مرين، واستعادة ملكه سنة 769هـ/1368م، وهي السّنة التي شهدت دخول يحي بلاط بني زيّان كاتبا، بعد أن نجح يحي في مهمّته، ونجح أبو حمّو في ضمّ بجاية لملكه أيضا.[2].

قيّد يحي ما كان في بلاط بني زيّان، وعلى الرّغم من فقدان المراسلات التي كان يحي يكتبها بنفسه، إلّا أنّه قدّم وصفا للقصر، فوصف الساعة (المنجانة غريبة الشكل) التي كانت بإزاء أبي حمّو، وقد نظم الأبيات التي كانت تشدوا بها الجواري عند كل ساعة، ووثّق تلك الأبيات في كتابه[3] .

وصف يحي طريقة العسس، وذلك أثناء حرب بني زيان وبني مرين فقال: "... شهدت هذه الليلة بمعسكر مرين – وأنا به من كتّاب ديوان الإنشاء – روحه العسس فأشهد أنه لم يبت فيه أحد إلا ولجام فرسه بيده يبغي الفرار بنفسه، وملك المغرب بفسطاطه الجمهوري...." [4].

تبقى إشارة مهمّة ضمن هذا السّياق، تتعلّق بوظيفة يحي في البلاط المرينيّ وهي قوله: "وقفت على كتب كثيرة من السّلطان أبي الحسن لحواضر بلاد المغرب يعتذر لهم فيها عن الوقيعة بانخزاع عبد الواد عنه ساعة اللقاء ومظاهرتهم العرب عليه[5]، غير أنّ جلّ ذلك في حكم الضّائع.

---

[1] **ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص 119–128.**

[2] **نفسه، ج02، ص193، 194**

[3] **نفسه، ج01، ص209–211.**

[4] **نفسه، ج02، ص72.**

[5] **نفسه، ج01، ص251.**

تلكم إذن، بعض الدّلائل التي أوردتها انتقاء، على سبيل التّدليل على فاعليّة يحي وحضوره في أغلب تاريخه، وصناعته لجلّ أحداثه، ولولا خشية الإطالة لبسطت المزيد حسبي في ذلك أنّ الكتاب جلّه تأريخ فاعل في أحداثه.

- **التّآليف التّاريخيّة**

ملاحظة أولى هاهنا، على علاقة بمصادر يحي، وهي أنّ توظيفه لها كان في الجزء الأوّل من بغيته، وأنّ الجزء الثّاني كان ممّا وقف عليه يحي وعاينه، فلا غرابة أن يكون من تأليفه، كونه فاعلا فيه.

ومجموع ما أورده يحي من مصادر ينيف عن العشرين مؤلَّفا، غير أنّ ما اعتمد عليه لا يتجاوز الخمس عشرة كتابا، وتلك قرينة على أنّ توظيف يحي لمصادره، كان وفق مقتضيات التّأريخ فيه، في حين أنّ باقي المصادر ذكرها عرضا عند التّرجمة لشخصيّة من تلمسان، أو سماعه ممّن قرأ المصدر، فيحيل على ذلك بالقول:"حدّثني فلان، نقلا عن فلان من كتابه "كذا"، وإنّي ذاكر –فيما يأتي– طريقة يحي في اعتماد مصادره، واقفا على أمثلة للتّدليل لا الإحصاء، وهي طرائق ثلاث:

*** يذكر الكتاب والكاتب:**

ومثال ذلك، ما أورده من أحاديث يدلّل بها على أفضليّة إقليم المغرب، وفضل أهله تاريخيّا، وعلى حدوده الجغرافيّة، مستندا في ذلك على نقول من معجم عبيد الله الهرويّ (المعجم في مشتبه أسامي المحدثين)، والدار قطني في فوائده[1] .

وعند الحديث عن مدينة تلمسان، وما كان من وصفها، وبيان أهمّيته التّاريخيّة والجغرافيّة، من خلال بسط مأثور الأقوال فيها، ومعتمده ما ذكره ابن عبد البر في استيعابه وأبو عبيد في مسالكه[2] .

وقد اصطفى يحي بعض نصوص من الشّعر في التّصوّف، عند ترجمته لأبي عبد الله بن الحجّام، منوّها بميوله الصّوفيّة، ناقلا تلك الأبيات من كتابه "حجّة الحافظين ومحجّة الواعظين" منه[3] واعتمد يحي –أيضا– على نقولات من تاريخ ابن الفيّاض، حال التّأريخ لقبيل بني عبد الواد ونسبهم، محيلا عليه بقوله:"..هذا الكلام منقولا –فيما أعلم– عن تاريخ ابن الفيّاض"[4].

أخيرا، أذكر ترجيحا من يحي لشرف النّسب الزّيّانيّ، مبرزا ما حكاه الباجيّ في "منتقاه" (المنتقى في شرح الموطّأ)، في إثبات النّسب دون معرفة الأصول، أي أنّ اعتماد الشّهرة وشهادة السّماع المتواتر، يُستعاض به عن مشجّرات النّسب[5] .

---

[1] **ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص121.**

[2] **نفسه، ج01، ص129.**

[3] **نفسه، ج01، ص 137–138.**

[4] **نفسه، ج01، ص 207.**

[5] **نفسه، ج01، ص 212–213..**

*** يذكر الكاتب دون ذكر الكتاب:**

ومثال ذلك ما استدلّ به عن نسب البربر، حيث أورد جملة من أقوال النّسّابة في ذلك، فذكر منهم السّهيليّ، والمسعوديّ، والطّبريّ، والبكريّ، وابن قتيبة[1]، ولم يتطرّق إلى مؤلّفاتهم التي اعتمدها وهي: "الرّوض الأنفّ في شرح السّيرة النّبويّة"، و"مروج الذهب"، و"تاريخ الطبري"، و"المسالك والممالك"، و"عيون الأخبار" تواليا.

ومثاله –أيضا– بسطه لأقوال أبي عبيد الله في بسط إقليم بني عبد الواد، وربّما كان يقصد عبيد الله الهروّي صاحب "المعجم".

*** يذكر الكتاب دون الكاتب:**

قال يحي حال بيان حدود تجوال قبيل الزّيّانيّين: "قال صاحب الأحكام في حدّ المغرب الأقصى: هو إفريقية وبلاد تاهرت وما والاها إلى طنجة إلى سوس الأقصى"[2] ويبدو أنّ هذا عنوان مختصر، أو أنّه عنوان استعاض به عن عنوان آخر للكتاب، الأمر الذي جعلني لم أقف تحديدا على عنوان الكتاب الذي أورده.

وعند ذكر تلمسان، وصفها بأنّها قاعدة المغرب الأوسط، وأنّها في الإقليم الرّابع، وليست كذالك فهي في الإقليم السّادس، ناقلا ذلك عن صاحب "جغرافيا"[3]، وهو مؤلّف للزّهريّ محمد بن أبي بكر (ت 532هـ/1137م)، نسخه عن الفزّازيّ عن أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرّشيد[4].

- **المشافهة والسماع**

من مصادر يحي، ما تلقّفه عن أشياخه مشافهة، فعبّر عنها بألفاظ على شاكلة "قال لي، حدّثني.."، وهي ممّا يوحي بأخذ المعلومة من مصدرها الحقيقي، ومن مصادره أيضا ما سمعه متداولا بين العامّة والخاصّة، فعبّر عن ذلك بقوله "قيل، يقال، ممّا يحكى.." وهو ما عبّرت عنه ابتداء بالمشافهة؛ وأقصد التّلقّي المباشر، والسّماع؛ وأقصد ما هو متداول بين السّاكنة.

نقل يحي عن شيخه أبو الحسن الميورقيّ – وهو من أعيان البلد– أخبارا عن مدينة تلمسان مشافهة، وهي عبارة عن أوصاف لها، تلقّاها أبو الحسن عن فقيه من القاهرة استقاها الأخير من ديوان تاريخيّ كان هناك، وممّا استقاه منه أيضا أنّ نبيّ الله سليمان بن داوود υأقام بها شهرا[5].

وعند ترجمته للشّيخ أبي محمد المجّاصيّ الشّهير بالبكّاء، نقل كرامة له حدّثه بها الثّقات عن رجل دخل عنده فحدّثته نفسه عن درن لباس الشّيخ، فما كان من الشّيخ إلّا أن أخبره بما تكنّ نفسه[6] .

---

[1] ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 201–203.

[2] نفسه، ج01، ص 121.

[3] نفسه، ج01، ص 130.

[4] الزّهريّ محمد بن أبي بكر: كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة، تح: محمد حاج صادق، دط، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت، ص01.

[5] ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 129.

[6] نفسه، ج01، ص 142.

وفي ترجمته لأبي عبد الله الحلويّ، أورد سبب شهرته بها، فـ "..أخبرني بعض طلبة تلمسان .." أنّه "..كان يبيع الحلواء ويتصدّق بالثّمن"[1]، وهي التي عُرف بها فيما بعد.

وعبر عن مشافهاته أيضا بلفظ "بلغني"، ومن ذلك ما بلغه من أن أحد رؤساء لقي المهدي ابن تومرت في الحج، فقال المهدي: "الدنيا طير ذنبه المغرب.."، فقال: "الشّيخ عبد الواديّ والطير طاووس.."[2] .

وممّا كان من مصادر يحي سماعا، تلك الأحداث المتداولة على لسان العامّة والخاصّة، من غير تأكيد مصدريّ، أو تلقٍ مباشر بسند عن ثقة، تلك الأخبار عبّر عنها يحي بألفاظ من نحو؛ قيل، ويقال وغيرها من الألفاظ التي توح بأنّ ابن خلدون يروي ما يسمعه من غير تثبّت، ومن دون إبداء رأي فيها.

فعند إيراده لمعنى كلمة تلمسان قال: ويقال أنّها من تلشان؛ وهو مركّب من تل:ومعناه لها، وشان: ومعناه شأن، أي لها شأن[3]، وأنّها مؤلّفة من مدينتين عظيمتين، دمجتا بسور واحد، و"يقال إن بها جدار الخضر عليه السلام، وأن سحرتها ممّن نادى فرعون القبط" [4]، وواضح أنّ الرّوايتين ليس لهما سند صحيح، فلم يرد أنّ الخضر أتى بلاد المغرب، ولا سحرة فرعون كانوا فيها.

وعند ترجمته لأبي الحسن الطّيّار قيل أنّه لم يضطجع أربعا وعشرين سنة يصوم فيها ويقوم[5]!! ويبدو أنّها بعيدة عن الصّحّة، ولم يعلّق عليها يحي لتأثّره باتّجاه التّصوّف، ومن مناقب الشيخ أبي عبد الله بن مروان التي أوردها على السّماع قوله: "قيل: لم يجلد أحد بسوط أيّام توليته القضاء"[6].

وعندما استرسل في بيان من تولّى الخلافة من الملوك، الأصغر دون الأكبر فقال: "وقيل المتوكّل وكان أخوه احمد أسنّ منه[7].

وأورد حكاية عن فصاحة وبديهة رجل يسمّى الغضبان الشّيبانيّ بلفظ "يقال أنّ الغضبان الشّيبانيّ."[8].

- **منهج يحي ابن خلدون في البغية**

يقف الدّارس للكتابات السّلطانيّة –في بلاد المغرب الإسلاميّ عموما، وفي الفترة الزّيّانيّة خصوصا– على ملاحظة تتعلّق بمنهج كتابة التّاريخ، وهي مدح السّلاطين الزّيّانيّين وهي ميزة طبعت مؤرّخي الفترة، وانسحبت على يحي بن خلدون، ألم يكن مؤلّفه سلطانيّا، كتبه لأبي حمّو موسى الثّاني؟ وعليه، فليس من الغريب أن يكون منهج يحي في "البغية" كسابقيه.

---

[1] **ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 166.**

[2] **نفسه، ج01، ص 208. أورد صاحب مفاخر البربر أنّ القصّة جرت بين ابن عبد العزيز العبيدي، وجل من المغرب يقال له الدقا. انظر: مجهول: مفاخر البربر، ص 92.**

[3] **ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج01، ص 122.**

[4] **نفسه ، ج01، ص 129.**

[5] **نفسه، ج01، ص 141.**

[6] **نفسه، ج01، ص 150.**

[7] **نفسه، ج01، ص 159.**

[8] **نفسه، ج01، ص 208.**

غير أنّ يحي لم يستقلّ في بغيته بمنهج معيّن، ذلك أنّ الفترة التي عالجها ممتدّة في الزّمن، وأنّ الجغرافيا التي أرخ لها ممتدّة في المكان، وتلكما علّتان ترومان أكثر من منهج لاستيفاءهما.

وعليه، فقد زاوج يحي بين التّأريخ بالأحداث والمنهج الحوليّ (المنهج الحدثي الموضوعي)، واعتمد منهج التّراجم في كثير الجزء الأوّل من بغيته، وتراه يستدعي خلال ذلك الوصف، والإحصاء، وأحيانا المقارنة، حسبما تفرضه طبيعة الموضوع المعالج، ويتناول سرد أخباره بشيء من الإيجاز، تلافيا للملل الذي يلازم الإطناب، ويرصع أحداثه بالقصائد الطّوال، خاصّة حال استحضاره لروحانيّة أعياد الميلاد، أيّام أبي حمّو موسى الثّاني.

الجزء الأوّل من بغية يحي تأصيل لقبيل بني عبد الواد، ووصف لجغرافيتهم، وتراجم لعلماء من تلمسان عاصمتهم، ولذلك تتبّع أصولهم الأولى، ببسط ما أورده النّسابة في نسبهم، دون التّعليق عن تلك الرّوايات، الأمر الذي يوحي بمجاراته لهم في ذلك، فهو ممّن يعتقد بنسبهم الشّريف، واصلا إيّاهم بعليّ بن أبي طالب τ[1].

وعند حديث يحي عن مدينة تلمسان، يصفها وصفا دقيقا، ملمّا بمواطن الحسن فيها، فيعرّج على قصورها، وحدائقها، وشوارعها، منمّقا سرده بعبارات الثّناء، وأساليب السّجع والجناس، مستدلّا بما رواه الشّعراء تغزّلا بها، ومن ذلك قول الشّاعر ابن الخميس: (الطويل)

تلمسان جادتك السّحاب الدّوالح وأرست بواديك الرّياح اللواقح

لئن كنت ملآنا بدمعي طافحـــا فإنّي سكران بحـبّك طافـــح

ومن فضائل تلمسان، علماؤها، حيث يترجم يحي لما حفلت به من الزّهاد والصّالحين، إمعانا منه في إبراز مواطن الكمال فيها، وإلماعا منه إلى أنّ مستقرّ بني عبد الواد كان منارة علم وعرفان، وبيئة زهد وإيمان، فكان مجموع تراجمه مئة وتسعة نفس يستقصي خلالها نتفا من أخبارهم، وكراماتهم، وتواريخ وفياتهم، فكان منهجه حالذاك التّراجم والسّير.

وفي ختام الجزء الأوّل، يؤرّخ لملك بني زيّان، وملوكها المقعّدين لها، ولاة، وحكّامًا مستقلّين، بعد أن كان قد ذكر سبب مصير الملك إليهم، ليتفرّغ بعد ذلك إلى الحديث عن دولة الزّيّانيّين، بذكر ملوكها قبل أبي حمّو واحدا واحدا، مطريا لهم بكلّ عبارات الثّناء والتّبجيل، مؤرّخا لفترات حكمهم على السّنين، مختصرا موجزا لأخبارهم، بحيث لا يتعدّى الخبر الواحد في السّنة الواحدة، ولا يتجاوز الزّيّانيّين جغرافيا.

وخصّص يحي الجزء الثاني –كاملا– للحديث عن دولة أبي حمّو الثّاني، وهو أمر متوقّع من كاتب في خدمة أبي حمّو، إذ سيعمل على بيان فضائله وأجداده، وسيغفل عن ذكر مثالبهم، وهي سنّة مؤرّخي البلط.

كان من نتاج اهتمام يحي بالتّأريخ لدولة أبي حمّو خصوصا، اشتغاله بالأحداث السّياسيّة أكثر من غيرها، ولأجل التّمكين لأبي حمّو سياسيّا، اعتمد الجفر والحدثان[2] وإظهار انتصاراته، وإغفال خيباته، وانتكاسات أجداده في الحروب، الأمر الذي قد يغطّي كثير الحقائق جرّاء الاهتمام بالتّأريخ لأبي حمّو[3]، وينحرف عن الموضوعيّة والأمانة.

---

[1] ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 212–213، 258، ج02، ص15 .

[2] نفسه ، ج02، ص 15.

[3] عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 30.

أرّخ يحي لدولة أبي حمّو الثّانيّ على المنهج الحدثي –الحولي، وهنا يجنح إلى الاستفاضة في بيان الوقائع، معلّلا شارحا، ومحاولا يجاد التفاسير لما يرصد ويدوّن، فمثلا لما حكى عن ابتداء دولة أبي حمّو، عرّج على أسباب قيام الدّول، فذكر اشتغال أبي حمّو بتشييد المصانع، واستوزار الأكفاء، وغير ذلك من عوامل قيام الدّول، مقارنا إيّاه بما فعله عبد الرّحمن الدّاخل لما أحيا الدّولة الأمويّة بالأندلس[1].

غير أن نظرة يحي للتّاريخ لم تعُد كلاسيكيّة تقف على السّرديّة، وإنّما تجاوزت ذلك إلى استدعاء آليّات أخرى لتفسير الحوادث، وهو الأمر الذي له علاقة بالزّمان والمكان[2]، وبأحوال الاجتماع الإنساني، وما يحفل به من ثقافة، وعادات وتقاليد، ولتوضيح ذلك نذكر مثلا أنّ عبد المؤمن بن علي بعث بغنائم إلى فاس، فأراد المخضّب بن عسكر المرينيّ الاستيلاء عليها، فما كان من عبد المؤمن إلّا الاستعانة بجند بني عبد الواد، فهزموا المخضب واستعادوا الغنائم، وعلّل يحي انتصار بني عبد الواد بخبرتهم في بيئة الصّحراء[3].

ومن ذلك أيضا، ما ذكره من اشتداد بأس بني مرين لما تملّكوا مرّاكش، وعلّل ذلك بـ "ما استحوذوا عليه من جبايات أمصار وقبائل"[4]، مبيّنا أثر الاقتصا في قيام الدّول.

هذا، وينزع يحي إلى ابداء رأيه في الأخبار والأحداث، ومن ذلك لجوء أبي سعيد المرينيّ إلى جبل بقرب تلمسان، للتّحصّن به، أو لقتال يغمراسن، فيبدي يحي رأيه بالقول "وهو الأصحّ –أي لقتال يغمراسن– فيما انتهى إليّ[5] .

نقطة أخرى على علاقة بمنهج يحي في معالجة الدّول، وهي التي يشترك فيها مع أخيه عبد الرّحمن، والتي تُعرف بنظرية ابن خلدون في الدّول، ذلك أنّه يعطي لها أعمارا كأعمار البشر[6]، وتسري عليها سنّة الله في التّداول بينها، تلك النّظريّة تمثّلها يحي تأريخا وممّا يدلّ على ذلك، لازمته التي يذيّل بها انقراض كلّ دولة، بالقول:"فسبحان الباقي بعد فناء الخلق"[7]، و"البقاء لله وحده"، و"والله يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين"[8]، وغيرها.

د– قيمة الكتاب

الكتاب خلاصة تجربة مستقاة من واقع معيش، من خلال فاعليّة المؤرخ يحي في البلط المغاربيّة عموما، والزّيّانيّة خصوصا، واشتغاله بالحجابة، والعلامة فيها، ومعاصرته لعلمائها، وزهّادها، وصلحائها، بل إنّه يتجاوز حدود الجغرافيا المغربيّة إلى التّأريخ للمشرق الذي ذيّل به يحي بغيته[9]، فلا يمكن للباحث ن يُعدم فائدة من ذاك التّأليف.

---

(1) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص37–38..

(2) نفسه، ج01، ص 119.

(3) نفسه ، ج01، ص 211.

(4) نفسه، ج01، ص 228.

(5) نفسه، ج01، ص 227.

(6) نفسه، ج01، ص 113.

(7) نفسه، ج01، ص 194.

(8) نفسه، ج01، ص 195.

(9) نفسه، ج01، ص 311 وما بعدها.

الكتاب إذن، وثيقة تاريخية تلبّي حاجة المشتغلين بالتّاريخ لبلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 08هـ -09هـ/14م-15م، غطّى خلالها يحي فترة تربو عن القرن من عمر الدّولة الزّيّانيّة، بدءا من ظهورهم على مسرح الأحداث، وصولا إلى سنة 777هـ/1375م، وقد ضمّنه مؤلّفه أخبارا وأوصافا استغرقت جلّ مناحي الحياة، اجتماعيّا، وثقافيّا، وسياسيّا، حال الحرب والسّلم، وعند الخوف والدّعة، خصوصا ما تعلّق بالعلاقات بين ضفّتي المتوسط، وما كان من تأريخ للمعارك، والفتن، في الأندلس والمغرب[1]، والتّبعات الاقتصادية التي تنجرّ عن لحظات الحصار[2].

تحفل "البغية" بوصف للظواهر الطبيعية، من ذلك زلزال الجزائر سنة 766هـ[3] والريح التي أهلكت الزّرع والضّرع، وأدّت إلى مجاعة، أكل النّاس جرّاءها بعضهم بعضا، فما كان من أبي حمّو إلّا أن فتح للنّاس المارستانات 776هـ/1375[4].

للجغرافيّين أيضا أن يفيدوا من تاريخ يحي، ففيه وصف للطّرق، والبحار، والمدن التي دقّق مؤرّخنا في وصفها، وعالج حدودها، مقدّما بذلك إضافة إلى التّآليف الجغرافيّة خابرا كلّ ذلك من تقلّبه في بلاد المغرب، من كلّ جهات الأرض.

ولعلّ ما قدّمه يحي من تراجم لعلماء تلمسان، وصلحائها، وما قيّده من مراسلات بين أبي حمّو ولسان الدين بن الخطيب[5]، يُعد مادّة يستند عليها الباحثون في تاريخ الفترة إضافة إلى بسطه لمظاهر احتفاء إبي حمّو بالمولد النّبويّ، وتتبّع تلك الموالد سنة بسنة، مع الاستفاضة في استقصاء جزئيّاتها وتفاصيلها، ممّا قد يفيد الدارسين لتاريخ المولد والمؤصّلين له تاريخيّا ودينيّا.

وليس من المبالغة القول أنّ كتاب يحي فائدة للمشتغلين على التكنولوجيا، ففيه ترجمة لمخترع المنجانة (السّاعة) أبو الحسن ابن الفحّام[6]، ووصف لمبدإ عملها على وجه التّدقيق، وإبراز لحذق أبي تاشفين بالاختراع[7]، الأمر الذي يساعد في التّأصيل لهذا العلم في بلاد المغرب الأوسط.

هـ – النقولات عنه

هذا، ولم أعثر فيما وقعت يدي عليه، على من نقل عن يحي بن خلدون بخصوص التّأريخ لبني زيّان، غير أنّ مادّة الكتاب باعث على الاعتماد عليه، ويبدو أنّ مؤرّخي الفترة، ومن كانوا على قرب عهد من زمن المؤرّخ، قد اعتمدوا بغية يحي مصدرا للتّأريخ للمنطقة، قرينتي في ذلك موقعيّة يحي في كتابة التّاريخ، وفي صناعة أحداث الفترة.

---

(1) ابن خلدون يحي: المصدر السابق ، ج01، ص 160، 179.

(2) نفسه، ج01، ص 234.

(3) نفسه، ج02، ص 149.

(4) نفسه، ج02، ص 298.

(5) نفسه، ج01، ص 163– 168.

(6) نفسه، ج01، ص156 .

(7) نفسه، ج01، ص 239.

الفصل السادس: ابن القنفذ القسنطينيّ (ت 810هـ/1407م)

أوّلا: ترجمة المؤلِّف

ثانيا" دراسة مؤلّفاته

الفصل السادس: ابن القنفذ (ت 810هـ/1407م)

أوّلا: ترجمة المؤلِّف

01- مولده ووفاته

هو أحمد بن الحسن[1] بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ[2] بن الخطيب[3]، تكنّى بأبي العباس[4]، وشهرته بابن القنفذ، نسبة لجدّه الذي قد يكون من "بني القنفذ" البطن العربيّ من أشجع[5]، وأمّا ابن الخطيب، فنسبة لجدّه ووالده اللذان مارسا الخطابة، لتي كان حظّ والده منها ستّين سنة[6] القسنطينيّ مستقرّا ووفاة[7].

وُلد ابن القنفذ بمدينة قسنطينة[8]، ولم يحدّد مؤرّخنا تاريخ مولده بدقّة، غير أنّه قد تمثّل مولده نظما، فقال في أبيات له[9]:

مضت ستّون عاما من وجودي * وما أمسكت عن لعب ولهو**

وقد أصبحت يوم حلول إحدى * وثامنة على كسل وسهو**

وأوردها ابن مريم في "بستانه":مضت سبعون عاما من وجودي[10].

ومن غير عناء، سنخلص إلى أن ابن القنفذ ولد في حدود الأربعين وسبعمائة من الهجرة (740هـ/1339م)[11]، وما أورده ابن مريم من أن له في تلك السّنة سبعون عاما لا يُعتدّ به، ذلك أنّ ابن القنفذ قد صرّح بما مضى عليه من السّنون كما سبق وذكرت.

---

(1) ابن قنفذ أبو العباس احمد بن حسن:أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، أدولف فور، دط، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الاداب، المغرب، دت، ص 01، 46. ابن قنفذ أبو العباس احمد بن حسن: كتاب الوفيات، تح: عادل نويهض، ط 4، دار الآفاق، لبنان، 1983، ص 355. وأورده التنبكتي "أحمد بن حسين"، التنبكتي: مصدر سابق، ص 109.

(2) ابن القنفذ: الوفيات، ص 345. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج01، ص 154. ابن القاضي: درة الحجال، ج01، ص 121. السملالي العباس بن ابراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مر: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1993، ج02، ص 224.

(3) ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر–عبد المجيد التركي، د– ط، الدار التونسية للنشر (تونس)، 1968، ص 99. ابن القنفذ: أنس، ص 46، 117. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج01، ص154. ابن القاضي: درّة الحجال، ج02، ص 121. التنبكتي: مرجع سابق، ص 109. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض، لبنان، 1980، ص 268.

(4) ابن القنفذ: الفارسية، ص 99. ابن القنفذ: انس، ص 01، 75. الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1987، ص 56. الحفناوى: المرجع السابق، ص 27.

(5) القلقشندي أبو العباس أحمد: نهاية الارب في معرفة أنساب العرب، ط2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1980، ص 402. عبد العزيز فيلالي، دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ب–ط، دار الهدى، الجزائر، 2012، ص 125.

(6) ابن القنفذ: أنس، ص 48. وفي الوفيات أوردها "نحوا من خمسين سنة" انظر: ابن قنفذ: الوفيات: ص 345.

(7) ابن القنفذ: الفارسية، ص 99. ابن القاضي: الجذوة، ج01، ص 154. ابن القاضي: درة الحجال، ج01، ص121.

(8) عادل نويهض: المرجع السابق، ص 268. محمد قويسم: فقهاء قسنطينة خلال العهد الحفصي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، العدد 07، ص 156–157.

(9) ابن القنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، تح: عبد العزيز صغير دخان، ط1، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، 2003، ص 244.

(10) ابن مريم: المصدر السابق، ص 312–311.

(11) أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 110.

هذا، ومن الجدير مناقشة بعض ما كان بين الباحثين من اختلاف حول تاريخ مولده ونقطة الخلاف منشؤها إغفال ابن القنفذ ذكر التّاريخ على وجه التّدقيق، وخلاصة ما قيل أنّ صاحبنا تجاهل تعيين وقت مولده لريبه فيه[1]، وهو حكم وإن كان منطقيّا فإنّه يحتاج لدليل، فمن غير المعقول أنّه مرتاب في تاريخ مولده، مع أنّه صرّح بأنّ له من العمر ستّون عاما، سنة واحد وثمانمئة! هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ جلّ مؤرّخي الفترة لم يذكروا تواريخ مولدهم، عدا ما كان ممّن ترجم لهم، وهو ما انسحب على ابن القنفذ، وما ذكره محقّقا الوفيات من أنّ أباه أنجبه في سنّ متأخّر، يبدو قولا بعيدا عن الصّحّة، ذلك أنّ ابن القنفذ قد صرّح بأنّ له أخوات ختمن القرآن، وأن لوالده زوجة أخرى[2]، ممّا يحتمل أنّه قد أنجب منها، أو من أمّ ابن القنفذ قبله أولادا.

ولا خلاف بين المصادر حول وفاته التي وردت سنة 810هـ/1407م، ذكر ذلك الونشريسيّ[3]، ابن القاضي[4]، والتّنبكتيّ[5]، غير ما انفرد به الزركشيّ[6]، وعادل نويهض[7]، من أنّه توفّي سنة تسع، وهامش الرّيب هنا سنة واحدة، فلا يمكن عدّه اختلافا.

02- نشأته

نشأ ابن القنفذ في بيت علم، وزهد، إذ الغالب على العصر اتّجاه التّصوّف[8]، وقد كان أسلافه ممّن اشتغلوا على الخطابة في قسنطينة عقودا ستّة أو ما يزيد، وهناك تلقّى تعليمه على يد والده[9]، الذي تعدّاه إلى تعليم بناته عند أبي عبد الله الصّفار[10]، ويبدو أنّ تعليمه هناك كان تعليم المبتدئين، الذي يشمل القرآن، ومبادئ النّحو والعربيّة، وبعض العلوم.

---

(1) ابن القنفذ، الفارسية، مقدمة المحقق، ص 53.

(2) ابن القنفذ: أنس الفقير، ص 45، 46.

(3) الونشريسي احمد بن يحي: وفيات الونشريسي، تح: محمد بن يوسف القاضي، دط، شركة نوابغ الفكر، مصر، دت، ص 80.

(4) ابن القاضي: الجذوة، ص 155. ابن القاضي: درة الحجال، ص 123. ابن القاضي: لقط الفرائد، ج02، ص724.

(5) التنبكتي: المصدر السابق، ص 110.

(6) الزّركشيّ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، دت، ص 123.

(7) عادل نويهض: المرجع السابق، ص 268.

(8) خديجة سلاطنية: تجلّيات التصوف في رحلة ابن القنفذ، مذكرة ماستر في الادب الجزائري، جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر، 2017-2018، ص 26.

(9) عادل نويهض: المرجع السابق، ص 268. عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط: دراسة سياسية عمرانية ثقافية، د-ط، دار البعث (قسنطينة) 2002، ص 111. عمر فروخ: مرجع سابق، ج06، ص611.

(10) ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 45.

انتقل ابن القنفذ –بعد وفاة والده وله من العمر عشر سنين[1]– إلى بيت جده لأمّه يوسف الملاري الصّوفيّ (ت 764هـ/1363 م)، وهناك وجد الرّعاية التي مكّنته من علوم شتّى[2] على يد علماء قسنطينة، وقد تجلّت عناية جدّه به في السّلوك الصّوفيّ الذي طبع حياة ابن القنفذ والذي يبدو أنّه قد استلهمه منه، من خلال تردّده على زاويته بملّارة[3].

ارتحل ابن القنفذ إلى المغرب الأقصى عام تسع وخمسين وسبعمائة، وهي النّقلة التي أحدثت في ثقافته سعة، ذلك أنّها مرحلة تلاقح فكريّ بين حواضر المغرب الإسلاميّ حيث التّبادل المعرفيّ الذي أفاد منه ابن القنفذ، وكان من نتاجه أن تملّك الفقه والتّصوّف، والأدب والتّاريخ[4]، وغيرها ممّا أمكن تحصيله هناك، طيلة ثمانية عشر عاماً، متردّدا مدن المغرب الأقصى، حيث أعلامها في سبتة، وسلا، ودكالة، وغيرها.

الرّحلة تلك، بوّأت ابن القنفذ منزلة علميّة مكّنته من قضاء دكالة سنة 769هـ/1368م، ويبدو أنّه قد استفاد من إقامته هناك، ذلك أنّها مدينة حفلت بخمس وعشرين مدرّسا، وقد قال عنها ابن العربي بـ "ولقيت هناك من أخيارهم، وعلمائهم، وصلحائهم، ما شردت به عيني بسبب كثرتهم.."[5] ولم يُبن مؤرّخنا عن مدّة تولّيه القضاء هناك، ومن المحتمل أنّها إلى آخر مستقرّه بالمغرب الأقصى، أي مدّة سبعة أعوام، غير أنّ صاحبنا –خلال تلك الفترة التي فاقت الثمانية عشر عاما[6]– كان قد تبحّر في علم التّصوّف، كونها تعجّ بالعلماء والصالحين القاطنين بها أو القادمين إليها – كما كنت قد أشرت–.

قفل ابن القنفذ راجعا إلى قسنطينة سنة 776هـ/1374م[7]، وهي السّنة التي عرفت بلاد المغرب الأقصى خلالها فتننا داخل البلاط المرينيّ، انتهت بغصب أبي العبّاس بن أبي سالم عرش المرينيّين من يد السّعيد[8]، ومن تداعيّاتها جوع تلك السّنة الذي أودى بحياة الكثير، ونكبة لسان الدين ابن الخطيب، الامر الذي حمل العلماء على هجر بلاط المرينيّين، ومنهم يحي بن خلدون الذي اختأر البلاط الزّيّانيّ، وابن القنفذ الذي اختار الحفصيّين.

لم تدم إقامة ابن القنفذ في قسنطينة أكثر من عام واحد، تولى خلالها الخطبة، والإفتاء والقضاء، وعكف على نشر العلم بالتدريس والتأليف[9]، ويبدو أنّ ما تبوّأه ابن القنفذ من مكانة هناك، راجع إلى منزلة الأسرة عند الأمراء

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 47.

(2) عبد العزيز فيلالي: دراسات، ص 126. عبد العزيز فيلالي: ابرز علماء قسنطينة وآثرهم في بلاد المغرب والمشرق خلال العهد الحفصي (1)، (بين .ق: 7و10هـ/13–16م)، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص 26–27. رشيد خالدي: دور علماء المغرب الأوسط في الحركة العلمية في المغرب الأقصى، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ والثار، جامعة أبو بكر بلقيد، تلمسان، الجزائر، 2010–2011، ص 75.

(3) ابن القنفذ: شرف الطالب، مقدمة المحقّق، ص 21–22.

(4) التنبكتي: المصدر السابق، ص 109–110.

(5) ابن القنفذ: الانس، ص 71.

(6) أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2003، ص 75.

(7) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 105.

(8) ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج02، ص 286. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج07، ص 191.

(9) عادل نويهض: المرجع السابق، ص 268. عمر فروخ: المرجع السابق، ج06، ص 611. عبد العزيز فيلالي: ابرز علماء قسنطينة، ص 26،27.

الحفصيّين[1]، وتبقى هذه المرحلة مسكوت عنها أيضا لقصرها ربّما؟

رغب ابن القنفذ في الرّحلة إلى تونس مستقرّ الحفصيين، لعلاقته بهم –كما أسلفت– وهناك فهاجر إليها سنة 777هـ/1375م، دلّ على ذلك إجازة بن عرفة له لكتابه "المختصر الكبير" تلك السّنة[2]، ووجد العناية من قبل أهلها لسابقة أهله بخدمة سلاطينها، وتمكين أبي العبّاس من حكم قسنطينة بفتوى والده[3]، وقد زار جامع الزّيتونة، وأقبل على مشايخه مستفيدا من موفور علمهم وفقههم، ويبدو أنّ إقامة ابن القنفذ بتونس لم تكن طويلة، وإنّما كانت على فترات، دلّت على ذلك زيارته لشيخه ابن عرفة سنة قبل وفاته، أي سنة 802هـ[4]، والزّمن بين الإجازة والزّيارة طويل، ما يحتمل أنّه لم يكن مقيما بتونس، إذ لو كان بها، لكان يتكرّر عليه، ذلك أنّ ابن عرفة لازم إمامة الزيتونة خمسين عاما[5]، وأيضا حضوره حصار قسنطينة من قبل أبي فارس عبد العزيز سنة 798هـ/1396م[6].

استقر ابن القنفذ –بعد ذلك– بقسنطينة، وبها قضى آخر أمره، متولّيا منصب الإفتاء والخطبة، وقد عزله القائد نبيل المستبدّ بقسنطينة، بسبب وشاية من شاهد انتصر بنبيل فعزل ابن القنفذ عن القضاء، ولكن السّلطان أبا فارس عبد العزيز الحفصيّ أعاده إلى منصبه بعد تملّكه قسنطينة من القائد نبيل سنة 798هـ/1396م[7]، وهناك أقبل على الكتابة والتأليف، إلى غاية وفاته سنة 810هـ/1407م.

03– شيوخه:

أحصيت ما يربو عن العشرين شيخا لابن القنفذ، وهي ظاهرة يكاد ينفرد بها دون غيره من طلّاب العلم، ويبدو أنّ للتّربية الصّوفيّة دور في تحصيله، ذلك أنّها تنزع إلى الأخذ المباشر عن الشّيخ، وتهتمّ بتدوين وذكر المشيَخة باطّراد، وما يلحق بذلك من رحلة لطلب العلم من أفواه الرّجال.

وقد أورد ابن القنفذ شيوخه في مؤلّفاته، حيث يصرّح فيقول:"قال شيخنا"، و"سمعت منه"، وفي "الوفيات"، و"الأنس"، و"شرف الطّالب" وغيرها، تراجم كافية، وإشارات موحية لشيوخه وفي الآتي بيان لأهمّ أولئك، تدليلا لا إحصاء.

– أبو يعقوب يوسف الملاري (ت 764هـ/1363م): جدّه لأمّه، وهو الذي كفله بعد وفاة والده، ويثني عليه كثيرا في كتبه، لدرجة التّأثّر الذي بدا واضحا في السّلوك الصّوفي الذي طبع حياة ابن القنفذ[8].

– أبو عمران موسى العبدوسي (ت 776هـ/1374م): لازمه مجلسه، ودرس عنه "المدوّنة" و"الرّسالة"[9].

---

(1) فيلالي عبد العزيز :ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، قسنطينة،العدد11، 1998، ص 111.

(2) ابن القنفذ: الوفيات، ص 380.

(3) ابن القنفذ: الفارسية، ص 179.

(4) ابن القنفذ: الوفيات، ص 380.

(5) نفسه، ص 380.

(6) ابن القنفذ: الفارسية، ص 193.

(7) نفسه، ص 193.

(8) ابن القنفذ: الوفيات، ص 362..

(9) نفسه، ص 369–370. ابن القنفذ: الانس، ص 79 .

– أبو عبد الله لسان الدّين محمد بن الخطيب (ت 776هـ/1374م): سمع منه جملة من تواليفه في مجالسه المختلفة[1].

– الفقيه الثّعالبيّ أبو العبّاس أحمد بن الشّمّاع المرّاكشيّ (ت 781 هـ/1379م): قال عنه "شيخنا ومفيدنا"، ويبدو أنّه قد أفاد منه في المنطق، فهو به خبير[2].

– محمد بن أحمد بن محمد ابن مرزوق التلمساني (ت 780 هـ/1378م): أورد وفاته على غالب ظنّه تلك السّنة، وقد تأثّر ابن القنفذ بمجالسه، لما كان فيها من "جمال ولين معاملة"، سمع خلالها منه حديث البخاري وغيره[3].

– أبو محمد عبد الله الونغيلي الضرير (ت 779 هـ/1377م): وأخذ عنه "مختصر بن الحاجب" "والجمل في المنطق"، و"المدوّنة"[4].

– أبو الحسن محمد بن احمد البطريّ (ت 793 هـ/1391م): الفقيه المميّز، الخطيب الصّالح أخذ عنه الرّواية بتونس سنة 777هـ/1375م [5].

04– آثاره العلميّة:

طرق ابن القنفذ –من خلال تآليفه– الفقه، الصّناعة الحديثية، الفلك، الأدب، الطب والمنطق، وقد أحصى لنفسه سنة 807هـ/1404م[6] سبعا وعشرين مؤلفا، مجيبا سائلا سأله عن تآليفه، فـ"..أمليت عليه ما صادفه زمانه.."؛ أي ما تمّ تأليفه لذلك الوقت[7]، غير أنّه لم يذكر "الوفيات" "طبقات علماء قسنطينة"، "شرح المنظومة الحسابيّة"، "تحصيل المناقب وتكميل المآرب"، و"شرح المنظومة الحسابيّة في القضايا النّجوميّة"، ليغدوَ العدد واحدا وثلاثين مؤلّفا، وإغفاله ذكر كتبه الثلاثة تلك يعود إمّا لكونه قد ألّفها بعد سنة 807هـ/1404م، أو أنّها سقطت سهوا منه لكثرة التّآليف عدا ما كان من إغفال "الوفيات"، كونه ذيلا للمتن "شرف الطّالب"، وتجدر الإشارة إلى أنّ محقّق كتاب "شرف الطّالب" قد عدّها اثنتان وثلاثون مؤلّفا، منها أربعة عشر مؤلّفا في حكم المفقود[8]، بينما أوصلها محقّق "الفارسيّة" ثلاثا وثلاثين كتابا، منها واحدا وعشرين مفقودا[9].

ومهما يكن من أمر، فإنّ ابن القنفذ من روّاد التّأليف خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين، وقد استغرق في كتاباته المناهج جلّها، الأمر الذي يرفعه لأن يكون مدرسة وحده وسأحاول –في دراسة وصفيّة– بسط ما تعلّق منها بالكتابة التّاريخيّة خلال ذينك القرنين، وهي أربعة تواليف موجودة، فيما يُعدّ باقي تآليفه التّاريخيّة في حكم المفقود :

---

(1) ابن القنفذ: الوفيات، ص 371.

(2) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 375. ابن القنفذ: الانس، ص 68.

(3) ابن القنفذ: الوفيات، ص 374.

(4) نفسه، ص 372–373. ابن القنفذ: الانس، ص 78.

(5) ابن القنفذ: الوفيات، ص 378.

(6) ابن القنفذ: شرف الطالب، ص 248.

(7) نفسه، ص 237–240.

(8) ابن القنفذ: شرف الطالب، مقدمة المحقق، ص 40–45..

(9) ابن القنفذ: الفارسية، مقدمة المحقق، ص 65–83.

– الوفيات: تتبّع خلاله وفيات أهل الإسلام، مترجما لهم تراجم مختصرة، بدءا من النّبيّ صلى الله عليه وسلم، مرورا بالصّحابة والتّابعين، وصولا إلى العقد الأوّل من المئة الثّامنة.

– الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة: وهو تاريخ محلّي سلطاني، يؤرّخ لسلاطين الدّولة الحفصيّة، من مبدإها إلى دولة أبي فارس عبد العزيز.

– طبقات علماء قسنطينة (الطبقات)

– أنس الفقير وعزّ الحقير، في رجال من أهل التّصوّف، أبي مدين وأصحابه: ترجم فيها المؤلّف لأبي مدين شعيب، وبعضا من رجالات التّصوّف، من خلال مشاهداته عبر رحلاته.

ثانيا: دراسة تآليفه

01 – الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة:

أ– توثيق عنوان الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

قال ابن قنفذ في مقدمّة الفارسيّة:"...فهذا مختصر... سميته "الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة.."[1]، وبذلك يكون قد أزال ما قد يقع من خلاف حول عنوان الكتاب، وتلك سمة دأب عليها مؤرّخو بلاد المغرب الإسلاميّ، عدا ما شذّ، وهو قليل.

وقد ذكر كتابه هذا في جملة تآليفه التي عدّدها في كتابه "شرف الطّالب"[2]، الأمر الذي جعل من نسبة الكتاب إليه قطعيّ الدّلالة، وبذلك، فإنّ أصحاب الفهارس والببليوغرافيا لم يستشكلوا العنوان والنّسبة بينهم، إذ الذي هم عليه أنّ الفارسيّة لابن القنفذ اتّفاقا، وعلى ذلك سار المتأخّرون كالحفناوي[3]، وجرجي زيدان[4]، والزّركليّ[5].

بـ– محتوى الكتاب:

الفارسيّة سجلّ تاريخيّ لأحداث القرون السّادس إلى التّاسع الهجريّة، حيث الدّولة الموحّديّة التي انتصبت لحكم المنطقة، وما كان من أمرها، ثمّ يؤرّخ التّأريخ لمبتدإ الدّولة الحفصيّة إلى غاية 806هـ/1403م، يسرد من خلاله معلومات حول أهم الأحداث السّياسيّة، مستغرقا حكّام الدّولة من زمن أبي حفص "الشّيخ المقدّس"، مرورا بخلفاء الدّولة واحدا واحدا، ذاكرا ما كان من حكمه، مركزا على عصر أبي العبّاس، وابنه أبي فارس، اللّذان عرفت الدّولة الحفصيّة في عهدهما وحدة واستقرارا، وقد انهى كتابه بحكم أبي فارس، وقد توسّع فيه، كونه المقصود بالتّأليف.

يبتدئ ابن القنفذ "الفارسيّة" بالحديث عن قيام دولة الموحدين –اختصارا– على يد ابن تومرت، وما كان من رحلته نحو المشرق، ثمّ عودته إلى بلاد المغرب، حيث وجد النّصرة من أبي حفص عمر الهنتاتيّ الذي تنتهي إليه الدولة الحفصيّة، وواضح أن ابن القنفذ يحاول شرعنة حكم الحفصيّين من خلال التّأصيل للدّولة تاريخيّا، ببسط دور أبي حفص وفضله على الموحّدين كما سبق وذكرت.

---

(1) ابن القنفذ: الفارسية، ص 65

(2) ابن القنفذ: شرف الطالب، ص 237.

(3) الحفناوى: المصدر السابق، ص 31.

(4) جرجى زيدان: المصدر السابق، ج03، ص223–224.

(5) الزركلي: المصدر السابق، ص 1–117.

يتتبّع صاحبنا بعد ذلك ما كان من دولة المصامدة، وخلافتهم للّمتونيّين، ثمّ التّقعيد لها واقعا على يد خلفاء بن عليّ، الذين وحّدوا بلاد المغرب الإسلاميّ على حدوده التي كانت أيّام الفاطميّين، بعد أن استخلصوا إفريقيّة من بني غانية[1].

يستقصي ابن القنفذ مبتدأ دولة بني حفص، حيث أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتيّ مؤسّس الدّولة بإقليم إفريقيّة، ثمّ يسترسل حاكيا توالي ورثته من بعده حكم المنطقة، وفي كلّ مرّة يعرض استعلاء الأمير على الإمارة، وما كان من أحداث ميّزت فترة حكمه، ومن ذلك "نزول النّصارى بتونس بسبعة من الملوك وبكثرة من العّدد والعدد والخيل والأخبية وذلك كفى صلاة الظهر من يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة"[2]، وهي الحملة الصّليبيّة الثّامنة التي تصدّت لها دولة أبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكرياء، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في سنة 668هـ/1270م، إلا أنها أخفقت، وانتهت بهلاك االملك لويس نفسه.

الفارسيّة كرونولوجيا سياسيّة لحكّام الدّولة الحفصيّة، يتعقّبهم ابن القنفذ بدءا من مؤسّسها إلى غاية "أمير المؤمنين" أبي فارس عبد العزيز بن أبي العبّاس، يختصّ خلالها كلّ حاكم بوصف نظم دولته، ووزراءه، وعمّاله، على شكل ترجمة أقرب ما تكون إلى السّيرة الموجزة عن الأمير أو الحاكم يقف فيها على أبرز المنجزات التي وسمت مرحلة الأمير، مستجمعا ما كان من أحداث خلالها، يبسطها سنة سنة، حتى تجاوز بذلك السّياسة إلى الوفيات[3]، فجمع بذلك بين التّأريخ للدّولة والتّأريخ للوفيات، متأثّرا في ذلك بكتابه "الوفيات" على ما يبدو.

حاول ابن القنفذ إبراز مكانة أجداده عند أمراء الدّولة الحفصيّة، فيورد احترامهم لجدّه علي بن حسن بن قنفذ، الذي كان ضمن الوفد الذي سلّم على الأمير أبي زكريّاء بعد شفاءه من علّته حيث استشارهم الأمير في شأن تقديم وفد بجاية، على وفد قسنطينة في التّهنئة، فتقدّم وفد بجاية بعد موافقة وفد قسنطينة[4]، المكانة تلك تظهر أجلى وأوضح عند تقسيم تركة الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحي حيث أوكلت مهمّة القسمة إلى والده، وكان من الورثة أبو العبّاس أحمد ، والد أبي فارس عبد العزيز الذي أهدى له المؤلّف الفارسيّة[5].

يحوي الكتاب دور القنافذة في التّمكين لملك الحفصيّين في قسنطينة، من خلال وساطة والده التي حملت المرينيّين على قبول الأمان مقابل التّنازل عن القصبة، بعدما أظهروا استماتة في الدّفاع عنها ضدّ الفضل عمّ العبّاس الحفصيّ، الذي همّ بإعادة قسنطينة لملك الحفصيّين، ثمّ تفرّده بها دون عمّه[6]، الأمر الذي استدعى تدخّل والد ابن القنفذ، الذي افتى بأنّ يد المرينيّن غاصبة، ويد الفضل لا حقّ لها في الملك باعتبار الغلبة على المرينيّ، وإنّما ينبغي إرجاعها لمن كانت له ابتداء، وهو أبو العبّاس والد أبي فارس[7]، الفتيا تلك، مكّنت لعائلة أبي فارس بملك قسنطينة.

---

(1) ابن قنفذ: الفارسية، ص 100–103.

(2) نفسه، ص 131.

(3) نفسه، ص 103– 122، 123.

(4) ابن قنفذ: المصدرالسابق، ص 148.

(5) نفسه، ص 167.

(6) نفسه، ص 172.

(7) نفسه، ص 179.

يعرض الكتاب أيضا جوانب من الحياة العامّة في بلاد الحفصيّين، من ذلك الثّورات التي كانت بقسنطينة على سلطان الحفصيّين، والتي عزى ابن القنفذ دوافعها إلى جور الولّاة[1]، بالإضافة إلى توصيف حلق العلم وقتذاك حيث دروس الغبرينيّ "الفقيه المدرّس الخطيب"[2]، وحكاية هدم الفندق الذي يباع فيه الخمر بتونس، وإقامة زاوية مكانه[3]، وأخبار ركب الحجّ[4] وغيرها.

جـ- التّمثّلات المنهجية في "الفارسية":

- **الغاية من تأليف الفارسية:**

الفارسيّة تأليف سلطانيّ محض[5]، ومن غير جهد سنخلص إلى ذلك، أليس عنوانه نسبة إلى أبي فارس عبد العزيز المقصود بالتّأليف؟ والغرض من تأليفه للكتاب إتحاف الأمير أبي فارس عبد العزيز بأخبار الدّولة الحفصيّة، و"..ما يتعلّق بها من مهمّات الوقائع الجليّة.."، وما كان من الأحداث التي عرفتها خلال تكوينها وانتصابها، إلى غيرها من الأمور التي "..تتشوق النّفوس إليه من الاطّلاع.." عليه، كلّ ذلك بهدف، "..رفعه إلى الحضرة العلية..."[6].

لابن القنفذ أهداف خفيّة من تأليف الفارسيّة أيضا[7]، منها تذكير أبي فارس بمآثر أجداده ودورهم في التّمكين للدّولة بإبراز خدماتهم لحكّامها من جهة ، والسّعي إلى تبرئة نفسه وأهله من الفتنة التي ألمت بالبلد من جهة أخرى، خصوصا أنّ سهام الشّكوك قد طالته، بعد أن كان قد أبطل حكم نبيل القائد المتسلّط على قسنطينة، وأفتى العامّة بضرورة التّصدّي له ولجوره[8]، الأمر الذي أفضى إلى ثورة العامّة، محاولا نفي التّهمة عنه وعن قومه، بتعليل الثّورة بجور عمّال السّلطان على قسنطينة، وعدم كفاءتهم[9]، ومنهم القائد نبيل صاحب الغلظة.

- **مصادر الفارسيّة:**

اعتمد ابن القنفذ في الفارسيّة على المصادر المشافهة والسّماع، وعلى تجاربه بشكل كبير وذلك كونه شاهدا على معظم أحداث الفترة، وفاعلا فيها، مقارنة بالمصادر المكتوبة والتّآليف، التي كان اعتماده عليها نادرا.

- **الحديث الشّريف**

- " لا تقوم الساعة حتى تخرج نار في الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى"[10].

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 158، 193-194.

(2) نفسه، ص 197.

(3) نفسه، ص 196.

(4) نفسه، ص 140.

(5) سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، س 2، ج01، ص44.

(6) ابن القنفذ: الفارسية، ص 99.

(7) ابن القنفذ: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص 93-95.

(8) نفسه، ص 193.

(9) نفسه، ص 158، 193-194.

(10) نفسه، ص 119. الامام مسلم: المصدر السابق، 1328/2.

- **المشافهة والسّماع:**

كتب ابن القنفذ الفارسيّة انطلاقا من ممّا سمعه مشافهة، أو ممّا يُتداول من أخبار حول السّلاطين الحفصيّين بين العامّة ولخاصّة في قسنطينة، وهي المصادر التي تمثّلها أغلب المؤرّخين مشرقا ومغربا، واعتُمدت مصادر للتّأريخ وقتذاك، وابن قنفذ لم يكن بدعا في ذلك، فقد اعتمدها بكثرة في كتابه هذا.

وترى ابن القنفذ –هاهنا– لا يذكر مصادر من نقل عنه، وإنّما يكتفي بالإحالة للمجهول من قبيل "قيل"، "حكى"، "أخبرني"، وغيرها من الألفاظ الموحية بأنّ تلك الأخبار كانت متداولة بين العامّة على سبيل التّواتر ظنيّة كانت أو يقينا.

فعند ذكره الملك الصالح سلطان مصر والشام (ت647هـ/1249م) أورد –بلفظ "حكى"– شيئا من حميد سيرته، وهي إحراقه لنصرانيّ استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، رغم أنّ أهل النّصرانيّ استشفعوا في ابنهم مبلغا عظيما من المال، إلّا أنّ الملك أبى أن يقايض ذلك بعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، وعند ذكر حكاية نفي المستنصر لأبي علي عمر بن النعمان، قال: "يقال: أن الشيخ أبا علي.."[2]، وتكرّر الأمر مع حكاية اعتراف المستنصر بفضل الفقيه محمد بن الخبّاز، الذي سيُجنّب المستنصر سخط الله بعد أن ولّاه القضاء، نظير عدل ابن الخبّاز[3].

رسم ابن القنفذ شخصيّة الأمير أبي زكرياء، بناء على ما سمعه من بعض المشائخ الذين أثنوْ عليه، ذلك أنّه صاحب مشروع تربويّ تجلّى في اهتمامه بإقامة دور العلم، والمكتبات[4]، وكذا مع أبي البقاء خالد، انطلاقا ممّا حدّثه به من عاصره، فوصفه بناء على ذلك، واضعا تاج الملك على رأسه، كريم النّفس[5].

ما تجدر إليه الإشارة هنا، أنّ استخدام ابن القنفذ لألفاظ المشافهة والسّماع قليل مقارنة بما جرى عليه التّأريخ على عهده، ويبدو أنّ مردّ ذلك تواتر الأخبار التي أوردها ابن القنفذ تواترا يرفعها إلى درجة التّصديق، الأمر الذي حذا به إلى سردها دون إحالة لصحّتها عنده.

- **التّجربة والمعاينة:**

بسط ابن القنفذ الأحداث التي عاصرها بنفسه، ذلك أنّه كان شاهدا عليها، أو فاعلا فيها وأغلب ما رواه من فاعليّته كان في الفصل الأخير من الكتاب، عند ترجمة أبي فارس عبد العزيز وتوزّعت معاينته وحضوره على أحداث الكتاب الأخرى، فكان الغالب على مصادره المعاينة والتّجربة.

فمن مشاهداته، إعجابه بخطّ الفقيه أبي العباس الغسّانيّ، صاحب علامة الأمير المستنصر، وذلك بعد وقوفه على كتاب يحمل علامته بتاريخ 648هـ/1250م[6]، وقد سجّل ابن القنفذ أيضا غزوات النّصارى لمدن بلاد المغرب

---

(1) ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 115.

(2) نفسه، ص 118.

(3) نفسه، ص 125.

(4) ابن قنفذ: الفارسية، ص 155.

(5) نفسه، ص 157.

(6) نفسه، ص 124.

تدلس، وبلاد العنّاب سنة 781هـ/1379م[1]، وما تلاها من حركة الجهاد والتأديب التي قادها أبو فارس لاستعادة توزر، وقفصة سنة 803هـ/1401م[2].

ممّا كان ابن القنفذ فاعلا فيه، فتنة قسنطينة، وذلك بعد نفاق إبراهيم الكاتب، الذي طمح إلى الاستقلال بقسنطينة، فكانت فتوى ابن القنفذ بالتّصدّي للمستبدّين، فاتّهم بالوقوف إلى جانب إبراهيم، وعُزل عن القضاء من قبل القائد نبيل الذي دخل قسنطينة وفتحها، التّهمة تلك برّأه منها أبو فارس، وأعاده إلى منصب القضاء سنة 798هـ[3].

وصف ابن القنفذ مجلس العلم التي كان الأمير أبو فارس يحضرها، ويوكل مهمّة العلم للغبرينيّ في التفسير والحديث والفقه، وما كان من وقوفه على شرحين لرسالة ابن أبي زيد في أسفار رفعه أبو زكرياء يحي الأصبحي للخليفة[4].

- **التآليف المصدريّة**

ذكر ابن القنفذ فضائل شيخ يسمّى أبو محمد، ومعتمده في ذلك ما حكاه عنه كاتبه ابن نخيل[5]، ولابن نخيل كتاب مفقود في التاريخ، يستغرق الدّولتين الموحّديّة والحفصيّة[6]، و يبدو أنّ ابن القنفذ اطّلع عليه.

عدا ذلك، فإنّ صاحبنا لا يذكر مصادره في الفارسيّة إطلاقا، وكلّ ما أورده من أحداث تسبق عصره لا تجد لها مصدرا يستند عليه، عدا من كونه يلجأ إلى التّعميم، فيحيل إلى ما ذكره "المؤرّخون"[7] دون أن يحدّد تعيينا من هم أولئك المؤرّخون الذين اعتمدهم.

- **منهج المؤلف في الفارسيّة:**

رتّب ابن القنفذ الفارسيّة على المنهج الحدثي- الحوليّ، وهو منهج يعمد إليه كتاب السّير[8] وأخبار الدّول، واضعا عنوانا لكلّ أمير يترجم له، متعقّبا إيّاهم تواليلا، باسطا ما كان من بيعته قضاته، ووزراءه، مسترسلا في ترتيب أحداث العصر سنة سنة، يتناول بيعة الأمير، وفي كلّ ذلك تراه لا يخرج عن الدّولة التي يؤرّخ لها، فهو يتتبّع حوادثها تاريخا وجغرافيا، عدا ما يشكّل استثناء بتجوزها الجغرافيا، فيذكر أحداثا من المشرق، أو الأندلس.

وصف ابن القنفذ النّار التي كانت بالمشرق وصفا وقف خلاله على تفاصيل تتعلّق بلونها وحجمها، وما كان من وقعها على نفوس العامّة هناك[9]، وتكرّر الأمر كلّما استوقفه مشهد يستدعي الوصف، ومن ذلك المدرسة الحسنة التي ابتناها الأمير أبو زكريّاء يحي، وما كان من رخامها، وكتبها، وطلبتها[10].

---

(1) ابن قنفذ: المصدر السابق ، ص 196.

(2) نفسه، ص 197.

(3) نفسه، ص 193-198.

(4) نفسه، ص 197.

(5) نفسه، ص 105.

(6) ابن سودة المريّ: المرجع السابق، ص 98.

(7) ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 103.

(8) نفسه، مقدمة المحقق، ص 08.

(9) نفسه، ص 119

(10) نفسه، ص 155.

ما يلاحظ على ابن القنفذ في الفارسيّة اختصاره للأحداث[1] اختصارا مردّه لهدف المؤلِّف من الفارسيّة، ذلك أنّها كتبت لأبي فارس اختصاصا، وبذلك تراه يحيل في مواقع عدّة على كلامه السّابق بقوله "..المتقدّم ذكره.." [2]، ويكتتفي بالتّعليق على الرّواية نفيا أو تثبيتا، دون الخوض في بسط قرائنه وأدلّته[3].

وما يلفت انتباه القارئ للفارسيّة هو الميول الأدبيّة لابن القنفذ، حيث عبارات التّجلّة والإكرام للأمراء والفقهاء[4]، وأسلوب التّشبيه والسّجع[5] –وإن كان نادرا– الأمر الذي يجعل من ابن القنفذ –في بعض المواضع من الفارسيّة– يحكي أدبا تاريخيّا لا تاريخا.

يترجم ابن القنفذ لبعض الرّجال تراجم مقتضبة، يذكر فيها منشأه، ووفاته، وبعضا من سيرته، وهي تراجم على سبيل الإلماع للمترجَم له، لا على سبيل بيان سيرته، يقتصر فيها على ذكر الجليل من أحداث وسمت حياته[6]، مستشهدا بأبيات من الشّعر –أحيانا– التي تحكي سيرة من يترجم له[7].

- **قيمة الكتاب العلمية:**

تظهر قيمة الكتاب من موقعيّة ابن القنفذ في التّاريخ الحفصيّ، فصلته بآل حفص مكنته من الوصول إلى تفاصيل تتعلّق بالسّياسة، والإدارة وغيرها، اعتمادا على الوثائق التي تلقّفها تجربة وسماعا، نقل لنا من خلالها صورا من حياة الدّولة الحفصيّة[8]، وجوانبا من الأقاليم التي شاركت الحفصيّين الجغرافيا ممثّلة في الزّيانيّن، والمرينيّين الذين تقاسموا بلاد المغرب، بل وحتّى تلك البعيدة عنهم كالنّصارى، حرص فيها على التّثبّت في سرد معلوماته، وترتيبها ترتيبا يتّسق مع سيرورة الأحداث[9].

قيمة الفارسيّة أيضا تتأتى من المعلومات التي انفردت بها –أو تكاد– ومن ذلك بيعة أهل مكّة للمستنصر سنة 655هـ/1257م، والتي تسمّى جرّاءها بأمير المؤمنين[10]، حيث كان حقّا للدّولة الحفصيّة أن توسم بالخلافة.

وممّا يعكس قيمة الكتاب أيضا، اعتماد الزّركشيّ عليه، فقد كان مستنده حال التّأريخ للدّولتين الموحّديّة والحفصيّة.

في الكتاب مادّة تاريخيّة للباحث في تاريخ العلاقات بين القطرين، حيث أحداث هزيمة التّتار سنة 639هـ/1242م في بلاد المشرق[11]، والوقائع والسّجالات التي كانت بين المسلمين والنّصارى في إطار ما اصطلح عليه بعد بالحروب الصليبيّة"

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 101.

(2) نفسه، ص 112–135.

(3) نفسه، ص 176.

(4) نفسه، ص 100–127..

(5) نفسه، ص 161–193.

(6) نفسه، ص 121– 133.

(7) نفسه، ص 129.

(8) نفسه، مقدّمة المحقق، ص 20، 21.

(9) روبار برنشفيك: تريخ افريقية في العهد الحفصي، ج02، ط01، تع: حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص 414–415.

(10) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 120–123.

(11) نفسه، ص 125.

على العالم الاسلاميّ[1]، وبين بلدان العالم الإسلاميّ نفسه، حيث فترات الودّ وتبادل الهدايا أحيانا، وفترات الخلاف وحملات التّأديب أحيانا أخرى[2]، هذا فضلا عن الفوائد المنتقاة من أخبار الكوارث الطبيعيّة، والأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة الواردة في سياق التّأريخ للحفصيّين.

02- أنس الفقير وعز الحقير:

أ- تحقيق في العنوان ونسبة الكتاب:

ذكر ابن القنفذ مؤلّفاته في نهاية كتابه "شرف الطّالب ي أسنى المطالب"، ومن بينها كتابه "أنس الفقير، وعزّ الحقير، في رجال من أهل التّصوّف أبي مدين وأصحابه"[3]، وبذلك لم تُستشْكل نسبة الكتاب إليه بين الدّارسين، عدا ما كان من عنوانه الذي بدا أنّ جملة "في رجال من أهل التّصوّف أبي مدين وأصحابه" زيادة على العنوان الأصل، غرض ابن القنفذ من ذكرها بيان محتوى الأنس، لا أنّه جزء من العنوان، فيكون بذلك العنوان "أنس الفقير، وعزّ الحقير"[4]، وهو الذي ذكره ابن القنفذ في مقدّمته له بالقول:"وسمّيت هذا التّقييد: أنس الفقيروعزّ الحقير"[5]، وبذلك يتّضح دونما ريب أنّ العنوان ما ذكره ابن القنفذ عند تقديمه لكتابه، وأنّ العبارة تلك، بيان مختصر للمحتوى، لا أصلا من العنوان.

بـ – محتوى الكتاب

ألّف ابن القنفذ "أنسه" سنة 787هـ/1385م[6]، بمدينة قسنطينة، وهو في الأصل خلاصة ما حصل لصاحبه من لقاءات لمشائخ التّصوّف، وما حدث بينهم من مكاشفات وكرامات، وما كان منه من زيارة لمقامات الأولياء والصّالحين، مردفا ذلك بالتوثيق الزّمنيّ لذلك.

جعل ابن القنفذ "أنسه" سجلّا حافلا ، وما كان من مناقبهم وإذا كان محور الكتاب الأساسي هو الترجمة لأبي مدين الغوث كواحد من أعلام التصوف فإن الحديث عن شيوخه أساتذته وطلابه وتلاميذه

النّص كما يبدو، حاصل تجربة شخصيّة من التّرحال والتّجوال في بلاد المغرب بين المزارت والمشائخ، غير أنّ لم يكن على نسق الرّحلة المتّفق عليه في أدب الرّحلة[7]، حيث توصيف القرى والمدن، وأحوال العمران والمعاش وغيرها، وإنّما هو سجلّ من التّراجم، حاول من خلاله صاحبه لملمة رجال من القرون الثّلاثة التي سبقت حياته[8]، من خلا مشاهداته واتصالاته بأهل التّصوف، في عصره، وقبله بالسّماع عن الإخوان والأصحاب.

حاول ابن القنفذ ابتداء، شرح بعض المصطلحات الصّوفيّة كالولاية، والكرامة، وبسط ما ينبغي على السّالك إدراكه، إذ قد يُشتبه عليه منزل الوليّ، بمنزل الشّيطان، وللتّفريق بينهما، على المريد النّظر في عمل الوليّ، ومقامه من الورع

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 196.

(2) نفسه، ص 119، 195، 199.

(3) ابن القنفذ: شرف الطالب، ص 238.

(4) ابن القنفذ: أنس الفقير، مقدمة المحقق، ص ز. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، س2، ج01، ص 64.

(5) ابن القنفذ: الانس، ص 02.

(6) نفسه، ص 02.

(7) نفسه، مقدمة المحقق، ص أ.

(8) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج01، ص 65.

والخشية، ويورد للتّدليل على ثبوت الكرامة أحاديت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وصحابته ψ[1]، فكانت مناسبة للإلماع إلى بعض أساسيّات الحياة الصوفية، مع الاستشهاد على ذلك بالمأثور من أقوال هؤلاء العلماء شعرا ونثرا[2].

يورد مؤرّخنا بعد ذلك ترجمة مطوّلة للشيخ "العارف المحقّق الواحد القطب أبا مدين"[3] إذ هو المقصود أساسا بالكتاب، فيتعقّب مراحل حياته، وما كان له من كرامات في صغره وفي كبره ومن ذلك ردّه لضربة أخيه له بعود، فتكسّر السّيف أجزاء من ردّة العود، ومن ذلك أيضا، ما كان من شيخه أبي يعزى الذي "يضع خيطا بطرفه مسمار ويخرج حوتا، ويطعمه لي مشويا"[4]، وهنا تخالط الميثولوجيا التّاريخ المنقبيّ، وخلال ذلك كلّه يستقصي كلامه، وحكمه[5]، مسترسلا في بيان مقامه في التّصوّف، واصفا إيّاه بـ "الذي لا يلحقه فيه أحد، وهو التّوكّل على الله تعالى"[6]، وهي أعلى مقامات العارفين.

ضمّن ابن القنفذ كتابه أيضا، تراجم أشياخ أبي مدين، موثّقا ما كان من حياتهم، وتواريخ وفاتهم، ويأتي على بعض الخوارق التي أتت على أيديهم، ومن الذين ترجم لهم: أبو الحسن علي بن حرزهم[7]، أبو الحسن علي بن غالب[8]، أبو يعزى[9]، وأبو عبد الله الدّقّاق، الذي قال أنّه "أوّل من أخذ عنه الشّيخ أبو مدين مبادئ التّصوّف"[10]، وهو الطريق الذي أُجيز فيه ابن القنفذ بسلسلة متّصلة إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم[11]، الأمر الذي يظهر صاحبنا من خلاله طالبا وأستاذا[12].

وفي خضمّ الحديث عن التّصوف ورجاله، يقوم المؤلِّف بعمليّة تأصيل لروافد التّصوّف على عهده، يُرجع فيها بيوتاته إلى ستّة، الشّعبيّون، الصّنهاجيّون، المجاريّون، الدّكاليّون الحجّاج الحاصيّون، والغماتيّون[13]، وهؤلاء ينبت فيهم الصّالحون، "كما تُنبت الأرض الكلأ"[14].

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 11.

(2) ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 11، 26، 27. نجاة المريني: ابن القنفذ من خلال رحلته "أنس الفقير وعز الحقير"، مجلة سيرتا، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد 11، 1998، ص 116.

(3) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 11.

(4) نفسه، ص 12.

(5) نفسه، ص 18–19.

(6) نفسه، ص 11.

(7) نفسه، ص 12– 20.

(8) نفسه، ص 14–26.

(9) نفسه، ص 15،21.

(10) نفسه، ص 27.

(11) نفسه، ص 43.

(12) نجاة المريني: المرجع السابق، ص 116.

(13) ابن القنفذ: المصدرالسابق، ص 64–66.

(14) نفسه، ص 63.

ما يلاحظ على تراجم ابن القنفذ، تخصيصه حيّزا واسعا من الكتاب لجدّه لأمّه[1]، ويبدو أنّ غلبة روح التّصوّف الذي تشرّبه من جدّه يوسف الملّاريّ، قد كان له عظيم الأثر في نفسيّة ابن القنفذ، إلى الحدّ الذي حمله على ذكر جدّه في غالب تآليفه، وفي كلّ مرّة يظهر أنّ ابن القنفذ يعمد لذلك، كنوع من ردّ الجميل لجدّه.

يكشف الكتاب عن واقع التّصوّف النّسويّ، من خلال ترجمته لثلّة من الصّالحات كمؤمنة التّلمسانيّة[2]، والصّالحة عزيزة السكسوية[3]، وزوجة الشّيخ عبد الواحد الصنهاجيّ الصّالحة فاطمة[4]، والحرّة الصّالحة فاطمة الأندلسيّة صاحبة أبا مدين[5].

في خاتمة كتابه، يورد ابن القنفذ صورا من ورع الصّوفيّين، كشكل من أشكال النّمذجة السّلوكيّة التي ينبغي على الزّاهد اتّباعها، ويستشكل بعض الشّبهات التي يقع فيها المريد العائد من ذنوبه، رادًّا عليها في مسائل فقهيّة يعرضها، ويبيّن حكم الشّرع فيها، وطرق الخلاص منها، كطيقة التّصرّف في مال حلال خالطه حرام، ومن باع شيئا مغصوبا ثمّ تاب[6]...الخ، غير أنّي لست أدري إذا ما كانت تلك الأسئلة قد طرحت عليه فأجاب؟ أم أنّها كانت في سياق حديثه عن الزّهد والورع؟ ويبدو أنّها كانت استشكالات من مريدين سالكين مدارج العارفين.

جـ – التّمثّلات المنهجيّة في كتاب "انس الفقير"

- **الغاية من تأليف الأنس**

قال ابن القنفذ:"..رغب إلي من يكرم علي من بعض إخواني في الدين، في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين، نفع الله به وبأمثاله المسلمين، ... فحرّكني ذلك إلى ذكر هذا الشيخ والتعريف به.." [7]، ولذلك فصاحب "الأنس" قد حمله التّعليم على كتابته، فهم ينهد من خلال إلى تنوير طلّابه بما طلبوه منه، وإلى التّعريف بشيخه، وبيان منزلته خصوصا، ورجال التّصّوف عموما، في التّاريخ والجغرافيا.

- **مصادر أنس الفقير:**

أنس الفقير، مجموعة تراجم لرجال التّصوّف خلال قورن ثلاثة، بدءا من القرن السّادس، وصولا إلى القرن التّاسع الهجريّين، أملاها ابن القنفذ تأسيسا على تجواله في بلاد المغرب الإسلاميّ، فكان بذلك الكتاب محصّلة تجربة صوفيّة، ومخالطة لرجاله، فبالتّالي لم يكن صاحبها بحاجة لمصادر إلّا في القليل.

---

[1] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 48–53.

[2] نفسه، ص 80.

[3] نفسه، ص 86.

[4] نفسه، ص 86.

[5] نفسه، ص 91.

[6] نفسه، ص 111–117.

[7] نفسه، ص 01–02.

يذكر ابن القنفذ مصادره التي اعتمدها، أو التي اطّلع عليها، وقد تعدّدت المآخذ تلك عدا ما تعلّق بكتاب "التّشوّف" لابن الزّيّات[1]، دلّ على ذلك بعض النّقولات منه، كشعر أبي عبد الله الدّقّاق[2]، ويبدو أنّه كان من بين مصادره، ذلك أنّه أول ما أُلِّف عن التّصوّف في المغرب.

- **القرآن الكريم:**

اعتماد ابن القنفذ على القرآن الكريم، كان للتّدليل على ضرورة النّزوع نحو الزّهد وتذكّر الآخرة، والأوبة إلى الله، وفي إطار التعريف بالولاية، وما كان من صفات أولياء الله، وهي آيات كثيرة بين استدلال واقتباس، وهذه بعض تلك النّقولات، على نهج التّدليل:

– عند الاستدلال على فضل أولياء الله ومكانتهم، أورد قوله تعالى:"أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[3].

– وفي مجموع مسائله الفقهيّة، وبيانه لمواضع الشّبه على التّائبين، فصّل الحديث عن التّوبة وما تعلّق بها، ومنها العزم على ألّا يعود إلى الذّنب أبدا، وذكر قوله تعالى:""وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ"[4].

– ومن مقتضيات العبادة، الاقبال على إصلاح النّفس بالاستغفار، ومعاجلتها بالأوبة إلى الله، وتعزيرا للمسوّفين، أورد قوله تعالى:"وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[5].

- **الحديث الشّريف**

– عند حديثه عن صفة الوليّ، استحضر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:"الذين إذا رُؤُوا ذكر الله"[6].

– لما ذكر صفة أولياء الله، ما ينبغي على المؤمن فعله إذا رآهم، من التماس

دعائهم،وبركتهم، مؤصّلا لذلك بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم لسيّدنا عمر بن الخطّاب موصيا، أن إذا لقي أويسا القرنيّ فليطب منه الاستغفار له، راويا معنى حديثه صلى الله عليه وسلم: "إن استطعت أن يغفر لك فافعل"[7].

---

[1] ابن القنفذ: المصدر السابق ، مقدّمة المحقق، ص ز.

[2] نفسه، ص 27. أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي: التّشوّف إلى رجال التّصوّف، تح: أحمد التوفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1997، ص 156.

[3] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 01. سورة يونس، الآية 62.

[4] ابن القنفذ المصدر السابق، ص 109. سورة آل عمران، الآية 135.

[5] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 109. سورة الحجرات، الآية 11.

[6] ابن القنفذ: نفس المصدر، ص 02. أنظر: ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني: صحيح سنن ابن ماجة، تأليف: محمد ناصر الدين الالباني، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية، 1997، 3/349–350.

[7] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 02. الحديث:"يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت ان يستغفر لك فافعل" انظر: مسلم أبو الحسن القشيري النيسابوري: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج04، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، ص969.

– وعند لملمته للنكت التي تنفع الأوّابين إلى الله، ومنها الاستغفار، مستدلا بقوله ρ:"ياأيها الناس، توبوا الى الله، فإني أتوب إليه في اليوم سبعين مرّة"[1].

- **التّجربة والمعاينة**

التّاريخ حركة الانسان في الزّمان والمكان، وغاية التّأريخ تتبّع ذلك التّاريخ، والبناء عليه، من خلال استحضار أدوات المنهج، ولعلّ الفاعليّة في صناعة الحدث التّاريخيّ، هي أعلى درجات توثيق الحدث، ومن فإنّ التّجربة والمعاينة هي لبّ الخبر التّاريخيّ، كونها نابعة من حضور شخصيّ، وممارسة عمليّة، مع الأخذ في الحسبان ما يعتري التّجارب الشخصيّة من ذاتيّة تحول دون الحقيقة، والأخيرة تقتضي آليات المنهج الذي من شأنه بناء الحادثة التّاريخيّة على الوجه الذي يُفترض أنها كانت عليه.

بالنّسبة لأنس ابن القنفذ، فإنّ الأمر يقترب من ذلك، فكتابه خلاصة رحلة زار من خلالها صلحاء المغرب الإسلاميّ عموما، وأبي مدين وأصحابه خصوصا، فكانت تجربته العامل الأساس في تدوين أخبار وتراجم الأولياء، والعلماء، والصّالحين، الذين حضر مجالسهم، وأخذ عنهم[2].

سجّل ابن القنفذ صورا عن الحياة الصّوفيّة في بلاد المغرب خلال القرن الثّامن الهجريّ، من خلال اتّصالاته برجالها، ووقوفه على نبذ من مجاهداتهم وكراماتهم، في مجالسهم او عند قبورهم، وما يكون هناك من البركات، حتى مع غير المسلمين[3].

استقصى ابن القنفذ أخبار الصّالحين والعلماء، من خلال اتّصالهم به شخصيّا، فقد وصف لنا لقاءه مع أحدهم، وما كان من لينه وكرمه، على الرّغم من الحاجة والفاقة، فهو بذلك يصوّر لنا جانبا من حياة أولئك، وعبرًا من حيواتهم[4].

نقل مؤرّخنا في مؤلَّفه ما شاهده، وما سمعه، عن طريق المباشَرة والاتّصال الفعليّ، فدوّن ما كان من حضوره لمجالس العلم، واقفا على تفاصيلها، من عدد الحضور، إلى الكتب التي تدرّس وقتذاك، وصولا إلى السّجالات والكرامات التي كانت تقع لشيوخه[5].

الأنس سجّل تاريخيّ لحياة الصّوفيّة، وصورة استغرقت تفاصيل يومياتهم، وهي خلاصة ما رآه ابن القنفذ، وما شاهده، ففي مواطن كثيرة يفصح عن ذلك بقوله:"رأيت.."، واصفا ما تقع عليه عينه من مجالس الذكر، وحلق العلم، وأحوال المعاش[6].

---

[1] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 109. والحديث ورد هكذا: "يا أيها النّاس، توبوا إلى الله، فإنّي أتوب إلى الله في اليوم مائة مرّة" انظر: أحمد بن شعيب النسائي: عمل اليوم والليلة، تح: فاروق حمادة، دط، مؤسسة الرسالة، المغرب، دت، ص 322.

[2] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 07.

[3] نفسه، ص 07.

[4] نفسه، ص 09.

[5] نفسه، ص 10، 25.

[6] نفسه، ص 75–87.

- **التّآليف المصدريّة**

جرت عادة كتّاب التّراجم ذكر مصادرهم، غير أنّ ما يلاحظ على ابن القنفذ، أنّه أغفل المصدر الأساس في التّعريف بشيوخ التّصوّف الذين سبقوا عصره، وهو كتاب "التّشوّف" لابن الزّيّات[1]، الذي يعدُّ أوّل تأليف في تراجم الصّوفيّة في بلاد المغرب، ولا تكاد تجد له ذكرا من بين المصادر التي أثبتها ابن القنفذ في "أنسه"، إلّا في موضع واحد حسب الذي أعلم، ومردّ ذلك أنّ ابن الزّيّات ركّز تراجمه على موات الصّالحين، بينما "الأنس" تراجم للأحياء أيضا، ومع ذلك، كان حريّا بابن القنفذ الإحالة على "التّشوّف" حال اعتماده.

عدا ذلك، فإنّ في الكتاب جملة من المصادر التي كانت مستند ابن القنفذ في تراجمه وقد أتى ذكرها على الشّاكلة الآتية:

*** يذكر الكتاب والكاتب:**

نقل ابن القنفذ عند كلامه عن مكاشفات الأولياء، ما ذكره الشيخ عز الدين بن عبد السلام، في كتابه "القواعد"[2]، وهو بسط لما يحصل لهم من خوارق عادات قد تحصل لهم دون غيرهم، وكان مستنده "منتخب الذّيل" للسّمعانيّ، عند سوقه لسند الإجازة الصّوفيّة لجدّه لأمّه إلى إبي حامد الغزاليّ[3].

واستقى معلوماته عن صحبة الشّيخ أبي محمد صالح الدّكاليّ الماجريّ للشّيخ أبي مدين شعيب، من أبي العبّاس أحمد بن أحمد الغبريني "القاضي الشّهير" كما وصفه ابن القنفذ، صاحب "عنوان الدراية"[4]، الذي ترجم لأبي صالح وأثبت مشيَخة أبي مدين له[5].

ومن اقتباساته، كلام أبي عبد الله محمد بن عبّاد الرّنديّ، صاحب "شرح الحكم العطائيّة[6] وقد ذكر نتفا ممّا كان من فيوضات بن عبّاد عند شرحه للحكم[7].

*** يذكر الكاتب دون ذكر الكتاب:**

ينقل ابن القنفذ كثيرا من مصادر ينسبها لمؤلّفيها، دون ذكر عناوينها، ومن ذلك ما نقله البخاري[8]، لما تكلّم عن كرامات الصّحابة والتّابعي، ومنهم عمران بن حصين، كليم الملائكة.

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق ، مقدمة المحقق، ص ز.

(2) نفسه، ص 03. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام: قواعد الاحكام في إصلاح الانام، تح: نزيه كمال حماده وعثمان جمعة ضميرية،ط1، دار القلم، سورية، 2000، 389/2.

(3) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 42 –43.

(4) نفسه، ص 62.

(5) الغبريني أبو العباس احمد بن احمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح:: عادل نويهض، ط2، دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1979، ص 124.

(6) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 79.

(7) نفسه، ص 79. ابن عبّاد النّفري الرندي: شرح الحكم العطائية، اعداد: محمد عبد المقصود هيكل، ط1، مركز الاهرام للترجمة والنشر، مصر، 1988، ص 89 وما بعدها.

(8) ابن القنفذ: المصدر السايق، ص 04.

ومن كتاب للباهليّ، نقل نصوصا دون ذكر اسم الكتاب[1]، وأكثر من النّقولات عن كتاب لجده[2]، دون عنوان، ويبدو أنهما كتابان في التّصوّف، دلّ على ذلك ما نقله عنهما، ولم أقف على ذينك الكتابين.

من كتب التّراجم التي اعتمدها ابن القنفذ كثيرا، ولم يذكرها إلّا قليلا، كتاب التّاديّ، وقد ذكره في مضع واحد، عند ترجمة أبي محمد صالح[3]، وكتاب التّاديّ المعروف بابن الزّيّات، هو "التّشوف إلى رجال التّصوّف"، يحوي أخبار الأولياء والصّالحين، وإن كان مختصّا بترجمة أبي عبد الله السّبتيّ، فقد ضمّنه صاحبه تراجم من القرون التي سبقت عصر ابن الزّيّات.

*** يذكر الكتاب دون الكاتب:**

ومن الكتب التي اعتمدها أيضا، لكن دون ذكر مؤلّفيها، كتاب "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى"[4]، وهو للإمام أبي حامد الغزاليّ، وقد أبان فيه أنّه أبعد ما يكون عن الحلول والإلحاد[5].

للغزاليّ دائما، اعتمد ابن القنفذ كتاب "بداية الهداية" دون ذكر صاحبه، وضعه الغزاليّ للمبتدئين الذين يسلكون طريق التّصوّف، عارضا عليهم "بداية الهداية"[6]، ممّا يحتاجه الانسان للوصول، وقد ضمّنه تحريرا شبه الفلاسفة، وتقويضا كلام الزّنادقة.

- **المشافهة والسّماع**

تراجم ابن القنفذ في الأنس، محصّلة رحلته في بلاد المغرب، واتّصالاته بمشائخ التّصوّف فيها، عن طريق المباشرة، وممّا ضمّنه تراجمه أيضا، ما كان قد بلغه من ساكنتها، سواء تعلّق الأمر بالعامّة أو الخاصّة، وقد اعتمد ما يُحكى، وما قيل، كمصدر من مصادر أنسه، على سبيل المشافهة والسّماع.

لا يذكر ابن القنفذ مصدر معلوماته، ويكتفي بالقول "أخبرني"، "بلغني"، وهي عبارات توحي بأنّه قد نقلها كما وصلته، من غير تثبّت، غير الحكم الذي يردفه خبره بقوله" أخبرني من يقبل قوله"، أو "أخبرني الثّقة"، تلك المعلومات التي يغلب الظّنّ أنّها كانت متداولة بين السّاكنة.

من ذلك ما أخبره به بعض الفضلاء عن فضائل والده، حيث صدقة السرّ التي تمثّلها سلوكا، حتى عُرف بها، فقد كان يدفع للشّيخ علي بن الحسين اللّجائيّ بعد أن "قُطع مرتّبه، وممّا وصله عنه أيضا توسيعه على الفقراء بصدقة السّرّ، التي كانت "أحبّ أفعاله" له"[7].

---

[1] ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 54.

[2] نفسه، ص 56-58.

[3] نفسه ، ص 62.

[4] نفسه ، ص 63.

[5] نفسه، ص 79. أبو حامد الغزالي: المقصد الاسنى شرح أسماء الله الحسنى، ح: محمود بيجو، ط1، مطبعة الصباح، سورية، 1999، مقدمة المحقق، ص 02.

[6] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 63. أبو حامد الغزالي: بداية الهداية، تح: انس محمد عدنان شرفاوي وآخرون، ط1، دار المنهاج، لبنان، 2004، ص60.

[7] ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 48.

ومن ذلك أيضا، ما أخبره به الثّقة، "من أنّ لجدّه ثماني عشرة حجّة"، و"أنّه كان يكتم ذلك"[1].

ترجم ابن القنفذ للشّيخ أبو هادي مصباح بن سعيد الصّنهاجي، وفي تصحيح لنسبته البربريّة، استعان بخبر من "يُقبل قوله من الشّيوخ" الذين اكّدوا له نسبته العربيّة[2].

وبألفاظ الحكاية، دوّن صاحبنا أخباره عن الصّلحاء، فقد حكى عنه حكاية مشهورة بين النّاس عن ابن حرزهم، الذي جرّد كتاب "الغحياء" من المسائل التي انتُقد فيها، فضُرب في المنام حدّ الفرية "ثمانين سوطا"، لما أفاق، وجد الألم في ظهره، فعاد لما كان عليه[3].

وحكى –على لسان الفقيه الربيع المديوني– قصّة رجل انكر ما رآه من أحوال المكاشفة عند تلاميذ أبي مدين، ووصل الأمر إلى الأخير، فـ "تغيّر قلب الشّيخ أبي مدين عليه لإنكاه المكاشفات"، ودعا عليه فسُلب الرّجل ما كان عنده المكاشفة، و"صار واحدا من العامّة"[4].

ذلك بيان لما كان لابن القنفذ من مشافهة وسماع، كانت من جملة مصادره التي دوّن بها تراجمه، وهي مصادر قد يعتريها من الصّحة ما يعتريها من الزّلل، وذلك مناط بمن نقل عنه من حيث درجة الثّقة، والبعد والقرب عن الحادثة.

- **منهج ابن القنفذ في الأنس:**

قيّد ابن القنفذ أخبار الشّيخ أبي مدين شعيب ورجال من أصحابه، "..قاصدا في سبيل ذلك الاختصار، على العادة في ذكر الامثال والاخبار"[5]، ومن ذلك جاء "الأنس" مشتملا على نتف من تراجم أولئك الأصحاب، ونبذ من أخبارهم ومناقبهم، بأسلوب بسيط موجز، يقف من خلاله على محطّات منتقاة من حياة المترجَم له، وتمثّل ذلك عند ترجمته لأبي مدين شعيب، حيث أتى على ذكر نشأته بإيجاز[6]، والأمر نفسه عند كلامه عن شيخ أبي مدين، أبو الحسن علي بن حرزهم[7]، ومردّ ذلك حسب –ابن القنفذ– إلى أنّ غرض الكتاب ليس "التعريف بالرّجال وانما المراد بعض ذكر شواهد الأحوال"[8].

قدّم ابن القنفذ لكتابه بالتّعريف ببعض المصطلحات الصّوفيّة التي ينبغي معرفتها ابتداء، شارحا معنى "الولاية"، و"الكرامة"، و"المكاشفة"، مدلّلا على موقفه بجملة من أخبار السّلف وما كان في الأثر من ذلك.

معتمد ابن القنفذ في "أنسه" الوصف، ذلك أنّه يسجّل تفاصيل ما وقف عليه من مشاهد ومزارات، وما لقيه من مشايخ، وعلماء، وصلحاء، خلال طوافه ببلاد المغرب، لذلك فإنّ جلّ ما دوّنه، كان توصيفا للحياة الصّوفيّة في جغرافيا المغرب.

---

(1) **ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 61.**

(2) **نفسه، ص 49.**

(3) **نفسه، ص 12–13.**

(4) **نفسه، ص 60.**

(5) **نفسه، ص 02.**

(6) **نفسه، ص 11–12.**

(7) **نفسه، ص 12.**

(8) **نفسه، ص 20.**

يقدّم ابن القنفذ تراجمه في "الأنس" مادّة واحدة، على غير عادة المهتمّين بالتّراجم حيث ترتيب الكتاب فصولا، أو على أحرف الهجاء، أو السّنون، وما نهجه ها هنا، جعله من الشّيخ أبي مدين محور "أنسه"، ثمّ يعمد إلى بسط ما يدور حول ذلك، مستغرقا أصحاب الشّيخ وأحوالهم، معرّجا على بسط تآليفهم، وما كان من مناقبهم ومكاشفاتهم، ممتدًّا إلى مزارتهم وقبورهم مستدعيا الألفاظ العاميّة أحيانا[1].

منهج ابن القنفذ ذاك، حمل معه سقطات مردّها إلى الخطّ الذي رسمه صاحبه لكتابه فهو يبسط ما كان من حياة أبي مدين، ونتفا من أخباره، وبسط لشيوخه، وتراه يعود مرّة أخرى للحديث عن الشّيخ الذي ذكره آنفا، في صورة من صور الاستدراك، الذي يحمل معه تكرار بعض الأخبار[2]، وهو الظاهرة التي تتكرّر في الكتاب[3]، وتلك عيبة من عيوب منهج المؤلِّف.

ينافح صاحبنا عن نحلته، معتمدا أسلوب الحِجاج، الذي تكرّر غير مرّة في الكتاب الأمر الذي يوحي أنّ غرض ابن القنفذ التّمكين للتّصوّف معرفة وحقيقة وسلوكا[4]، بمنهج المحدّثين في سوق سلسلة التّصوّف[5]، وفي بيان مدارج السّالكين لطريقه، من خلال مساءلات وشبهات يردّ عنها في آخر كتابه[6].

- **قيمة الكتاب:**

لا يُعدم الباحث في تاريخ التّصوّف عموما فائدة من "أنس" ابن القنفذ، فهو على المآخذ عليه ذا قيمة تاريخية، ذلك أنّ سجلّ حافل بأحداث قرون ثلاث من الفترة المغربيّة الوسيطة، الأمر الذي يتيح للدّارسين مادّة تاريخيّة لا تقل أهمّية عمّا تحويه الكتب ذات الاهتمام بالتّاريخ.

في الكتاب، إشارات يُرتجى منها بيان علاقة السّلطان بالتّصوّف[7]، وهي العلاقة التي حدّدت مصير الدّول من زمن المرابطين، وعلى أساسها كان التّمكين للسّلطان، فكانت الحضوة التي جعلت الشّيخ أبي مسعود بن عريف الذي "وضع الله له القبول عند الأمراء الرّاشدين"[8] وجعلت الشّيخ أبا هادي مصباح بن سعيد "معظّما عند السّلطان"[9]، وكذالك حال الشّيخ عبد العزيز الصّنهاجيّ[10]، وما كان من زيارة أبي العبّاس مع ابن القنفذ إلى قبر أبي مدين سنة

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 16.
(2) نفسه، ص 12، 20.
(3) نفسه، ص 15،21.
(4) نفسه، ص 04-05.
(5) نفسه، ص 43، 94.
(6) نفسه، ص 109- 117.
(7) نفسه، ص 09، 25، 74.
(8) نفسه، ص 44.
(9) نفسه، ص 49.
(10) نفسه، ص 84.

761هـ/1360م[1]، تلك العلاقة التي اتّسمت بالفتور أواخر المرينيّين، جرّاء اعتزال الزّهّاد للسّياسة، ونفورهم من باب السّلطان[2].

يجد الباحث في تاريخ التّصوّف مادّة عن تصوّف النّساء[3]، الأمر الذي يمكّنه من التأريخ لتلك الظّاهرة، كما يفيد الباحث في العلوم من إشارات ابن القنفذ إلى المخترعين، ومنهم اللّجائيّ أبو الحسن علي مخترع الاسطرلاب الذي يعمل بالماء[4].

أخيرا، الكتاب صورة للحياة الدينية والصّوفيّة ببلاد المغرب، حاول من خلاله كاتبه تكشُّف حياة طائفة من الناس، وتسجيل مآثرهم وكراماتهم، على وجه ينهد من خلاله إلى بيان موقعيّة التّصوف في التّاريخ والجغرافيا، في محاولة منه بسط حياة الصّالحين لطلّابه، تربية لهم باستجلاء الطريق الصّوفيّ تنظيرا وتطبيقا.

الكتاب أيضا، مؤلّف نتكشّف منه صور الحياة في بلاد المغرب، حيث امتداد التّصوّف فيها، وغلبته -كمظهر من مظاهر التّديّن- على سلوكات العبّاد، يظهر فيه بجلاء طغيان التّصوّف، وازدهاره وقتذاك، التّصوّف الذي نشأ أواخر المرابطين، وترعرع أيّام الموحّدين ثم ازدهر وانتعش خلال العهد المرينيّ، التّصوّف الذي سيعر انحرافا ابتداء من العهد السّعديّ، نزع به نحو الطّرقيّة[5] التي حادت عمّا كان ينهد إليه رجال التّصوّف.

03- كتاب الوفيات:

أ- تحقيق في العنوان ونسبة الكتاب:

تحقيقا، "كتاب الوفيات" ليس كتابا مستقلا، وإنّما هو ذيل لشرف الطالب[6]، اختتم به صاحبه كتابه المذكور، ومنه فإنّ عنوانه لم يكن من مؤلّفه، وإنّما اقترحه محقّقوه[7]، فبالتّالي العنوان جرى اتّفاقا بينهم، معبّرا من مضمونه، ليس لمؤلّفه دخل في ضبط عنوانه، والاشتقاق ذاك مردّه إلى تلك العبارة لتي أوردها في كتابه شرف الطّالب، وهي قوله:"ولنذكر في هذا الكتاب ما حضرني من وفيات الصّحابة، والتّابعين، و.."[8]، وما عمله المحقّقون، هو إفراد الذّيل بكتاب مستقلّ[9]، كونه ذا أهمّية ينفرد بها وحده[10]، وهو في حجمه يفوق موضوعه "شرف الطّالب"، فكان العنوان "كتاب الوفيات" استقلالا.

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 105.

(2) نفسه، ص 74.

(3) نفسه، ص 86-91.

(4) نفسه، ص 68، 76.

(5) نفسه، مقدمة المحقق، ص ز.

(6) ابن القنفذ: كتاب الوفيات، مقدمة المحقق، ص 12. ابن القنفذ: شرف الطالب، مقدمة المحقق، ص 44، ابن القنفذ: أنس الفقير، مقدمة المحقق، ص د.

(7) حقّقه لأول مرة ، مولوي محمد هدايت حسين سنة 1911، ثمّ هنري بيريس سنة 1939، ثمّ أخيرا عادل نويهض سنة 1981.

(8) ابن القنفذ: كتاب الوفيات، ص 31.

(9) نفسه، مقدمة المحقق، ص 18.

(10) عبد القادر قويع: دور ابن القنفذ القسنطيني في تأريخ الحياة السياسية والثقافية والدينية للجزائر الحفصية، مجلة عصور الجديدة جامعة وهران1، الجزائر، العدد 3، 2011- 2012، ص 04.

بـ – محتوى الكتاب

الكتاب تأريخ لوفيات الصّحابة، والعلماء، والفقهاء، بدأه ابن القنفذ بوفاة الرسول ρ، سنة 11هـ/632م ووصل به إلى سنة 807هـ/1405م، حيث وفاة "الفقيه الحافظ ..أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المرّاكشيّ الضّرير..."[1].

مجمل ما ترجم له ابن القنفذ في "الوفيات" ستّا وستّين وخمسمئة رجل، غير أنّ الذي يميّز التّراجم تلك قصرها، فهي لم تستوف المترجَم له، وهي سمة تتّيق مع ما كان ينهد إليه صاحبه من تأليفه له، حيث معرفة وفيات الرّجال، من شروط علوم الحديث، وبذلك فإنّ التّراجم لم تكن ذات اهميّة، بالقدر الذي تكتسيه سنة الوفاة.

يتتبّع ابن القنفذ وفياته سنة سنة، وعادة ما يذكر عمر المتوفّي عن وفاته، وتراه يضع فصولا لوفياته تمييزا لهم، فيورد وفيات العشرة المبشّرين بالجنّة[2]، ويضع فصلا لأمّهات المؤمنين[3] ويتعقّب باقي الصّحابة بعد ذلك[4].

في فصل آخر، يتعرّض لوفيات التّابعين، مبتدءا بالفقهاء منهم، وقد عدّهم سبعة[5] يرتّبهم حسب سنوات وفياتهم، مسترسلا في بسط من جاء بعدهم، وهكذا يكمل باقي وفياته، مرفقا إيّاها ببعض المناقب التي تحضره حال ذكر المتوفّي.

يستغرق ابن القنفذ في وفياته أعيان المشرق، والمغرب، والاندلس، ذاكرا مذهب من يستوفيه، ونحلته، مع بعض التّعاليق التي يدرجها ضمنا، وبعض ما يجري على الصّوفيّين من كرامات وأحوال، غير أنّ صاحبنا لم يستوفي كلّ الوفيات، بعد أن جدّ جَدّه في ذلك، وفي خاتمة كتابه، أوصى الطّلبة بالبحث عمّن أغفله هو[6].

جـ – التّمثّلات المنهجيّة في كتاب "الوفيات"

- **الغاية من تأليف الوفيات**

"الوفيات" ذيل لشرف الطّالب –كما تقدّم– استقصى فيه صاحبه وفيات المشاهير من أعيان الأمّة، وغايته في ذلك "..خوف التّدليس.." الذي يقع فيه أهل الحديث، فمعرفة سنّ الوفاة تدفع التّهمة عن الرّاوي، ذلك أنّ حساب سنّ وفاة الصّحابيّ أو المحدّث وسنّ وفاة من روى عنه، كفيل ببيان "..هل أدركه أم لا"، ومنه الاستدلال على درجة الحديث، فواضح إذن، أنّ من مقتضيات علوم الحديث، معرفة وفيات الأعيان عند ابن القنفذ.

- **مصادر الوفيات:**

لا يذكر ابن القنفذ مصادره في الوفيات إطلاقا، ويُحتمل أن يكون مردّ ذلك إلى كونه جزءا من "شرف الطّالب"، الأمر الذي يجل من مصادر "شرف الطّالب" مصادر "للوفيات" أيضا وما عثرت عليه من ذكر للمصادر، كان تلميحا، وهو ذكر أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405هـ/1014م) صاحب كتاب "علوم الحديث"

---

(1) ابن القنفذ: كتاب الوفيات، ص 371–372..

(2) نفسه، ص 26– 31.

(3) نفسه، ص 32–37.

(4) نفسه، ص 31.

(5) نفسه، ص 88.

(6) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 382.

والذي بدا لي أنّه قد اطّلع عليه، بقرينة أنّه ذكر أنّ أبا عبد الله قد انتهى بوفياته في –كتابه المذكور– إلى سنة عشرين وثلاثمئة، ولم يذكر من الصحابة إلّا العشرة، وترك كثيرا من المشاهير[1]، ممّا يوحي باطّلاعه عليه.

- **منهج ابن القنفذ في وفياته:**

ذكر ابن القنفذ منهجه في وفياته فقال:" ..ورتّبته على المئين من السّنين، بوجه لم أُسبق إليه.."(2) ويبدو أنّ هذا الحكم يحتاج لبعض المناقشة؛ فأمّا منهج التّاريخ على السّنين، أو المنهج الحوليّ فإنّه لم يكن وليد عصر ابن القنفذ، وإنّما كان خلال العصور الإسلامية السّابقة له ولعلّ أشهر من أرّخ على السّنوات الطّبريّ في كتابه "تاريخ الرّسل والملوك"، ثمّ تطور التّأريخ على المنهج الحوليّ من أنموذج السّنوات، إلى وحدات زمنية أوسع حسب العقد الواحد من القرن[3] وأضيفت له الأحداث، فظهر المنهج الحدثيّ–الحولي، ولعلّ أشهر من يمثّل هذا الاتّجاه عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحي.

أمّا ما تعلّق بكتاب "الوفيات"، فالتّأريخ للوفيات إنّما كان على أحرف الهجاء، ومثال ذلك وفيات ابن خلّكان، والذّيول عليه، وأمّا ابن القنفذ، فقد كان له قصب السّبق فيه، ذلك أنّ وفياته كانت على المئات من السنين الهجرية، وهي سابقة في هذا الفنّ فعلا، أبان فيها عن توجّه جديد في التّأريخ للوفيات.

استهلّ ابن القنفذ كتابه بإحصاء وفيات المائة الأولى من الهجرة، وانتهى إلى المائة التّاسعة منها، ويعمد إلى ذكر وفيات العقد الواحد من المئة التي يتناولها، فتكون بذلك المئة مقسّمة إلى عشرة عقود، كلّ عقد بوفياته، وسينسحب المنهج على باقئ المئين من السّنين، إلى أن غطّى القرون الهجريّة التي سبقته، وصولا إلى سنة 807هـ/1405م.

ملاحظة أخرى على علاقة بمنهج ابن القنفذ، وهي تجاوزه التّرتيب على السّنون أحيانا فتراه يرتّب وفياته على الفصول، وهي طريقة تكاد تكون أقرب إلى الطّبقات، لاشتراك المتوفّين بميزة معيّنة، فيخصّص فصلا للمبشّرين بالجنّة، وآخر لأمّهات المؤمنين، ويتجاوز كرونولوجيا الوفيات في الفصل نفسه، فلمّا يأتي على وفيات الصّحابة المبشّرين بالجنّة، يرتّبهم حسبما جاء في حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم، لا حسب زمن وفياتهم، فيورد مثلا وفاة عبد الرّحمن بن عوفτ (ت32هـ/653م)، قبل وفاة أبي عبيدة عامر بن الجرّاح τ (ت 18هـ/639م)، مع أنّ المنهج يقتضي ذكر ابن الجرّاح قبل ابن عوف ψ[4] وأخّر ذكر وفاة خديجة رضي الله عنها (ت 03 قبل الهجرة)، إلى فصل أمّهات المؤمنين، مع وفيات سنة عشرين للهجرة وما بعدها، وتلك استثناءات فرضها حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم تارة، ومنهج التّرتيب على الفصول تارة أخرى.

يغلب على وفيات ابن القنفذ الاختصار، فهو ذكر اسم المترجم له ونسبته، ولا يجاوز ذلك إلّا فيما تعلّق بذكر خبر عابر لعالم، أو مكرمة صالح تحتاج لبيان، فجاءت وفياته سهلة بسيطة، مرتّبة، يستطيع الباحث من خلالها استجلاء وفيات الرّجال.

---

(1) ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 230.

(2) نفسه، ص 21.

(3) السيد عبد العزيز سالم: مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والاثار الإسلامية، دط، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2010، ص 86.

(4) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 30.

د- قيمة الكتاب:

تظهر أهمية كتاب "الوفيات" في كونه من المصادر التي لا غنى عنها للمحدّثين، كما أخبر بذلك ابن القنفذ نفسه، وذلك من شأنه فضح المدلّسين في الحديث الشّريف، وبسط مادّة تاريخيّة للباحثين في تاريخ الرّجال، وأدب التّراجم والسّير.

وفيات ابن القنفذ كشّاف بمذاهب الرّجال، من خلال بيانه لوفيات أعلام المذاهب الإسلاميّة، كالإمامان أبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت 150هـ/767م)[1]، وأحمد بن حنبل (ت 241 هـ/855م)[2]، والأوزاعي عبد الرحمن بن عمر 157هـ[3]، ومالك بن أنس 179هـ[4]، ويجد الباحث فيه إشارات إلى امتداد تلك المذاهب في الجغرافيا، من خلال بيان الذّادّين عن كل مذهب، والعاملين على التّمكين له في البلاد الواحدة، فمثلا تجد الإشارة إلى الفقيهين عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت 191هـ/807م)[5]، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحي المزنيّ (ت 264هـ/878م)[6]، فالأوّل ناشر لمذهب مالك، والثّاني ناصر مذهب الشّافعيّ وكلاهما من ساكنة مصر.

يستطيع الباحث أن يستقي من الكتاب تاريخ الملل والنّحل، ففيه وفيات أعلامهم ومواطنهم، كأبي الحسن محمد بن أحمد المصريّ المعتزلي (ت 369هـ/980م)[7]، والرئيس العالم ابن سينا الهمذانيّ (ت 428هـ/1037م)[8]، هذا فضلا عن وفيات مشاهير مغمورين، كالمترجم العظيم حنين بن إسحاق (ت 260هـ/874م)[9]، وواضع العدد المضعف على الشّطرنج أبو بكر الصولي (ت 335هـ/947م)[10].

الكتاب تأريخ لرجال الحديث وأصحاب التّصوّف، وعرض لبعض مناقبهم وكراماتهم كسفيان الثّوريّ(ت159هـ/776م)[11] أبو القاسم الجنيد البغدادي (ت 297هـ/910م)[12]، وصاحب الكرامات أبو محمد محرز بن خلف (ت 413هـ/1022م)[13]، وأمّا المحدّثون، فذكر الامام البخاري محمد بن إسماعيل(ت256هـ/870م)[14] أبو الحسن مسلم بن الحجاج (ت 261هـ/875م)[15]، والقزويني صاحب

---

(1) **ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 129.**

(2) **نفسه، ص 176.**

(3) **نفسه، ص 132.**

(4) **نفسه، ص 141.**

(5) **نفسه، ص 150.**

(6) **نفسه، ص 186.**

(7) **نفسه، ص 218.**

(8) **نفسه، ص 235.**

(9) **نفسه، ص 182.**

(10) **نفسه، ص 211.**

(11) **نفسه ، ص 133.**

(12) **نفسه، ص 196.**

(13) **نفسه، ص 232.**

(14) **نفسه، ص 180.**

(15) **نفسه، ص 185.**

الجامع (ت 273هـ/886م)[1]، وأبو داوود سليمان بن الاشعث (ت 275هـ/888م)[2]، وأوسع من ذلك، تعريجه على وفيات القرّاء السّبعة، أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ/771م)[3]، وورش عثمان بن سعيد (ت197هـ/813م)[4]، وحفص بن عمر (ت246هـ/860م)[5] وغيرهم.

هـ- النّقولات عنه

تأتّت قيمة الكتاب أيضا، من النّقولات التي اعتمدته مرجعا، فأغلب المصادر والمراجع التي أرّخت للوفيات، كان ابن القنفذ سندها في ذلك، ويمكن ان نذكر هنا من المتقدّمين ابن مريم صاحب "البستان"، والتنبكتي في "نيل الابتهاج"، ومن المتأخّرين الحفناوي صاحب "تعريف الخلف"، والزّركليّ صاحب "الاعلام"، هذا ومن قيمة وفيات ابن القنفذ، أن جعل لها ابن القاضي ذيلا سمّاه "لقط الفرائد من لفاضة حقق الفوائد"، أضاف إليه وفيات ما بعد سنة 807هـ/1405م، التي احتدّها ابن القنفذ لوفياته.

---

[1] **ابن القنفذ: المصدر السابق ، ص 187.**

[2] **نفسه، ص 188.**

[3] **نفسه، ص 131.**

[4] **نفسه، ص 154.**

[5] **نفسه، ص 179.**

الخاتمة

الخاتمة:

ما يمكن الخلوص إليه بعد ذلك البحث هو الآتي:

– مسار الكتابة التّاريخيّة في بلاد المغرب عرف منحى تصاعديّا منذ القرن الأوّل الهجريّ إلى غاية الموحّدين، وهو على نفس نقطة انطلاق التّدوين التّاريخيّ في بلاد المشرق، وقد تخلّلته فترات الرّكود التي خضعت لسياسة الدّولة، ونستطيع استجلاء ذلك من خلال ما حدث من اضطراب في حركة التّأليف التّاريخيّ أيام الزّيريّين والحمّاديّين والمرابطين، ولم ينج من حالة الوهن تلك إلّا القرن الرّابع الذي سادته دولة الفاطميّين، والتي ستعمد الى توجيه التّاريخ الوجهة التي تخدم السّلطة القائمة.

– التّشكّل التّاريخي للكتابة التاريخية في بلاد المغرب كان نتاج إسهامات متفاوتة بين اقطاره وقد حاولت إثراء المعرفة التّاريخيّة هناك، حيث لعب فيها التواصل الحضاري دورا في ثراءها تاثيرا وتاثرا بين اقطاره، من خلال تجوال المؤرخين بين دوله، إذ المعرفة التّاريخيّة لا تخضع لحدود السّياسة.

– شهد القرنان الثّامن والتّاسع الهجريّين –وبخاصّة التّاسع– حراكا تأليفيّا تفوّق على غيرهما من القرون السّابقة واللّاحقة، ومردّ ذلك إلى المؤثّرات الثّقافية التي أسهمت في مضاعفة زخم التّدوين التّاريخيّ، كانتشار التّصوّف، واهتمام السّلاطين بالحركة العلميّة وانفتاحهم على علماء المنطقة المتجوّلين في بلط بلدان المغرب الإسلاميّ، وانتقال المعرفة التّاريخيّة من الاندلس إلى بلاد المغرب الذي مكن من التّلاقح الفكريّ بين العدوتين، واستقرار علماء الضّفة الأخرى في بلاد المغرب.

– رافق زخم حركة التّأليف التّاريخيّ خلال تلك الفترة، تعاظم دور المدن هناك فتونس، وبجاية، وتلمسان، وفاس وغيرها، شكلت مراكز إشعاع حضاريّ استقطب علماء العدوتين المغرب والأندلس، وبذلك فقد غذّت الكتابة التّاريخيّة بضخها لدماء جديدة أعطت نفسا ثانيا لمسار التأليف عموما من خلال التّلاقح الفكريّ بين الوافدين والقاطنين.

– أساس الكتابة التاريخية واحد في بلاد المغرب وان تشعبت فروعها، لان غرضها واحد منبعه الأيديولوجيا، وعلى الرغم من التغييرات الجغرافية التي اثرت على الكم التأليفي الا ان الوجهة واحدة، ولهذا فلا غرابة ان تكون حقول التاليف متقاربة، ولم تنج من فخ السلطانية الا القلة القليلة من الكتابة التاريخية، وهذا الذي يفسّر غلبة اتّجاه التّاريخ المحليّ على الكتابة التّاريخيّة، والذي لم يكن التزاما طوعيّا، بالقدر الذي كان –في غالبه– نزولا عند رغبة السّلطان.

– تعدّد اتّجاهات الكتابة التاريخية، وتنوّع مناهجها، واستمرار نموها المطرد مردّه الى الحاجة التي فرضها الواقع السّياسيّ الجديد، فطارئات كانتشار التصوف والبحث الشرعية، الامر الذي مكّن من طرق موضوعات مختلفة كالتاريخ السّياسيّ، والاجتماعيّ وغيرها، ومكّن من توظيف مناهج كالوصف الإحصاء، ومنهج الطّبقات، والمنهج الحدثيّ – الحوليّ، وقد بدا واضح أنّ مؤرّخي المنطقة والفترة تلك قد استغرقوا جلّ المناهج التي عرفته الكتابة التّاريخيّة وقتذاك.

– الاهتمام بالتّراجم المحليّة وتقييد المشيخة ظاهرة عرفت رواجا في بلاد المغرب الاسلامي، فالرّحّالة الذين ما يهتمّون عادة بتوصيف الدّول، اهتمّوا في بلاد المغرب بالتّرجمة لشيوخهم، ومن أجازوهم، أو تلقّو عنهم، وهي ظاهرة تندر الا في بلاد المغرب حيث تزدهر ومردّ ذلك لاستشراء روح التّصوّف في المنطقة.

– شهد حقل التّأليف على الرّحلة، وعلى التّراجم والسّير تعاظما مردّه الى الرّغبة التي ابداها أصحابها في تنمية وتوسيع معارفهم، خصوصا ما تعلّق بتبادل الكتب، والى قصد بيت الله الحرم ووصف الطريق التي مرّ بها الحجّج، وما يتخلّل ذلك من لقاء بالمشيخة ومن وراءها الاجازات التي حازها أصحابها، وتراجم المشائخ التي ضمّنوها كتبهم، وهو الأمر الذي يعكس أيضا اهتمام المغاربة بتراجم أعيانهم، في شكل من أشكال الاهتمام بالعلم وأهله وبدا واضحا أن ما حدث من جفاء على مستوى الصّلات السّياسيّة لم ينسحب على الصّلات الثّقافيّة التي بقيت بمنأى عن الهزّات العنيفة التي شهدتها تقلّبات الحكم.

– لا يمكن اغفال الأهمّيّة التي طرحتها الجغرافيا، فالدّور الذي أدّاه المكان في إيجاد العلماء والمفكّرين، وتحديد نوعية اهتماماتهم وتوجيهها، لا يمكن إغفاله، فالانتماء للدّولة قد أسهم في خلق شعور بالرّابطة التي تجذب المؤرّخ نحو قومه، والتي توجّه اهتمامه صوب تدوين اخبار قطره، والتّرجمة لعلماء بلده.

– التّمثّلات المنهجيّة التي التزمها مؤرّخو القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين أسهمت بسقط وافر في كتابة تاريخ المنطقة، ووفّرت للباحثين مادّة تمكّنهم من استجلاء ذلك التّاريخ، أو إعادة صياغته باستنطاق الشّواهد، ومقابلة نصوص الواقعة الواحدة وجها لوجه، ومن ثمّ اعتماد النّص الذي يصمد أمام المنهج العلميّ.

– غاية التّأليف التّاريخيّ في بلاد المغرب خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين تلبية رغبة السّلطان، وبالتّالي فهو يعكس روح العصر التي تلونّت بالأيديولوجيا التي حرّكت التّاريخ وقتذاك، ولم تكن القصديّة المعرفية حاضرة في مصادر ذينك القرنين إلّا في القليل.

– تنوّعت مصادر مؤرّخي الفترة تلك، وما يلاحظ أنّ المؤلّفين أولئك استقوا معارفهم –حال التأليف– ممّا هو مدوّن على شكل كتب أو وثائق، واستعانوا بتجاربهم الشّخصيّة ومعايناتهم للحدث التّاريخيّ الذي كانوا فيه فاعلين، كما أنّهم دوّنوا تاريخ المنطقة أيضا انطلاقا من مرويّاتهم الشّفويّة بطرائقها المختلفة سماعا أوتلقّيا مباشرا، وهو ما يعكس اهتمام المؤرّخين أولئك بمصدر الخبر، ولذلك فيندر أن تجد مؤرّخا أغفل مصدر خبره، فإما أن يذكره كاملا، وإمّا أن يكتفي بذكر أحدهما، المصدر، أو صاحب المصدر.

– ابن ابي زرع خدم البلاط المريني على عهد ابي سعيد وشارك معه في معارك واحترف التّوثيق والخطابة له ثلاث مؤلفات كلّها في حقل التّاريخ المحلي، كتبها خدمة للسلطان.

– اشتغل يحي في البلاط المريني في خطة الكتابة والعلامة ثم في البلاط الحفصي فالزياني لم يكن صاحب غزارة في التّأليف، وكتابه الوحيد كتبه لأبي حمو موسى الثاني.

– اشتغل ابن القنفذ على الخطبة والافتاء بقسنطينة، وهو صاحب غزارة في التّأليف بـ 27 مؤلّفا عدّها لنفسه، وقد استغرق في كتاباته المناهج جلّها، كتب الفارسية لأبي فارس سلطان الحفصيين تاريخ محلي سلالاتي على المنهج الحدثي الحولي، الف الانس بطلب من بعض الطلبة لتقييد كلام ابي مدين في حقل السّير والتراجم، دون التّقيّد بمنهج المؤرّخين على التّراجم، لان غرضه بسط اخبار ابي مدين وتراجم بعض الشيوخ، واعتمد المنهج الحولي البحت عند تقييد وفياته، قاصدا من وراء ذلك رفع اللبس الذي يعتري أهل الحديث، من خلال ابراز سنّ وفاة التي تدفع التّهمة عن الرّاوي، ومنه الاستدلال على درجة الحديث.

– الكتابة التّاريخيّة وقتذاك جاءت واصفة للوقائع في غالبها، ولم تكن تفسّر وتعلّل التّاريخ من خلال بيان التّفاعلات الاجتماعيّة والاقتصادية والسّياسيّة التي أفرزت الحدث التّاريخيّ وكانت حتميّة لوقوعه، والتي من شأنها ان تقرّبنا من فهم الحدث، وهي الثّورة المنهجيّة التي أحدثها الاخوان ابن خلدون وبدرجة أكبر عبد الرحمن في كتابة التّاريخ، لكنّها انطفأت بانطفاءهما.

– البحث في موضوع الكتابة التّاريخيّة المغربيّة لا يزال يحتاج حفرا ونبشا دقيقا في المخزون الفكريّ، قصد الوقوف على تمثّلاته المعرفيّة والمنهجيّة، بهدف الوقوف على موقعيّة التّاريخ في منظومة الفكر المغاربيّة، ومحاولة الرّقيّ بالكتابة التّاريخيّة المغربية لا إلى مستوى المدرسة التّاريخيّة إذ وجودها أمر يصعب الجزم به، وإنّما إلى مستوى الفكر التّاريخيّ على الأقل، خصوصا اذا اتضح أنّ انطلاق خطّ انطلاق الكتابة التّاريخيّة المغربيّة على نفس خطّ انطلاقها في المشرق تقريبا ليبقى التّساؤل قائما عن عدم وجود مدرسة تاريخيّة مغربيّة واضحة المعالم، رغم الثّراء المنهجيّ والموضوعاتيّ، بل وحتّى ذلك السّبق المنهجيّ والمعرفيّ أحيانا، ويبدو أنّ استشكال هذه الجزئيّة من شأنه الإجابة عن واقع كتابة التّاريخ اليوم؟

– أحد التّفاسير قدّمها الدكتور سعد الله –رحمه الله–، ذلك أنّ الجور الذي طال المؤرّخين المغاربة من الطّرف الأوّل قد حملهم على الهجرة، أو المحنة، كالذي حدث لابن الخطيب ويحي بن خلدون، كما أنّ احتقار الطّرف الثّاني لهم جعلهم يغادرون بلدانهم إلى حيث التّجلّة والإكبار بهم، وهو ما يفسّر أيضا النّكسة التّأريخيّة التي تعرضّ لها تاريخ المنطقة حيث أن تلبور الفكر التّاريخيّ، ووجود عقليّة فذّة كالرّقيق القيروانيّ، وابن عذاري وابن خلدون، كلّها مؤشرات توحي بإمكانيّة بناء مدرسة تاريخيّة مغربيّة، غير أن الظّلم الذي تعرّض له أولئك على يد السلاطين والعامّة على السواء قد حال دون ذلك، وكل الذي حدث أنّ تلك الكتابات قد ترقى إلى مستوى الفكر التّاريخيّ لا المدرسة التّاريخيّة، ويبدو أنّ تلك المأساة لا زالت تمتّد إلى اللّحظة التي يُترك فيها القلم للمؤرّخ...وفقط.

الملاحق

الملحق 01: إحصاء عام للكتابة التاريخيّة في بلاد المغرب الاسلاميّ الوسيط حتّى العصر الموحّديّ

أوّلا: الإخباريّون (الأخباريّون)

- أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافريّ الشّعبانيّ (ت 161هـ/778م)
- المهلّب بن هيثم القيسيّ (ت275هـ/887م)
- عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقيّ (ت281هـ/ 893م):
- فرات بن محمد العبديّ (ت 292هـ/904م):

ثانيا: التآليف المفقودة

- النّسّابة عبد الله بن أبي حسّان اليحصبيّ (ت227هـ/842م): "التّاريخ"
- أبو عبد الملك الملشوني (ت 242هـ/856م)، "أخبار الأنبياء"، "البدييء"
- عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر (ت250هـ/864م)، "فتوح افريقيّة".
- عبد الملك بن قطن المهريّ (ت 253هـ/866م) "تفسير مغازي الواقديّ".
- محمد بن سحنون (ت 255هـ/870هـ): "الطبقات"، " التّاريخ"، "الجامع"، "الإمامة" "طبقات العلماء".
- سليمان بن أبي عصفور (الفرّاء) (ت 269هـ/882م): "أعلام النّبوّة".
- محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب (ت 283هـ/894م): "تاريخ بني الأغلب".
- يحي بن عمر (ت289هـ/901م): "أحمية الحصون".
- أبو الحسن النّوفليّ أقدم مؤلّف في تاريخ الأدارسة
- أبو طالب بن أحمد حفيد إدريس الثّاني "كتاب السفرة".
- محمّد بن عبد الملك الودّون "تاريخ الأدارسة".
- أبو العرب بن تميم التّميمي (ت 333هـ/)"التّاريخ"، "مناقب سحنون"، "مناقب بني تميم"، "عبّاد إفريقيّة" "طبقات رجال إفريقيّة"
- ابن الجزار 369 هـ/973م "التّعريف بصحيح التّاريخ" ، "أخبار الدّولة".
- التّجيبيّ أبو بكر عتيق بن خلف (ت 422 هـ/ 1031م)، "الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وما تعلّق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار".
- الاجدابيّ أبو عبد الله الحسين (ت 432هـ/ 1040م) "مناقب العلماء والصّلحاء".

– والد المالكي أبو عبد الله محمد بن عبد الله المالكي (ت 444هـ/ 1052م) "مناقب محرز بن خلف".

– أميّة بن عبد العزيز بن الصّلت (ت 529هـ/1134م) "الديباجة في مفاخر صنهاجة"

– ابن شداد الصّنهاجي "الجمع والبيان في أخبار القيروان ومن فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأيّام".

– ابن حمّاد الصّنهاجيّ (ت628هـ/1232م)، "النُّبَذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية"،

– ابن الصيرفي أبو بكر يحي الغرناطي (ت558هـ/1174م) "تقصي الأنباء وسياسة الرؤساء"، "الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطيّة".

– الورّاق "انساب البربر".

ثالثا: التآليف الموجودة

– لوّاب بن سلام اللّوّاتي (ت273هـ/886م) "بدء الإسلام وشرائع الدّين".

– الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرّحمن بن رستم (ت208هـ/823م) "مسائل نفّوسة"

– افلح بن عبدالوهاب "الجوابات"

– جناو بن فتي المديوني وعبد القهّار بن خلف "أجوبة علماء فزّان"،

– ابن الصغير المالكيّ (ت أواخر القرن الثّالث الهجريّ/التاسع الميلاديّ) "أخبار الأئمّة الرستميّين"

– أبو العرب بن تميم التّميمي "علماء إفريقيّة وتونس"، "المحن".

– الخشنيّ (ت362هـ/972م) "طبقات علماء تونس"، "قضاة قرطبة"، "الرّواة عن مالك" "طبقات فقهاء المالكيّة"، "تاريخ علماء الأندلس".

– النُّعمان (ت 362هـ/)، "الافتتاح"، "المجالس والمسايرات والمواقف والتَّوقيعات".

– جعفر بن منصور اليمن (ت 380هـ/990م)، "سيرة ابن حوشب".

– أبو علي منصور العزيزيّ الجوذريّ () "سيرة الأستاذ جوذر".

– ابن الجزار (369 هـ/973م) "سياسة الصّبيان وتدبيرهم".

– اللبيديّ أبو القاسم عبد الرحمن (ت 440هـ/ 1048م) "مناقب شيخه أبا الجبنيانيّ"

– المالكيّ (ت بعد 453هـ/ 1063م) "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم".

– إبراهيم بن القاسم الرّقيق القيروانيّ (ت حوالي 425هـ/ 1034م) "تاريخ افريقية والمغرب".

– ابن حمّاد الصّنهاجيّ (ت628هـ/1232م)، "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم".

- الفتح بن خاقان الإشبيليّ (ت529هـ/1134م) "قلائد العقيان في محاسن الأعيان".
- ابن بسّام الشنتريني (ت 542هـ/1147م) "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة".
- ابن فرج الجيّانيّ (ت حوالي366هـ/977م) "كتاب الحدائق".
- القاضي عياض "الغنية"، "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعيان مذهب مالك".
- أبو الربيع سليمان المزراتيّ (ت 471هـ/1078م) صاحب "السير".
- أبي زكرياء يحي الوارجلاني (ت بعد 474هـ/1081م) "سير وأخبار الأئمّة".
- الوسياني أبي الربيع سليمان (ت بعد 557هـ/1161م) في مؤلَّفه "السير"، أو المسمّى "سير الوسيانيّ".
- البغطوريّ (حي سنة 599هـ/1203م) "روايات الاشياخ اشياخ جبل نفّوسة".
- الدرجينيّ (ت بعد 670هـ/1271م) "طبقات المشايخ بالمغرب".
- البرّاديّ (حي 09هـ/15م) في "جواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات".
- الشمّاخيّ (ت بعد 840هـ/1436م) في كتابه "السير".
- البيذق أبو بكر بن عليّ الصّنهاجي (ت 555هـ/1160م)، في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحّدين"، "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب".
- عبد الملك بن صاحب الصّلاة "كتاب تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين وظهور المهديّ بالموحّدين على الملثّمين، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام أمير المؤمنين وأخير الخلفاء الرّاشدين".
- أبو الحسن عليّ الرّوحيّ (ت576هـ/1180م) في كتابه "بغية الظّرفاء في أخبار الخلفاء"،
- ابن الكردبوس عبد الملك بن ابي القاسم (حي سنة 594هـ/1157م) في "الاكتفاء في أخبار الخلفاء".
- ابن القطّان المرّاكشي (ق 7هـ/13م) "نظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان".
- خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (ت578هـ/1183م) الذي كتب المسند التّاريخيّ "كتاب الصّلة في تاريخ أئمّة الأندلس".
- "فهرسة ابن خير الإشبيلي" (ت558هـ/ 1162م) .

الملحق 02: نتاج القرنين الثامن والتاسع الهجريين (08-09هـ/14-15م)

التاريخ العام

لسان الدّين بن الخطيب (776هـ/ 1374م) "رقم الحلل في نظم الدول"

"أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يتعلق بذلك من الكلام"

التاريخ القطريّ –المحليّ

ابن عذاري المرّاكشيّ (حي 712هـ/ 1312م) "البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب"

الزركشي (ت بعد 894هـ/1489م) صاحب كتاب "تاريخ الدولتين الموحّديّة والحفصيّة"

مجهول (حي سنة 712هـ/1312م)".

كتاب "زهر البستان في دولة بني زيان" لمؤلّف مجهول

ابن الأحمر (ت 807هـ/1405م) "النّفحة النّسرينيّة واللّمحة المرينيّة"، "روضة النّسرين في دولة بني مرين".

أبو حمو موسى الثّاني (ت 791هـ/1389م) كتابا في خطط القيادة والسّيّاسة، وسمه بـ "واسطة السّلوك في سياسة الملوك"

محمد بن احمد ابن الشّمّاع (ت 873هـ/1459م) "الأدلّة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة"

علي الجزنائي (ت 766هـ/1365م) قد ألّف كتابه "جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس"،"بيوتات فاس الكبرى".

مجهول (ق 08هـ/15م) "الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المرّاكشيّة".

محمد السّبتيّ (ت 825هـ/1422م) "اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار"

ابن الخطيب "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار".

ثالثا: التّراجم ..السّير والمناقب الصّوفيّة

"الذّيل والتّكملة على كتابي الموصول والصّلة" لابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/ 1303م)

لسان الدّين ابن الخطيب، الذي كتب كتاب "أوصاف النّاس في التّواريخ والصّلات"

"عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية" لأبي العبّاس أحمد الغبريني (ت 714هـ/1315م)

عبد الواحد بن الطّوّاح التّونسيّ (ق08هـ/14م) كتاب "سبك المقال لفكّ العقال"، "جمع فيه طائفة من أهل العرفان"

عبد الحق البادسيّ (حي 722هـ/1322م) "المقصد الشّريف والمنزع اللّطيف في التّعريف بصلحاء الرّيف".

أبو العبّاس الماجريّ (ت ق 08هـ/15م) في كتابه "المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح"

ابن الخطيب كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"

أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت 849هـ/1445م) المكنّى "بالرّصّاع"* فهرسته الشّهير "فهرست الرّصّاع"

"تحفة الأخيار في فضل الصّلاة على النّبيّ المختار"

البرّاديّ أبو القاسم بن إبراهيم (حي سنة 810هـ/1407م)، "جواهر المنتقات في إتمام ما أخلّ به كتاب الطّبقات".

أبو عبد الله محمد بن يوسف السّنوسيّ (ت 895هـ/1489م)، "مناقب الأربعة رجال المتأخّرين"

الملّاليّ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (حي سنة 897هـ/1491م)، "المواهب القدسيّة في المناقب السّنوسيّة".

عليّ بن محمد الخزاعيّ (ت 789هـ/1387م)، "تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة"

ابن الأحمر "نثير الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزّمان"

مجهول (حي 820هـ/1417م) "بلغة الأمنية ومقصد اللّبيب فيمن كان بسبتة في الدّولة المرينيّة من مدرّس وأستاذ وطبيب"

التّجيبيّ (ت 730هـ/1330م) برنامج التجيبي

فمحمد القيسي الواد آشي (ت 749هـ/1349م) برنامج الواد آشي

محمد بن غالب ابن السّكّاك المكناسيّ (ت 818هـ/1416م) "نصح ملوك الإسلام بالتّعريف بما وجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام"

الثّعالبي عبد الرحمن (ت 875هـ/1470م) "الأنوار في آيات النّبيّ المختار"

أحمد الخلوف (ت 899هـ/1494م) "استرواح القبول بمدح طه الرّسول"

الثّعالبيّ عبد الرحمن بن محمد (ت875هـ/1471م) "غنيمة الوافد وبغية الطّالب الماجد"

أدب الرحلة

عبد الله بن محمد بن أحمد التّيجانيّ التّونسيّ (حيّ سنة 717هـ/1318م) رحلة التجانيّ

لمحمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحميريّ التّونسيّ (ت 726هـ/ 1326م) "الروض المعطار في خبر الأقطار"

القلصاديّ علي بن محمد القرشيّ (ت 891هـ/1486م) "تمهيد الطّالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب"

المقريّ الكبير التّلمسانيّ أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالجدّ (ت 749م/1349م) "رحلة المتبتّل، نظم اللآلي في سلوك الأمالي"

منصور بن علي الزّواويّ البجّائيّ أصلا، التّلمسانيّ (ت 770هـ/1369م) رحلة البجائيّ

أبو زيد عبد الرحمن الثّعالبي (ت 875هـ/1471م) رحلة الثعالبيّ

ابن رشيد الفهريّ السّبتيّ (ت 721هـ/1322م) "ملء العيبة بما جُمِعَ بطولِ الغيبةِ في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة"

التّجيبيّ القاسم بن يوسف السّبتيّ (ت 730هـ/1330م) "مستفاد الرّحلة والاغتراب"

إبراهيم بن الحاج النّميريّ (ت 768هـ/1367م) "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب"

ابن بطوطة محمد بن عبد الله (ت 770هـ/1369م) ". تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"

ابن الخطيب"نفاضة الجراب في علالة الاغتراب"

المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

اولا: المصادر العليا

- القرآن الكريم
- الحديث الشريف

ثانيا: المصادر المطبوعة

ابن الأبار محمد بن عبد الله:

- الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس،ط2، دار المعارف، مصر، 1985.
- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ط1، دار الكتاب، المصري، مصر، 1989.

ابن الأحمر الغرناطي:

- اخبار الدولة الزيانية بتلمسان، تح: هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001.
- روضة النسرين في دولة بني مرين، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، المطبعة الملكية، المغرب، 1962.
- بيوتات فاس الكبرى، منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1972.
- نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تح: محمد رضوان الداية، ط2، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1987.

أحمد بابا التنبكتي:

- نيل الابتهاج في تطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، دار الثقافة الدينية (القاهرة) 2004.

أحمد بن شعيب النَّسائي:

- عمل اليوم والليلة، تح: فاروق حمادة، دط، مؤسسة الرسالة، المغرب، دت.

الامام احمد بن حنبل:

- المسند، تح: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2008.

الامام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي:

- مسند أبي يعلى الموصلي، تح: حسين سليم أسد، ط2، دار المأمون للتراث، سوريا، 1990.

احمد بن زروق أبو العباس:

- شرح المباحث الاصلية على جملة الطريقة الصوفية، تح: محمد عبدالقادر نصار، عبد الله جمال حمدنا الله، ط1، دار الاحسان، مصر، 2014.

الونشريسي احمد بن يحي:

– وفيات الونشريسي، ج02، منشورة ضمن موسوعة أعلام المغرب، محمد حجي: ، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1996، ص633.

احمد بن القاضي:

– الفوائد من لفاضة حقق الفوائد، منشورة ضمن موسوعة أعلام المغرب لحمد حجي، ج02، ،ط01، دار الغرب الاسلامي، 1996م،

الالباني محمد ناصر الدين:

– صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط3، المكتب الإسلامي، لبنان، 1988.

الامام بن الاعرابي أبو سعيد احمد ابن بشر:

– كتاب المعجم، تح: عبد المحسن بن إبراهيم بن احمد، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1997.

إسماعيل باشا البغداي:

– هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دط، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، 1951.

البرادي أبو القاسم محمد بن إبراهيم:

– جواهر المنتقاة في إتمام ما اخل به كتاب الطبقات، طبعة حجرية، قسنطينة، الجزائر، 1302هـ.

– الجواهر المنتقاة، تح: احمد بن سعود السيابي، ط1، دار الحكمة، لندن، 2014.

البزار أبو بكر احمد بن عمرو:

– البحر الزخار المعروف بمسند البزار، تح: محفوظ الرحمن زين الله، ط1، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، 1993.

البلاذري احمد بن يحي بن جابر:

– فتوح البلدان، مطبوع، ط1، مطبعة الموسوعات، مصر، 1901.

البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي:

– المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1971.

– اخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين، تح: عبد الوهاب بن منصور، دط، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1971.

الترمذي محمد بن عيسى:

– سنن الترمذي، وهو الجامع الكبير، تح: مركز البحوث وتقنية المعلومات، ط1، دار التاصيل، مصر، 2014.

التنسي محمد بن عبد الله:

– نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود بوعياد، طبعة خاصة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر،2007، ص 113.

جعفر بن منصور اليمن:

– كتاب الكشف، تح: مصطفى غالب، ط1، دار الاندلس، بيروت، 1984.

– سرائر وأسرار النطقاء، تح: مصطفى غالب، ط1، دار الاندلس، بيروت، لبنان، 1984.

ابن الحاج النميري:

– فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب، تح: محمد بن شقرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1999.

أبو حامد الغزالي:

– بداية الهداية، تح: انس محمد عدنان شرفاوي وآخرون، ط1، دار المنهاج، لبنان، 2004.

– المقصد الاسنى شرح أسماء الله الحسنى، ح: محمود بيجو، ط1، مطبعة الصباح، سورية، 1999.

ابن حجر العسقلاني:

– فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تح: شعيب الارناؤوط، عادل مرشد، ط1، دار الرسالة العالمية، سوريا، 2013.

ابن حزم:

– جمهرة انساب العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، دط، دار المعارف، مصر، 1962.

الحلبي أبو العباس احمد بن عبد الحي:

– الدر النفيس والنور الانيس في مناقب الامام ادريس بن ادريس رضي الله عنهما، تح: محمد بوخنيفي، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971.

الحِميَري محمد بن عبد الله:

– الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: احسان عباس، دط، مكتبة لبنان، لبنان، 1974.

حسن بن رشيق القيرواني:

– انموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986.

الامام الحافظ أبو الحسن مسلم القشيري النيسابوري:

– صحيح مسلم، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية، 2006.

أبو الحسن علي القلصادي:

– رحلة القلصاديّ، تح: محمد أبو الاجفان، دط، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978.

ابن خرداذبه أبو القاسم عبيد الله:

– المسالك والممالك ، دط، دار صادر، ليدن، لبنان، 1889، ص 163.

ابن الخطيب لسان الدين:

– الإحاطة في اخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، ط1، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، 1988.

– رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، تونس، 1316هـ/1898م.

– لسان الدين أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تح: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003.

– معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار، محمد كمال شبانة، دط، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2002.

– أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تح: محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي المغرب والامارات، دت.

– نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تح: السعدية فاغية، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1989.

ابن خلدون عبد الرحمن:

– تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: خليل شحاتة وسهيل زكار، طبعة منقحة، دار الفكر، لبنان، 2000.

– التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ط1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1979.

– مقدمة ابن خلدون، تح: سعيد محمود عقيل، ط1، دار الجيل، بيروت، 2005.

ابن خلدون يحي:

– بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903.

ابن خلكان شمس الدين:

– وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان، تح: احسان عباس، دار صادر، لبنان،2008.

الخشني محمد بن الحارث:

– طبقات علماء افريقية وتونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.

ابن خير الاشبيلي:

– فهرسة ابن خير الاشبيلي، تح: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 2009.

الدباغ أبو زيد عبد الرحمن:

– معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، ط2، مطبعة السنة المحمدية، مصر، 1968.

الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن:

– كتاب المسند الجامع، تح: نبيل بن هاشم الغمري، ط1، دار البشائر، لبنان، 2013.

ابن ابي دينار:

– المؤنس في اخبار افريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تنس، 1869.

الذهبي ابو عبد الله شمس الدين:

– سير اعلام النبلاء، تح: حسان عبد المنان، دط، بيت الافكار الدولية، لبنن، 2004.

الرصاع أبو عبد الله محمد:

– فهرست الرصاع، تح: محمد العنابي، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 1967.

أبو راس المعسكري:

– الإصابة فيمن دخل المغرب من الصحابة، تح: احمد الطويلي، المطبعة العصرية: تونس، 2010.

– عجائب الاسفار ولطائف الاخبار، تح: محمد غالم، دط، المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران، الجزائر، 2005.

الرقيق القيرواني إبراهيم بن القاسم:

– تاريخ افريقية والمغرب، تح: عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1990.

الزّهريّ محمد بن أبي بكر:

– كتاب الجعرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة، تح: محمد حاج صادق، دط، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دت.

الزركشي عبد الله محمد بن ابراهيم:

– تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط1، مطبعة الدولة التونسية المحروسة، 1289هـ.

ابن ابي زرع:

– الذخيرة السّنية في مآثر الدولة المرينيّة، نشر: دار منصور، ط1، مطبعة دار منصور، الرباط، المغرب، 1972.

– الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1972.

الزبيدي محمد بن الحسن:

– طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، 1973.

أبو زكريا يحيى بن عمر:

– احكام السوق، تح: جلال علي الجهاني، طبعة تونسية، تونس، 2012.

ابن الطقطقا محمد بن علي بن طباطبا:

– الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبوع، دط، دار صادر، بيروت، دت.

الكتاني محمد بن جعفر بن ادريس:

– سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، د د ن، دت.

لواب بن سلام المزاتي الاباضي:

– كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين، تح: الشيخ سالم بن يعقوب و ر.ف.شفارتس، ط1، دار اقرا للنشر والتوزيع والطباعة، لبنان، 1958.

المالكي أبو بكر عبد الله:

– رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم واوصافهم، تح: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1994.

ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني:

– صحيح سنن ابن ماجة، تأليف: محمد ناصر الدين الالباني، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية، 1997.

مجهول:

– مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، ط1، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، 2005.

مجهول:

– الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1979.

مجهول:

– زهر البستان في دولة بني زيان، تح: بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

مجهول:

– بلغة الأمنية ومقصد اللّبيب فيمن كان بسبتة في الدّولة المرينيّة من مدرّس وأستاذ وطبيب، تح: محمد بن تاويت التطواني، منشور ضمن مجلة" تطوان"، المغرب، العدد 1964،09م.

محمد بن سحنون:

– آداب المتعلمين، مر: محمد العروسي المطوي، طبعة جديدة منقحة، دون دار نشر، تونس، 1972.

محمد بن عبد الله بن بطوطة:

– تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تح: عبد الهادي التازي، منشورات اكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1997.

محمد ابن عبد الملك المراكشي:

– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: احسان عباس وآخرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2012.

محمد بن القاسم السّبتيّ:

– اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الاثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1983.

محمد ابن عبد الملك المراكشي:

– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: احسان عباس وآخرون، ط1، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2012.

محمد الفاسي:

– ابن رشيد الفهري ورحلته الى المشرق، ضمن مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس، جامعة الدول العربية، مصر، 1959

ابن مريم:

– البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد بن ابي شنب، دط، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

المكناسي احمد بن القاضي:

– جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، دط، دار المنصور للطباعة والنشر، المغرب، 1973.

المقري شهاب الدين احمد بن محمد:

– ازهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون، دط، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، المغرب، د ت.

– نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تح: احسان عباس، ط2، دار صادر، لبنان، 1997.

– نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج6، تح: مريم قاسم الطويل ويوسف علي طويل، دط، دار الكتب العلمية، لبنان، دت.

مسلم أبو الحسن القشيري النيسابوري:

– المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

النبّاهيّ أبو الحسن:

– تاريخ قضاة الاندلس، تح: لجنة احياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة، لبنان، 1983.

أبو نصر الفتح بن خاقان الاشبيلي:

– قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، تح: حسين يوسف خريوش، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989.

القاضي النعمان:

– كتاب إفتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية،بالجزائر، 1986.

– اساس التأويل، تح: عارف تامر، دار الثقافة، بيروت، دت.

– شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار، تح: محمد الحسيني الجلالي، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، د ت.

– المجالس والمسايرات، تح: الحبيب الفقي آخرون، ط1، دار المنتظر، لبنان، 1996.

الصفدي صلاح الدين خليل:

– الوافي بالوفيات، تح: احمد الارناؤوط وتزكي مصطفى، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2000 .

أبو العباس الماجري:

– المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ ابي صالح، تح: عبد السلام سعيدي، ط1، دار ابي رقراق، المغرب، 2013.

ابن عبّاد النّفري الرندي:

– شرح الحكم العطائية، اعداد: محمد عبد المقصود هيكل، ط1، مركز الاهرام للترجمة والنشر، مصر، 1988.

عبد الله بن محمد التيجاني:

– رحلة التجاني، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.

عبد الله بن بلكين:

– التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تح: ليفي بروفنسال، دط، دار المعارف المصرية، مصر، دت.

ابن عبد الحكم:

– فتوح مصر والمغرب، ،تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصر الثقافة، مصر، 2001.

عبد الحق البادسي:

– المقصد الشّريف والمنزع اللّطيف في التّعريف بصلحاء الرّيف، تح: سعيد اعراب، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1993.

عبد الرحمن الثعالبي:

– الأنوار في آيات النبيّ المختار، تح: محمد الشريف قاهر، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2005.

– غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، تح: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2005.

– رحلة الثعالبي، تح: محمد شايب شريف، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2005.

عبد الواحد بن محمد الطواح:

– سبك المقال لفك العقال، تح: محمد مسعود جبران، ط2، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، 2008.

ابن عذاري المراكشي:

– البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب: تح: ج س كولان، ليفي بروفنسال، دط، دار الثقافة، لبنان، 1983.

ابو العرب محمد بن تميم التميمي:

– طبقات علماء افريقية، تح: محمد بن ابي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.

أبو العرب:

–كتاب المحن، تح: يحي وهيب الجبّوري، ط3، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 2006.

عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام:

– قواعد الاحكام في إصلاح الانام، تح: نزيه كمال حماده وعثمان جمعة ضميرية،ط1، دار القلم، سورية، 2000.

علي الجزنائي:

- جنى زهرة الآس في أخبار مدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991.

علي بن محمد الخزاعي:

- تخريج الدّلالات السّمعيّة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصّنائع والعمالات الشّرعيّة، تح: احسان عباس، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1985.

عبد الملك بن صاحب الصلاة:

- المن بالامامة، تح: عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1987.

الجوذري ابو علي منصور:

- سيرة الاستاذ جوذر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تح: محمد حسين كامل وعبد الهادي شعيرة، دط، دار الفكر العربي بيروت. دت.

محمد بن علي بن شهر آشوب:

- معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة والمصنفين منهم قديما وحديثا، مطبوع.

الغبريني:

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، دار الآفاق، لبنان، 1989.

ابن فرحون :

- الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، تح: محمد الاحمدي أبو النور، دط، دار التراث، مصر، دت.

الفكون عبد الكريم:

- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1987.

القاضي عياض:

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج2، تح: محمد بن تاويت الطنجي، ط2، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، المملكة المغربية، 1983.

ابن القنفذ أبو العباس احمد بن الحسين:

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق: محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد المكي الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

- أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، أدولف فور، دط، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الداب، المغرب، دت.

- كتاب الوفيات: تح: عادل نويهض، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

- شرف الطالب في أسنى المطالب، تح: عبد العزيز صغير دخان، ط1، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، 2003.

ابن القاضي احمد بن محمد المكناسي:

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، دط، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب، 1973.

- درّة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الاحمدي أبو النور، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 1971.

- لقط الفرائد من لفاظةة حقق الفوائد، ضمن موسوعة اعلام المغرب، تن: محمد حجي، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1996.

القاسم بن يوسف التجيبيّ:

- برنامج التجيبي، تح: عبد الحفيظ منصور، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.

القرشي عماد الدين ادريس:

- عيون الاخبار وفنون الآثار، القسم الخامس والقسم السادس، نشره د. محمد اليعلاوي تحت عنوان: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ط1، دار الغرب الاسلامي بيروت، 1985.

ابن القطان المرّاكشيّ:

- نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان، تح: د.علي مكي،ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1990.

القلقشنديّ أبو العباس أحمد:

- نهاية الارب في معرفة أنساب العرب، ط2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1980.

السخاويّ شمس الدين:

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ، تح: فرانز روزنتال، تر: د.صالح احمد العلي، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1986.

- الضوء اللّامع لاهل القرن التاسع، دط، دار الجيل، لبنان، دت.

ابن السكاك محمد بن غالب:

- نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، تح: نزيهة المروني العلمي الادريسي،

ابن سعيد الاندلسيّ:

- المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، مصر، 1978.

الشمّاخيّ احمد بن سعيد:

– كتاب السير، تح: احمد بن سعود السيابي، دط، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1987.

ابن الشمّاع محمد بن احمد:

– الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الطاهر بن محمد المعموري، دط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.

شمس الدين محمد الواد آشي:

– برنامج الواد آشي، تح: محمد الحبيب الهيلة، مركز البحث العلمي وإحياء التّراث، كلية الشريعة، مكة المكرمة، السعودية، 1981.

الهيثمي نور الدين علي بن ابي بكر:

– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج08، تح: محمد عبد القادر عطا، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت.

الونشريسي احمد بن يحي:

– المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب، تح: محمد حجي وآخرين، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1981.

– وفيات الونشريسي، منشورة ضمن موسوعة أعلام المغرب محمد حجي، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1996.

– وفيات الونشريسي، تح: محمد بن يوسف القاضي، دط، شركة نوابغ الفكر، مصر، دت.

ياقوت الحموي:

– معجم الادباء ارشادالاريب الى معرفة الاديب، تح: احسان عباس ط1 دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1993.

اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب:

– البلدان، تح: محمد امين ضناوي، دط، دار الكتب العلمية لبنان، دت.

أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي:

– التّشوّف إلى رجال التّصوّف، تح: أحمد التوفيق ط2، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1997.

ثالثا: المراجع

* المراجع العربيّة والمعرّبة

أحمد شلبي:

- تاريخ التربية الإسلامية، دط، مكتبة النهضة المصرية، مصر،1973.

أحمد أمين:

- ظهر الإسلام، ط5، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1969.

احمد الطّالبي:

- الدّولة الأغلبية، تع: المنجي الصيادي، ط2، دار الغرب الاسلامي لبنان، 1995.

إبراهيم حركات:

- المغرب عبر التاريخ، دط، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1978.

إبراهيم بحاز:

- الدولة الرستمية، ط3، منشورات الفا، قصر المعارض، الجزائر، 2010.

اغناطيوس يوليانوفيتش كراتشوفيسكي:

- تاريخ الادب الجغرافي، تع: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التاليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، مصر، دت.

انخل جنثالث بالنثيا:

- تاريخ الفكر الاندلسي، تر: حسين مؤنس، دط، مكبة الثقافة الدينية، مصر، دت.

بوبة مجاني:

- النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي، ط1 دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2009.

جورجي حبيب زيدان:

- تاريخ اللغة العربية، تع: شوقي ضيف، دط، دار الهلال، مصر دت.

حاجي خليفة:

- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دت.

حفناوي بعلي:

- الرحلات الحجازية المغاربية ، المغاربة الأعلام في البلد الحرام –دراسة نقدية توثيقية ثقافية– دط، دار اليازوري العلمية، 2017.

الحفناوي محمد:

– تعريف الخلف برجال السّلف، تح: محمد رؤوف القاسمي، دط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991.

حسن حسني عبد الوهاب:

– العمر في الممصنفات والمؤلفين التونسيين، تر: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، ط1، دار الغرب، لبنان، 2005.

رشيد بورويبة:

– الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، طبعة خاصة، وزارة الثقافة، الجزائر 2007.

روبار برنشفيك:

– تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج02، ط01، تع: حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988.

الزركلي:

– الاعلام، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002.

كارل بروكلمان:

– تاريخ الادب العربي، نقله الى العربية: عبد الحليم النجار، ط5، دار المعارف، القاهرة، دت.

الالباني محمد ناصر الدين:

– ضعيف الترغيب والترهيب، ج02، ط01، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، 2000م، ص 15. تحت رقم 1501.

لجنة البحث العلمي لجمعية التراث:

– معجم مصطلحات الاباضية، ط2، دار الوعي للنشر والتوزيع، الرويبة، الجزائر، 2012.

لطيفة بنت محمد البسام:

– الحياة العلمية في افريقية في بني زيري، دط، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، السعودية، 2001.

محمد محمد زيتون:

– القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار، مصر 1988.

محمد محفوظ:

- تراجم المؤلفين التونسيين، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1985.

محمود إسماعيل:

- الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي، ضمن منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، د ت.

محمد المنوني:

- ورقات عن حضارة المرينيّين، ط3، مطبعة النجاح، المغرب، 2000.

- المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح إلى غاية العصر الحديث، منشورات الخزانة الحسنية، مراكش، المغرب، 1983.

مختار حساني:

- تاريخ الدولة الزيانية، دط، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009.

موسى لقبال:

- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تاسيسها الي غاية القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت.

عادل نويهض:

- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، ط2 مؤسسة نويهض، لبنان، 1980.

عبد الله كنون:

- ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والادب والسياسة، ط1، دار ابن حزم، لبنان، 2010.

عبد الرحمن الجيلالي:

- تاريخ الجزائر العام، ط2، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1965.

عبد العزيز فيلالي:

- مدينة قسنطينة في العصر الوسيط: دراسة سياسية عمرانية ثقافية، دط، دار البعث، قسنطينة، 2002.

- دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، دط، دار الهدى، الجزائر، 2012.

- تلمسان في العهد الزياني، ط1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري:

- دليل بن سودة (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) ط1، دار الفكر، لبنان، 1997.

عبد العليم عبد الرحمن خضر:

- المسلمون وكتابة التاريخ، ط1،المعهد العالي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1993.

عمر رضا كحالة:

- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1993.

عمر فروخ:

- تاريخ الادب العربي، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1983.

فرحات الدشراوي:

- الخلافة الفاطمية بالمغرب، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب، بيروت، 1994.

أبو القاسم سعد الله:

- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2003.
- تاريخ الجزائر الثقافي، السلسلة الثانية، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
- تاريخ الجزائر الثقافي، السلسلة الأولى، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع: الجزائر، 2015.

السيد عبد العزيز سالم:

- مناهج البحث في التاريخ الإسلامي والاثار الإسلامية، دط، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2010.

السملالي العباس بن ابراهيم:

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مر: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، المغرب، 1993.

سيف الدين القصير:

- ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، دط، دار الينابيع، بيروت، لبنان، دت.

هنري كوربان:

- تاريخ الفلسفة الاسلامية منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد (1197هـ)، تر: نصير مروة و حسين قبيسي، ط2، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، 1998.

يوسف بن احمد حوالة:

- الحياة العلمية في افريقية منذ إتمام الفتح وحتى القرن الخامس الهجري، ط 1، جامعة ام القرى، السعودية، 2001.

يوسف هوروفيتس:

- المغازي الأولى ومؤلفوها، تر: حسين نصار، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، 2001.

*** المقالات والمنشورات**

إبراهيم بحاز:

- الكتابات التّاريخيّة في المغرب الاسلامي خلال القرون الهجريّة الثلاث الأولى (1-3هـ/7-9م)، مجلة البيان، جامعة آل البيت، الأردن، المجلد الثالث، العدد الأوّل 2009/2008.

ابراهيم شبوح:

- القاضي النعمان بن محمد (363هـ)، مواد جديدة عن حياته، ضمن ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية، الدورة الثانية، تونس، من 4الى 7 اوت 1977.

بوسعد الطيب:

- المدرسة التاريخية في المغرب الاسلامي ومنهجها في البحث التاريخي خلال القرون الهجرية الأولى (2و3و4هـ/8و9و10م)، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، العدد 06، 2009.

حاج عبد القادر يخلف:

- مصطلح المغرب الأوسط في المصادر الإسلامية الوسيطة، ضمن مجلة عصور الجديدة، وهران، الجزائر، العدد 26، 2016-2017.

خليفي الشيخ:

- أبو عبد الله الملالي التلمساني ومؤلفه المواهب القدسية في المناقب السنوسية، ضمن مجلة الانسان والمجتمع، جامعة تلمسان، الجزائر، العدد 01، 2011 .

حاجيات عبد الحميد:

- الذخيرة السنية قسم مطول من روض القرطاس ، بحث منشور ضمن مجلة دعوة الحق وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد 141، المغرب، دت. موقع المجلة على النت http://habous.gov.ma/daouat-alhaq اطلع عليه يوم 25 من سبتمبر 2018، على 18:00 سا.

- يحي بن خلدون وكتابه بغية الرواد، ضمن مجلة عصور الجديدة، وهران، الجزائر، العدد 3-4- عدد خاص، 2011،2012.

زينب قوني:

- أبو الحسن الغبريني وكتابه عنوان الدراية، ضمن مجلة الأثر، ورقلة، الجزائر، العدد 27، 2016، ص 284.

طاهر بن علي:

– أهمية النّص المقارن في دراسة تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب –دراسة تطبيقية– ضمن مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، العدد 20، جوان 2016.

محمد قويسم:

– فقهاء قسنطينة خلال العهد الحفصي، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، العدد 07.

مزاحم علاوي الشاهري:

– المؤرخ ابن ابي زرع ومنهجه في كتاب الانيس المطرب، مجلة التاريخ العربي، العدد 34، 2005.

مصطفى داودي:

– الحركة العمرانية الإسلامية والدلالات الحضارية خلال العصر الوسيط، ضمن أعمال الملتقى الدولي: تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الفني، منشورت وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، الجزائر، 2011.

محمد بن عمر ابن رشيد:

– رحلة ابن رشيد السبتي، درا: احمد حدادي، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003.

محمد فهمي امبابي:

– البدع في مكة من خلال رحلة التّجيبي السبتي، ضمن مجلة كلية الاداب، جامعة بنها، مصر، العدد 39، 2015.

المهدي البوعبدلي:

– لمحات من الدولة الرّستميّة، مقال منشور ضمن مجلة الأصالة، العدد 41. 1975.

57– موسى لقبال:

– من قضايا التاريخ الرستمي، مقال منشور ضمن مجلة الاصالة، العدد 41 وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، الجزائر.

نجاة المريني:

– ابن القنفذ من خلال رحلته "أنس الفقير وعز الحقير"، مجلة سيرتا، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد 11، 1998.

عبد الله سالم محمد بازينة:

- تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين من القرن (1-4هـ/7-11م)، ضمن مجلة البحوث الأكاديمية، العدد 12، جوان 2018.

عبد العزيز لعرج:

- العمران الإسلامي وعمارته السكنية، قيم دينية ودلالات اجتماعية، ضمن حولية المؤرخ، الجزائر، العدد 03، 2005.

- المساجد الزيانية بتلمسان عمارتها وخصائصها، ضمن حوليات جامعة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، العدد 06، 1992م.

عبد العزيز فيلالي:

- ابرز علماء قسنطينة وآثرهم في بلاد المغرب والمشرق خلال العهد الحفصي (1)، (بين .ق: 7و10هـ/13-16م)، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر.

- ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، قسنطينة، العدد11، 1998.

- دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ب-ط، دار الهدى، الجزائر، 2012.

عبد السلام الجعماطي:

- نحو تأصيل نشأة التدوين التاريخي بالمغرب الأقصى، ضمن مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 72، مركز جمعة الماجد، الإمارات العربية المتحدة، 2010.

عبد القادر زمامة:

- في تحليل مصادر تاريخينا، ضمن مجلة المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، المغرب، العدد 18، 1980.

عبد القادر قوبع:

- دور ابن القنفذ القسنطيني في تأريخ الحياة السياسية والثقافية والدينية للجزائر الحفصية، مجلة عصور الجديدة جامعة وهران1، الجزائر، العدد 3، 2011- 2012.

علاوة عمارة:

- الكتابة التّاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط، ضمن كتاب دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

- ابن شداد جامع اخبار المغرب الوسيط، ضمن مقالات دولية، إتحاد الجامعات العربية للآداب، 2009.

- الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التّاريخي المغربي، ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد 25، المملكة المغربية، 2003.

عمر فارس الكفاوين:

- الرحلة وجه من أوجه السّيرة الغيريّة "رحلة ابن الخاج النميري انموذجا"، ضمن مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، العدد 01، 2015.

عيفة الحاج:

- تأثير المدرسة التاريخية المغربية والأندلسية في كتابات المؤرخين المصريين والشاميين خلال القرنين 6هـ-7هـ/12م-13م، ضمن مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، الجزائر، العدد 13، 2011م.

فراس الطرابلسي:

- قراءة في كتاب احكم السوق "السّماع"، مقال منشور ضمن مجلة الثقافة الشعبية، العدد 29، تونس، 2015.

شيخة احمد الخليفي:

- اليعقوبي والعصر الاموي في كتابه "تاريخ اليعقوبي"، مقال منشور ضمن مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، العدد 13، كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، 2001.

هاني سلامة حسن سلامة:

- طرق التعليم والإجازات العلمية في المغرب (540هـ-668هـ/1145م-1269م)، ضمن المجلة العلمية الليبية العالمية، جامعة بن غازي، ليبيا، العدد 05، 2016.

وداد القاضي:

- ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، مقال منشور ضمن مجلة الاصالة، العدد 45، وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، الجزائر، 1975.

*** المذكرات والأطاريح**

أسماء غجاتي:

- بنية الخطاب السردي في مغازي الواقدي "فتوح الشام" و"فتوح افريقية"، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في النقد الادبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2017/2016.

تاديوس ليفيتسكي:

- المؤرخون وكتاب السير والرواة الاباضيون الوهبيون في افريقيا الشمالية من القرن الثامن وحتى القرن السادس عشر الميلادي، تر: ماهر جرار وريما جرار ، نشر تحت عنوان المؤرخون الاباضيون ضمن منشورات مؤسسة توالت الثقافية، 2007.

جميلة روباش:

- ادب الرّحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2015/2014.

حساين عبد الكريم:

- حركة التاليف التاريخي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الاسلامي الوسيط، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017-2018.

خديجة سلاطنية:

- تجلّيات التصوف في رحلة ابن القنفذ، مذكرة ماستر في الادب الجزائري، جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر، 2017-2018.

رشيد خالدي:

- دور علماء المغرب الأوسط في الحركة العلمية في المغرب الأقصى، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ والثار، جامعة أبو بكر بلقيد، تلمسان، الجزائر، 2010-2011.

زينب رزيوي:

- العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (07هـ-09هـ/ 13م-15م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجيلالي اليابس، بلعباس، الجزائر، 2016.

مصطفى أبو ضيف:

- القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1960.

مجموعة من الأساتذة:

- موسوعة العلماء والادباء الجزائريين، دط، منشورات الحضارة، بئر توتة، الجزائر، 2014.

عبد الله بن محمد علي:

- كتاب البيان المغرب لابن عذاري ومنهجه التاريخي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، السعودية، 1419هـ.

عواطف محمد يوسف نواب:

- الرحلات المغربية والاندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين -دراسة تحليلية مقارنة-، مذكرة ماجستير، جامعة ام القرى، كلية الشريعة، مكة، السعودية، 1996.

عمارة سيدي محمد:

- هجرة الاندلسيين على بلاد المغرب خلال القرن 7هـ/13م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، وهران، 2013/2012.

عبد الله طويلب:

- الروابط الثقافية بين الدولتين المرينية ودولة بني نصر في الاندلس ق 07هـ-10هـ/ ق13م-16م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة ابوبكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010.

فافة بكوش:

- المقري ورحلته العلمية بين تلمسان وحواضر المغرب الاسلامي، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2012.

شادي حكمت ناصر:

- ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة: نسيج الواقع والخيال، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآداب، الجامعة الامريكية في بيروت، لبنان، 2003.

لامعة زكري:

- الرحلة العلمية بين الاندلس والدولة المرينية ودورها في تمتين الصلات الثقافية خلال القرنين 09/07هـ -15/13م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010.

*** المراجع الأجنبيّة**

Le Baron de Slane:

- " Histoire des Berbéres et des dynasties musulmanes de l'Afrique du Nord", Librairie orientalisre, paul gueuthner, 184, vol 1, 292.

Bouali sid ahmed:

- les deux grands siège de tlemcen, E.N.A.L, Alger, 1984.

William marçais:

- un siecle de recherche sur le passé de l'Afrique du nord, histoire et historiens de l'algérie, Collection du centenaire de l'algérie, paris, 1931.

الفهارس

الفهارس:

اولا: فهرس الآيات:

الآية	الصفحة
وامرهم شورى بينهم وشاورهم في الامر	117
واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام وتلك الايام نداولها بين الناس فاصبحوا ظاهرين ليقضي الله امرا كان مفعولا انا لله وانا لله راجعون	128
رب انزلني منزلا مباركا الارض لله يورثها من يشاء والله يحكم لا معقب لحكمه وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب يريدون ان يطفئوا نور الله	145
الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون	170

ثانيا: فهرس الأحاديث:

الحديث	الصفحة
تكون بالمغرب مدينة مولاك من علمك آية	117
اتقوا الله وصلوا الارحام اتقوا الله وصلوا ارحامكم	128
لا تزال طائفة من امتي اي الناس اشد بلاء الخلافة في قريش	146
الذين اذا رؤوا ذكر الله ان استطعت ان يغفر لك الله فافعل	170
يا ايها الناس توبوا الى الله	171

ثالثا: فهرس الأعلام:

حرف الالف:

العلم	الصفحة
ابن الابار	22، 42، 88.
الابلي	22.
ابن الاثير	53.
الاجدابي ابو عبد الله الحسين	42، 186.
ابن الاحمر	10، 22، 58، 59، 62، 73، 85، 86، 97، 108، 112، 123، 132، 189.
ابراهيم بن ابي بكر	89.
ابراهيم حركات	35
احمد بابا التنبكتي	72.
احمد بن حنبل	179.
احمد الخلوف	75.
احمد بن ابي سالم المريني	58.
امية بن الصلت	43.
اسماعيل بن يحي المزني	179.
ابن اسحاق	26، 74.

حرف الباء

العلم	الصفحة
البخاري	90، 159، 172، 180.
البرادي	48، 71، 98، 188.
البرنوسي ابو العباس الفاسي	35.
البلاذري	29، 53، 102.
البكري	32، 35، 47، 104، 119، 142، 148.
ابو بكر الصولي	313.
ابن فرج الجياني	46.
ابن بسام	46، 70.
البيذق	48، 63، 94، 104.

حرف التاء

العلم	الصفحة
التجيبي ابو بكر بن عتيق بن خلف	35.
التنسي	10، 85.
التوزري محمد بن علي	42.

حرف الجيم

العلم	الصفحة
ابن الجزار القيرواني	40.
الجوذري	40.
جعفر بن منصور اليمن	40.

حرف الحاء

العلم	الصفحة
حاجي خليفة	40، 108، 112.
حفص بن عمر	180.
ابو الحسن النوفلي	35.
ابو الحسن علي الروحي	49.
ابن حوقل	29.

حرف الخاء

العلم	الصفحة
خالد بن سنان العبسي	32.
الخزاعي	12، 52، 72، 100، 101.
ابن خلدون عبد الرحمن	03، 10، 19، 96، 135، 136، 178..
ابن خلدون يحي	03، 05، 07، 85، 88، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 144، 150، 157، 184.
ابن خلكان	39.
الخشني	30، 33، 37.
ابن خير	50، 93.

حرف الدال

العلم	الصفحة
ابو داوود	180.
الدباغ	23، 42، 89، 98.
الدرجيني	48، 71، 98.

حرف الراء

العلم	الصفحة
الرقيق القيرواني	42، 43، 45، 104، 184.
ابن رشيق	45.
الرصاع	70، 189.

حرف الزاي

العلم	الصفحة
الزركلي	40، 107، 108، 160، 180.
ابن ابي زرع	03، 05، 07، 35، 49، 70، 85، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 183.

حرف الكاف

العلم	الصفحة
ابن الكردبوس عبد الملك	49.

حرف اللام

العلم	الصفحة
لواب بن سلام اللواني	34.

حرف الميم

العلم	الصفحة
المهلب بن هيثم القيسي	30، 36.
محمد بن سحنون	33.
محمد بن زيادة الله بن الاغلب	33، 58.
	35.

محمد بن عبد الملك الودون	41.
المعز بن باديس	180.
محرز بن خلف	29.
محمد بن سعد	179.
مالك بن انس	28، 39، 96.
المقريزي	15، 48، 49، 62، 88، 94، 114، 119، 120،
المهدي بن تومرت	121، 150، 188.

حرف النون

العلم	الصفحة
النعمان ابو حنيفة القاضي	36، 38، 39، 163.

حرف الصاد

العلم	الصفحة
ابن الصغير	35، 94، 99.
الصفدي	39، 40.
ابن الصيرفي	46، 70، 104.
ابن صاحب الصلاة	49، 63، 104، 118.

حرف العين

العلم	الصفحة
ابن عبد الحكم	28، 33.
عبد الرحمان بن زياد بن انعم	30، 32.
عيسى بن مسكين	25، 31.
عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم	35.
عبد القهار بن خلف .	62.
ابو العرب	62
عبد الملك بن قطن المهري	11، 27، 28، 30، 30، 31، 37، 98.
ابو عبد الملك الملشوني	32.
عبد الله بن ابي حسان اليحصبي	32، 53.
ابن عذاري	32.
	10، 54، 55، 70، 97، 102، 104، 184.

حرف الفاء

العلم	الصفحة
فرات بن محمد العبدي	31.

حرف القاف

العلم	الصفحة
القرشي عماد الدين	39، 40.
ابن القطان	49، 66.
ابن القنفذ	155، 156، 175، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 175، 177، 178، 179، 180، 183.

حرف السين

العلم	الصفحة
سليمان بن ابي عصفور	33.
السنوسي ابو عبد الله	72، 85.
السيوطي	28.

حرف الشين

العلم	الصفحة
ابن شداد الصنهاجي	25، 44.
ابن الشماع	10، 61، 86، 95.
ورش	180.

حرف الواو

العلم	الصفحة
الواقدي	26، 29.

حرف الياء

العلم	الصفحة
ياقوت الحموي	28.
اليعقوبي	29، 53، 126.
يحي بن عمر	34.

رابعا: فهرس الاماكن

حرف الالف

المكان	الصفحة
اسفي	69

حرف الباء

المكان	الصفحة
بجاية	11، 16، 17، 22، 41، 44، 67، 79، 86، 87، 88، 138، 147، 162.
بسكرة	137، 138.

حرف التاء

المكان	الصفحة
تونس	10، 16، 17، 22، 30، 36، 37، 55، 58، 60، 61، 68، 70، 76، 80، 87، 122، 135، 136، 140، 145، 147، 158، 159، 161، 162، 182.
تلمسان	09، 11، 12، 13، 14، 15، 19،18، 22، 55، 57، 59، 60، 67، 70، 113، 130، 135، 149.

حرف الجيم

المكان	الصفحة
الجزائر	12، 17، 52، 58، 153.

حرف الطاء

المكان	الصفحة
طرابلس	17، 122.

حرف الميم

المكان	الصفحة
مراكش	15، 20، 29، 49، 55، 63، 85، 103، 114، 152.

حرف الفاء

المكان	الصفحة
فاس	20، 21، 39، 61، 67، 78، 88، 90، 98، 107، 108، 109، 116.

حرف القاف

المكان	الصفحة
قسنطينة	16،29، 80، 138، 155، 156، 157، 158، 163، 183، 191.
القيروان	11، 26، 27، 41، 67، 89، 184، 186.

حرف الواو

المكان	الصفحة
وهران	19، 139.

خامسا: فهرس الاشعار:

البيت	الصفحة
وأزرت ببر لكنة اعجمية	126
لكل شيء اذا ما تم نقصان	131.
تلمسان جادتك السحب الدوالح	151.
مضت ستّون عاما	155.

سادسا: فهرس الموضوعات:

الموضوع	الصفحة
تشكرات.....	
اهداء.....	
مختصرات.....	
مقدِّمة.....	02
الفصل التمهيدي: بلاد الغرب الاسلامي عند الإنقسام الثّالث –التّاريخ والثّقافة–	15
توطئة.....	15
أوّلا: دول المغرب الاسلامي بعد الموحدين.....	15
1–الدولة الحفصية.....	15
2– الدولة الزيانية.....	18
3– الدولة المرينية.....	20
ثانيا: ملامح ثقافة تاريخيّة جديدة في واقع سياسيّ جديد.....	21
الفصل الأول: الاستوريوغرافيا التّاريخيّة بالمغرب الإسلامي إلى غاية سقوط الموحدين	25
توطئة	25
أولا: تاريخ الكتابة التّاريخيّة في المغرب الإسلاميّ قبل القرن الرّابع الهجريّ	27
ثانيا: القرن الرّابع... التاريخ الموجّه	35
ثالثا: الكتابة التاريخية بعد الفاطميين... الإرث والقطيعة	40
الفصل الثاني:اتّجاهات ومناهج التّدوين التاريخي ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 8هـ–9هـ.....	51
توطئة	51
اولا: التاريخ العام	52
ثانيا: التاريخ المحلي ...الدول والمدن (التاريخ السياسيّ)	53
ثالثا: التّراجم ..السّير والمناقب الصوفيّة.....	63
رابعا: أدب الرحلة	73
الفصل الثالث: الكتابة التاريخيّة في المغرب الاسلاميّ خلال القرنين 9/8هـ..المؤثّرات والخصائص	81
توطئة.....	81
اولا: المؤثرات الثقافية.....	81
1– العلماء والأمراء.. جدليّة الرعاية والبحث عن الشرعيّة (العامل السياسيّ).....	81
2– البحث عن الذات (النزعة الصوفيّة)	83

3– الرحلة العلميّة	84
4– مذهب مالك وأثره في التأليفالتاريخيّ.....	85
5– عناية الحكام بالعلم	86
ثانيا: خصائص الكتابة التاريخيّة في المغرب الإسلاميّ.....	88
1– الخصائص الموضوعاتيّة (ثراء حقول التأليف التّاريخيّ)	93
2– الخصائص المنهجيّة (تمثّلات مناهج التدوين التاريخيّ).....	102
الفصل الرابع: ابن ابي زرع المرينيّ الفاسيّ.....	102
أولا: ترجمة المؤلِّف.....	106
ثانيا: دراسة تآليفه.....	129
الفصل الخامس: يحي بن خلدون ت 780هـ.....	129
أوّلا: ترجمة المؤلِّف.....	134
ثانيا" دراسة مؤلّفاته.....	148
الفصل السادس: ابن القنفذ ت 810 هـ.....	148
أوّلا: ترجمة المؤلِّف.....	153
ثانيا" دراسة مؤلّفاته.....	174
الخاتمة.....	177
الملحق 01.....	178
الملحق 02.....	181
ثبت المصادر والمراجع	185
أوّلا: المصادرالعليا.....	185
ثانيا: المصادر المطبوعة.....	185
ثالثا: المراجع.....	197
الفهارس.....	208
اولا: فهرس الآيات.....	208
ثانيا: فهرس الاحاديث.....	209
ثالثا: فهرس الاعلام.....	210
رابعا: فهرس الاماكن.....	215
خامسا: فهرس الاشعار.....	216
سادسا: فهرس الموضوعات.....	217

الملخص:

تهدف الدراسة الى تتبع المنجز التاريخي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ومن وراءه رصد موضوعات واتجاهات الكتابة التاريخية خلال ذينك القرنين، من خلال الوقوف على التآليف التاريخية الصرفة، او تلك التي تحمل تاريخا، ومنه استجلاء حركة الكتابة التاريخية وقتها، واستقصاء مناهج التدوين التاريخي وهي المفصليات التي نحاول من خلالها تكشف موقعية القرنين الثامن والتاسع الهجريين بين قرون العصر الوسيط، ذلك انه ازهى قرون الكتابة موضوعا ومنهجا، ومنه استشكال مدى ارتقاء الكتابة التاريخية وقتها الى مستوى الفكر التاريخي، وخلال ذلك كله يحاول الباحث تتبع المؤثرات التي وجّهت كتابة التاريخ، واثر ذلك على الكتابة، ثم اسقاط ما تم التنظير له عل ثلاث مؤرخين تم اختيارهم لتتبع موضوعاتهم ومناهجهم، وهم ابن ابي زرع، ابن القنفذ، ويحي ابن خلدون.

وقد خلص البحث الى ما يحيل الى ان الكتابة التاريخية خلال القرنين المدروسين قد استقامت على شاكلة يمكن من خلالها الحكم على ارتقائها الى مستوى الفكر التاريخي، من خلال تنوع مواضيعها ومناهجها، ويحيل الى مزيد من الحفر في المصادر للرقي بها الى مستوى المدرسة التاريخية.

الكلمات المفتاحية: الكتابة التاريخية، المنهج، ابن ابي زرع، يحي بن خلدون، ابن القنفذ.

Summary:

The aim of this study is to trace historical achievements during the eighth and ninth centuries AH (Islamic calendar) and, in doing so, monitor the themes and trends of historical writing during those centuries. This is accomplished by examining specific historical works or those that have historical significance. Through this analysis, the study elucidates the movement of historical writing at that time and investigates the methodologies of historical documentation, which serve as the key texts used to reveal the positioning of the eighth and ninth centuries AH among the centuries of the medieval period. These centuries represent the pinnacle of historical writing in terms of subject matter and methodology. The study also questions the extent to which historical writing at that time reached the level of historical thought. Throughout the research, the researcher attempts to track the influences that directed historical writing and their impact on the writing itself. This is followed by an examination of the achievements of three selected historians – Ibn Abi Zar, Ibn al-Qanafidh, and Ibn Khaldun –

in order to trace their respective themes and methodologies. The research concludes that historical writing during the studied centuries adhered to a framework that allows us to assess its progression towards the level of historical thought, based on the diversity of its topics and methodologies. However, further exploration of sources is needed to elevate it to the level of a comprehensive historical school.

Keywords: Historical writing, methodology, Ibn Abi Zar, Ibn Khaldun, Ibn al-Qanafidh.